

رسائل شوق وحنين
(٥)

رسائل إلى .. الصحابة المنتجبين

سبع رسائل في فضل الصحابة المنتجبين والقيم التي مثلوها

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة لتعميق المحبة الحقيقية لأصحاب رسول الله ﷺ الذين وردت النصوص المقدسة بالثناء عليهم واعتبارهم نماذج شريفة للصحبة الحقيقية التي لم تبدل ولم تغير ولم تتأثر بذلك الواقع الجديد الذي حصل بعد رسول الله ﷺ نتيجة ما فتح الله على المسلمين من الدنيا.

وقد كان الأساس الأول لاختيارنا لهؤلاء الأصحاب ما ورد من الثناء عليهم، والذي اتفقت عليه جميع مدارس المسلمين، وخصوصا المدرستين الكبيرتين: السنة والشيعة، باعتبارهما الركنين الكبيرين للإسلام.

ولذلك استبعدنا كل من وقع فيه الخلاف بينهم، من أمثال أولئك الصحابة المختلقين الذين وضعهم سيف بن عمر، أو من أمثال أولئك الذين وضعت لهم الفئة الباغية الكثير من المناقب قصد الإضرار بالمخالفين لها، أو أولئك الصحابة الذي وقفوا أيام الفتنة مع الفئة الباغية مناصرين أو مؤيدين أو مقاتلين معها، وذلك بناء على اعتبار ذلك ثلمة كبيرة في وفائهم بعهودهم.

رسائل شوق وحنين

(5)

رسائل إلى..

الصحابة المنتجبين

سبع رسائل في فضل الصحابة المنتجبين والقيم التي مثلوها

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2019 . 1440

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 7

المقدمة 9

رسالة إلى الأصحاب النصحاء 13

رسالة إلى الأصحاب الشهداء 37

1. شهداء المقاومة: 42

أ ـ شهداء بدر: 42

ب ـ شهداء أحد: 48

ج. شهداء آخرون: 60

2. شهداء الدعوة: 67

رسالة إلى الأصحاب الأوفياء 73

1. المقداد بن الأسود: 78

2. بلال بن رباح: 87

3. خباب بن الأرت: 96

4. حجر بن عدي: 100

رسالة إلى الأصحاب الحكماء 109

1. حذيفة بن اليمان: 110

2. عبد الله بن مسعود: 130

3. عبد الله بن عباس: 144

رسالة إلى أبي ذر الغفاري 163

1. معرفة الحق: 165

2. العمل بالحق: 189

3. نصرة الحق: 192

4. موتة الحق: 199

رسالة إلى عمار بن ياسر 207

1. المواجهة التنزيلية: 213

2. المواجهة التأويلية: 222

رسالة إلى سلمان الفارسي 239

1. الباحث عن الحقيقة: 243

2. الدال على الحقيقة: 251

المقدمة

هـذا الكتـاب محاولـة لتعميـق المحبـة الحقيقيـة لأصـحاب رسول اللـه ﷺ الـذين وردت النصـوص المقدسـة بالثنـاء عليهم واعتبارهم نماذج شـريفة للصـحبة الحقيقيـة الـتي لم تبـدل ولم تغير ولم تتأثر بذلك الواقع الجديد الذي حصل بعـد رسـول اللـه ﷺ نتيجة ما فتح الله على المسلمين من الدنيا.

وقد كان الأساس الأول لاختيارنا لهـؤلاء الأصـحاب مـا ورد من الثناء عليهم، والذي اتفقت عليه جميع مـدارس المسـلمين، وخصوصـا المدرسـتين الكبـيرتين: السـنة والشـيعة، باعتبارهمـا الركنين الكبيرين للإسلام.

ولذلك استبعدنا كل من وقع فيـه الخلاف بينهم، من أمثـال أولئك الصحابة المختلقين الذين وضعهم سـيف بن عمـر، أو من أمثال أولئك الذين وضعت لهم الفئة الباغية الكثير من المنـاقب قصد الإضرار بالمخالفين لها، أو أولئك الصحابة الذي وقفوا أيام الفتنة مع الفئة الباغيـة مناصـرين أو مؤيـدين أو مقـاتلين معهـا، وذلك بناء على اعتبـار ذلـك ثلمـة كبـيرة في وفـائهم بعهـودهم، خاصة مع ما ورد من قول الإمام علي: (والذي فلق الحبـة وبـرأ النسـمة إنـه لعهـد النـبي الأمي ﷺ: (ألا يحبـني إلا مـؤمن ولا يبغضني إلا منافق) [1]

وقـال رسـول اللـه ﷺ لابنتـه فاطمـة: (إن اللـه بـاهى بكم وغفـر لكم عامـة، ولعلى خاصـة، وإنى رسـول اللـه إليكم غـير

[1] () رواه مسلم (78)، والترمذي (5/ 306) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (114) والنسائي (8/ 117) وفي خصائص علي (100 - 102)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على الفضائل (1102) وأبو نعيم في الحلية (4/ 185)

محاب لقرابتي، هذا جبريل يخبرني أن السعيد حق السعيد من أحب عليا في حياته وبعد موته وإن الشقي كل الشقي من أبغض عليا في حياته وبعد موته)[1]

وقد أقر له بهذا كل الصحابة حتى الذين وقفوا موقفا سلبيا أيام الفتنة إما بعدم نصرته، أو الوقوف مع أعدائه، وقد حدث ابن عمر قال: (ما كنا نعرف المنافقين على عهد النبي ﷺ إلا ببغضهم علياً).. وحدث جابر قال: (ما كنا نعرف منافقينا معشر الأنصار إلا ببغضهم لعلي). وحدث أبو سعيد الخدري قال: (إنما كنا نعرف منافقي الأنصار ببغضهم عليا).. وحدث أبو عثمان النهدي، قال: قال رجل لسلمان: ما أشد حبك لعلي؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أحب علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله عز وجل، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل)[2]

ولذلك فإن هذا الاعتبار الذي وضعناه معيار شرعي، خاصة مع تلك الأحاديث الكثيرة التي تعتبر الإمام علي فاصلا بين الإيمان والكفر، أو علامة على صدق الاتباع وكذبه، ولا حرج في ذلك، فالله تعالى يختبر عباده بما شاء، ومن شاء، ولا يصح أن يجادل في ذلك الاختيار، خاصة مع ورود النصوص الكثيرة الدالة على ابتلاء الأمة بأهل بيت نبيها ﷺ.

لكنا مع ذلك لم نتحدث عن أولئك الذين تخلفوا عن الوفاء بهذا الشرط بأي حديث يسيء إليهم، فأمرهم لله تعالى، وإنما كان جل اهتمامنا بالذين أحسنوا الوفاء بشروط الصحبة،

1() رواه الطبراني (22/415، رقم 1026)

2() انظر هذه الآثار في: المستدرك (3/ 130) الطبراني في المعجم الكبير (23/ 380/901) وغيرها.

وداوموا على الحفاظ على عهودها، وهم كثيرون جدا.

وأولهم أولئك الذين مضوا شهداء في سبيل الإسلام، سواء قبل الهجرة أو بعدها، وقد خصصنا لهم فصلا خاص.

ومنهم أولئك الذين أُبعدوا ولم يهتم بهم بعد وفاة رسول الله ﷺ، وعزلوا عن المناصب التي تولاها الطلقاء، ثم عزلوا بعد ذلك عن ذكرهم والحديث عنهم، وخاصة من أولئك الذين يدعون حب الصحابة، بينما هم لا يقصدون منهم إلا الطلقاء أو من شابههم، ويدخل فيهم الكثير من الأنصار وأصحاب الحرة وغيرها، والذين ذكر رسول الله ﷺ مظلوميتهم بعده.

ومنهم أولئك الأوفياء بالعهود الذين مثلوا الصحبة أحسن تمثيل، وكانت لهم آثارهم في مواجهة التحريفات التي طرأت على الدين.

ومنهم أولئك الحكماء الذين حذروا من الفتن، ودعوا إلى العودة إلى الإسلام المحمدي الأصيل، وقد اهتممنا بهؤلاء خصوصا، فقد وضعنا فصلا خاص بهم، ثم أضفنا ثلاثة فصول أخرى تابعة لهم، تتمثل في ثلاثة من كبار الصحابة ورد الثناء الخاص عليهم، وهم أبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر.

وقد حرصنا على التركيز على القيم المرتبطة بالدين، وتمثيل هؤلاء الصحابة لها، لأن القصد من الدعوة لمحبة الصحابة هو اعتبارهم تلاميذ ناجحين لرسول الله ﷺ، ولقيم الدين، ولذلك يرتبط ذكرهم بذكر القيم والأخلاق، لا بمجرد ذلك الحديث الأجوف المسيء لرسول الله ﷺ وللصحابة أنفسهم، والذي يذكر أن الارتباط بالصحابة ارتباط بذواتهم لا بالقيم الأخلاقية والروحانية التي مثلوها.

وقد كان رائدنا في هذا، وقدوتنا فيه الإمام علي الذي أثنى على الصحابة، لا بذواتهم، وإنما بسلوكهم وأخلاقهم، فقد قال: (قد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى أحداً يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجّداً وقياماً يراوحون بين جباهِهِم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم رُكب المعزي من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبُلَّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب)[1]

ولذلك لا نؤمن بتلك المقولات التي نشرتها الفئة الباغية، والتي تنظر إلى الصحبة نظرة أسطورية بعيدة عن المعاني والقيم حتى أنها تدعو إلى محبة أولئك الذين اخترقوا حدود الدين ووقعوا في الكبائر وقتلوا المستضعفين، مع أن النصوص المقدسة تدعو إلى بغض أمثال هؤلاء، واعتبار ذلك البغض قربة لله.

وقد صغنا هذه المعاني جميعا صياغة أدبية على شكل رسائل موجهة لهؤلاء، لأن القصد من هذه السلسلة ربط حقائق الدين وقيمه بالروح والعاطفة، وليس بالعقل فقط.

---

[1] () نهج البلاغة للشريف الرضى شرح محمد عبده ص 225 ...

رسالة إلى الأصحاب النصحاء

سادتي يا أصحاب رسول الله ﷺ النصحاء الخالصين الـذين امتلأوا بالصـدق والإخلاص والتقـوى وكـل القيم الرفيعـة.. ولم يستفيدوا من تلك الصحبة الشريفة سواها، فهي أكبر نعمة أنعم الله بها عليهم.. ولذلك لم يكن لهم بعدها غـرض في الـدنيا، ولا متاعها، وإنما كان غرضهم الدين وقيمه.

يا من يا من ضحيتم بكل ما تملكون في سبيل الله.. يا من قـال اللـه تعـالى فيهم: ﴿وَالسَّـابِقُونَ الْأَوَّلُـونَ مِنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]

اسمحوا لي أيها الأجلاء المنتجبـون أن أبث إليكم شـكواي، وأضـع بين أيـديكم آلامي، فـأنتم لا تختلفـون أبـدا عن أهـل بيت النبـوة، ولا بــني هاشــم، ولا غــيرهم.. فــديننا دين قيم، لا دين أنساب.. ودين الله لا دين عشائر.. وقد قال رسول اللــه ﷺ في سلمان الفارسي: (سلمان منا أهل البيت)[1]

لقــد اســتبدلتكم الأمــة بالطلقــاء والمتخلفين والناقضــين للعهود، والذين أصـبح لهم الريـادة والسـيادة، وأدخلـوا في كتب العقائـد والفقـه والحـديث، وأبيحت دمـاء كـل من ينتقـدهم، أو يعرض أعمالهم على الكتاب والسنة وقيم الدين الرفيعة، ولذلك نفقت بضــاعة الطلقــاء وراجت، وصــار الكتــاب والخطبــاء

[1] () المستدرك على الصحيحين للحاكم 3/691 ح(6539)، المعجم الكبـير للطـبراني 6/212 ح6040)

يتنافسون في الكتابة عنهم والإشادة بفضلهم في نفس الوقت الذي ينسونكم فيه، وينسون بلالا والصخرة التي كانت تجثم على صدره، وهو ينادي أحد أحد..

فالكل الآن يعرف معاوية وأباه وأمه وإخوانه وأخواته ويشيد بهم جميعا، وبالمناصب الرفيعة التي تولوها.. أما بلال ذلك العبد المسكين، فلا أحد يعرف المصير الذي صار إليه، ولا الحياة التي عاشها بعد وفاة حبيبه رسول الله ﷺ، مع أنه كان خازن رسول الله ﷺ والأمين على مال الأمة في حياته.

وهكذا أسدلت حجب النسيان والغفلة على سمية تلك التي كانت أول شهيدة في الإسلام.. فلا أحد يذكر زوجها ياسر الذي كان أول الرجال استشهادا في سبيل الله.. ولا أحد يذكر ابنهما عمارا.. لأن ذكره سيشوه الطلقاء، وسيقلب صفحاتهم المنتنة، وسيبعث في جماهير المغفلين السؤال عمن قتله، ولم قتله، وكيف قتله؟ وكل ذلك سيحول الطلقاء من صحابة أجلاء إلى ظلمة وطواغيت.

وهكذا نسيت لبينة جارية بني المؤمل المستضعفة المعذبة[1]، وقد كانت من السابقين إلى الإسلام، وأوذيت إيذاء شديدا.. لأن في ذكرهم لها ولكيفية تعذيبها إحراجا كبيرا لمن قدمناهم بأهوائنا وأذواقنا ومعاييرنا البشرية القاصرة.

وهكذا نسيت أم عبيس، أمة بني زهرة[2]، تلك التي كانت قريش ـ التي أدخلنا تعظيمها في أبواب العقائد، وتوهمنا أنها

---

[1] () أنساب الأشراف: 1/84.

[2] () المرجع السابق، 1/84.

بريئة من النفاق ـ تعذبها عذابا شديدا هي وزوجهـا أبـو عـبيس.. ولا زلنا إلى الآن نجهل نسبهما كما نجهل كل ما يرتبط بهما.

وهكذا نسيت النهدية تلك الجارية اليمنية المستضعفة التي كانت من السابقين إلى الإسلام، فكانت سيدتها تعذبها، وتقـول: واللـه لا أقلعت عنك[1].. وهكـذا كـان حـال ابنتهـا الـتي عـذبت معها، ولا نزال إلى الآن لا نعرف اسـمها ولا اسـم ابنتهـا، ولا أي تفاصيل عنها في نفس الوقت الذي نعرف فيه أنساب الطلقاء، ونعتز بها، وندخلها في كل دواوين الإسلام.

وهكذا نسيت زنيرة[2] تلك الجارية المستضعفة التي كانت يتداول المشركون على تعـذيبها بكـل صـنوف العـذاب الحسـي والمعنوي، حتى أن أحدهم كان يقول سـاخرا منهـا: ألا تعجبـون لهؤلاء واتبـاعهم محمـدا؟ فلـو كـان أمـر محمـد خـيراً وحقـاً مـا سبقونا إليه؟ أفسبقتنا زنيرة إلى رشد، وهي من تـرون؟.. تلـك التي عذبت إلى أن عميت، فقال لها أبو جهل: إن اللات والعزى فعلتـا بـك مـا تـرين، فقـالت، وهي لا تبصـره: ومـا تـدري اللات والعــزى، من يعبــدهما ممن لا يعبــدهما؟ ولكن هــذا أمــر من السـماء، وربي قـادر على أن يـرد بصـري، فأصـبحت من تلـك الليلة وقد رد الله عليها بصرها، فقـالت قـريش: هـذا من سـحر محمد.

وهكـذا نُسـي كـل أولئـك السـابقين الصـادقين، واسـتبدلوا بالطلقاء والمتخلفين.. وراح سدنة الملـك العضـوض، ومـروجي دين الفئـة الباغيـة يكـذبون على النـاس حين يوهمـونهم بصـدق

1() المرجع السابق، 1/84.

2() المرجع السابق، 1/84.

إيمـانهم بعـد أن رأوا جيـوش المسـلمين قادمـة لفتح مكـة، في نفس الوقت الذي لم يؤمنوا فيه، وهم يـرون القمـر ينشـق في السماء، ويسمعون تلك الآيات العجيبة من القرآن الكريم.

في نفس الوقت الذي يعتبرون فيـه عبـد اللـه بن أبي لجـأ إلى النفاق حتى يحمي مكانته بين قومه، ويكـذبون على النـاس حين يذكرون لهم أن النفاق خاص بأهـل المدينـة، ولا علاقـة لـه بقريش.. وكأنهم لم يقرؤوا قوله تعـالى عنهـا في أوائـل سـورة يس التي هي قلب القـرآن:﴿يس (1) وَالْقُـرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـلِينَ (3) عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (4) تَنْزِيـلَ الْعَزِيـزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَـوْلُ عَلَى أَكْثَـرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُـونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَـا فِي أَعْنَـاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَـــانِ فَهُمْ مُقْمَحُـــونَ (8) وَجَعَلْنَـــا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِـرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَـا تُنْـذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِـيَ الـرَّحْمَنَ بِـالْغَيْبِ فَبَشِّـرْهُ بِمَغْفِـرَةٍ وَأَجْـرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 1 - 11]

مع أنهم يذكرون في سبب نزولها عن ابن عباس أنه قـال: (كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حـتى تـأذى بـه ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيـديهم مجموعـة إلى أعنـاقهم، وإذا هم لا يبصـرون، فجـاءوا إلى النـبي ﷺ فقـالوا: (ننشدك الله والرحم يا محمد ولم يكن بطن من بطون قــريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبي ﷺ حـتى ذهب ذلـك عنهم) [1]

[1] رواه ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمـأثور (7/ 42).

وهكـذا نسـيت كـل هـذه الآيـات، ونسـيت معهـا كـل تلـك الحروب التي شُنت على المسلمين، ونُسي كـل ذلـك التعـذيب الـذي مـورس على المستضـعفين، وأصـبح أبـو سـفيان وهنـد وأولادهم من خيار الصحابة، بل صـارت الكتب تؤلـف فيهم وفي فضلهم في نفس الوقت الذي يجهل الناس بلالا وعمارا وسـمية وزنيرة.. وكل أولئك الذين لا يصـح أن يطلـق اسـم الصـحابة إلا عليهم.

ويستدل أصحاب الملـك العضـوض، وسـدنة الفئـة الباغيـة على ذلـك الإلغـاء والطـرد للسـابقين الأولين في نفس الـوقت الذي يقربون فيه البغاة والطلقـاء بـأن الخلفـاء الأوائـل وظفـوا أبناء أبي سفيان في وظائف الدولـة الكـبرى بعـد وفـاة رسـول الله ﷺ..

ويـا ليت شـعري مـا هـذا الاسـتدلال الغـريب، وهـل كـان الخلفاء الأوائل معصومون في ذلك التوظيـف.. ألم يكن رسـول الله ﷺ نفسه ينكر على أصـحابه إنكـارهم لتـولي أسـامه وأبيـه، فقد ورد في الحديث أنه حين أراد النبي ﷺ أن يبعث بعثًا، وأمّـر عليهم أسامة بن زيد، طعنـوا في إمرتـه، فقـام ﷺ، فقـال: «إن تطعنوا في إمرتـه، فقـد كنتم طعنتم في إمـرة أبيـه من قبلـه.. وأيم اللـه إن كـان لخليقًـا للإمـارة، وإن كـان لمن أحب النـاس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[1]

لكنا لو تركنا ذلك التقـديس المبـالغ فيـه، ورحنـا ننظـر في أولى النـاس بتلـك المناصـب الرفيعـة، الـتي لم تكن مناصـب سياسية فقط، بل كانت مناصب تمثـل الإسـلام، وقيم الإسـلام،

---

[1] () رواه البخاري (6627) ، ومسـلم (2426) ، والترمـذي (3816) ، والنسـائي في الكبرى (8181)

فسنجد أن هناك تقصيرا كبـيرا حصـل للسـابقين الصـادقين من المهاجرين والأنصار في نفس الـوقت الـذي ولي فيـه الطلقـاء، لسبب بسيط، وهو كونهم من قريش، وكـانوا من سـاداتها، مـع أن رسـول اللـه ﷺ كـان يـردد على آذانهم كـل حين: «اسـمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة»[1]

أليس من العجيب سادتي أن يتولى أبناء أبي سفيان الذين كان لهم ولأبيهم سهم في المؤلفة قلـوبهم أرفـع المناصـب في نفس الوقت الذين يعزل فيه كل أولئك الذين قدموا كـل شـيء في سبيل الله.. يعزلون هم وأولادهم، حتى لا نكاد نسـمع عنهم شيئا.

فيزيد بن أبي سفيان الذي يسمونه يزيد الخير، والذي كان من الطلقاء، وألف النـبي ﷺ قلبـه للإيمـان بمائـة بعـير وأربعين أوقيّة [2]، صار قائدا على أول الجيوش التي أرسلت إلى الشام لفتحها ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضـرورة، مـع أنه كان من المنهزمين يـوم حـنين، وكـان في الصـحابة من هـو أولى منه قدرة ودينا وصلاحا.

وأبو الوليد عتبة بن أبي سـفيان، صـار واليـا على الطـائف وصدقاتها، ثم ولاه معاويـة مصـر حين مـات عمـرو بن العـاص، وكـان حريصـا على المناصـب، ويخطـط لأعلاهـا، وقـد رووا أنـه اعترضه أعرابي وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قـال: لسـت به ولم تبعد [3].

1() صحيح البخاري 9/62 ح(7142).

2() التبيين في أنساب القرشيين ص 204 .

ومعاوية بن أبي سفيان ولي في أكبر وظـائف الدولـة منـذ عهد مبكر، حيث ولي فتح قيسارية سنة خمس عشرة للهجــرة، ويذكر المؤرخون الإسلاميون بفخر كيف شـوه الفتح الإسـلامي، حيث أنهم يذكرون أنه (سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعــدهم له أخوه يزيد بن أبي سفيان ـ أحـد ولاة الشـام لعمـر ــ وكـانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طـويلاً وزاحف أهلهـا مـرات عديـدة، فلم ييـأس معاويـة، فصـمم على فتحها، واجتهد في القتال حتى فتح الله على يديـه، وكـان فتحـه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائـة ألـف، وبعث بـالفتح والأخمـاس على أمـير المؤمـنين عمـر، وقـد أثبت معاويـة بعـد توفيق الله ـ بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقـة الجميع، فأسند له أخوه يزيد ـ أمير دمشق ـ مهمة فتح ســواحل الشام، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً)[1]

وهم يذكرون بفخر كذلك أنـه عنـدما تـوفي أخـوه يزيـد بن أبي سفيان في طاعون عمـواس، جلس بدلـه في حكم دمشـق وبعلبك والبلقاء[2]، ويذكرون أنه كان لـذلك أثـر كبـير في نفس أبي سفيان، وجعل إسلامه يرسخ أكثر، فما أجمل الإسلام الـذي يأتي بالمناصب والأموال..

وقد رووا أن عمر حين عزى أبا سفيان في وفاة ابنه يزيــد قال: يا أمـير المؤمـنين من وليت مكانـه؟ قـال: أخـوه معاويـة. قال: (وصلت رحماً يا أمير المؤمنين)

3() المرجع السابق، ص 208 .

1() نهاية معاوية بن أبي سفيان، الصلابي، ص45.

2() الطبقات الكبرى (7/406)

ويروون ـ بفخر ـ أن أبا سفيان كتب حينها لمعاوية يقول له: (يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد فنافس، فإن بلغته أورثته عقبك)[1]

وهكذا كتبت هند تقول لابنها: (والله يا بني إنه قل أن تلد مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت)[2]

بل إنهم صاروا يعتبرون هندا ـ تلك الصحابية الجليلة كما يطلقون عليها ـ مثالا للهمة العالية، وقد قال بعضهم في كتاب حول الهمم العالية: (ومن شرف النفس وعلو الهمة ما قالته هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وأم معاوية رضي الله تعالى عنهم أجمعين، حين أتاها نعي يزيد بن أبي سفيان وقال لها بعض المعزين: إنا نرجو أن يكون في معاوية خلف من يزيد يواسونها ويعزونها، فقالت: أو مثل معاوية يكون خلفاً من أحد؟! والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيهم لخرج من أي أعراضها شاء.. وقيل لها -أيضاً- ومعاوية وليد بين يديها: إن عاش معاوية ساد قومه.. فقالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه! وهذه العبارة لها معان عظيمة جداً بعيدة المرمى؛ لأن معنى ذلك أن وليدها بضعة لحم لا يظهر عليه أي أمر مما يقطع بأن هذا سيكون إنساناً له شأن، ولكن هذا معناه أنها تنوي أن

1() البداية والنهاية (11/399)

2() المرجع السابق، (11/399)

تربي هذا الولد وتوجهـه، حـتى إنهـا لتـأنف من أن يسـود قومـه فقط، بل غضبت حينما قالوا لها: إن عاش معاوية سـاد قومـه.. فقالت: ثكلتـه -أي: الأفضـل أن يمـوت- إن لم يسـد إلا قومـه.. ومعروف أن معاوية من أكثر العرب سيادة وسياسة وحكمة[1]

وهكذا ولي أبو هريرة الذي لم يشـارك في أي غـزوة، ولم يمس بـأي أذى، وتـأخر إسـلامه إلى مـا قبـل الفتح في أكـبر المناصـب، وقـد روي أنـه أيـام ولايتـه على المدينـة في خلافـة معاوية كـان يتصـرف تصـرفات غريبـة تلفت الانتبـاه إليـه، وهم يحملونها على تواضعه، ولكنهـا قـد تحمـل على محامـل أخـرى، ومنها ما رواه محمد بن زياد قال: كان مروان ـ أيام ولايتـه على المدينة في خلافة معاويـة ـ يسـتخلف أبـا هريـرة على المدينـة فيضرب برجليه فيقـول: خلـوا الطريـق خلـوا الطريـق قـد جـاء الأمير قد جاء الأمير ـ يعني نفسه[2].

بل إنه ولي قبل ذلـك، فقـد ولاه عمـر على البحـرين سـنة 21هـ، ثم عزله بعـد أن بلغتـه عنـه أشـياء تخـل بأمانـة الـوالي، وولى مكانه عثمان بن أبي العـاص الثقفي، فقـد روي أنـه قـدم بعشـرة آلاف، وهـو مبلـغ ضـخم جـدا في ذلـك الحين وفي هـذا الحين، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو اللـه وعـدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، فقال له عمر: فمن أين هي لك؟ قال أبـو هريـرة: خيل نتجت، وغلة رقيق لي، وأعطية تتابعت علي[3].

---

[1] () سلسلة علو الهمة - المقدم (5/ 4)

[2] () رواه أحمد: 2/94.

وفي رواية أن عمر قال لأبي هريرة: (كيف وجدت الإمـارة يا أبا هريرة؟ قال: بعثتني وأنا كاره، ونزعتني وقد أحببتها، وأتـاه بأربعمائة ألف من البحرين، فقال: أظلمت أحدا، قـال: لا، قـال: أأخذت شيئا بغير حقـه؟ قـال: لا، قـال: فمـا جئت بـه لنفسـك؟ قال: عشرين ألفا، قال: من أين أصبتها؟ قال: كنت أتجر، قـال: فـانظر رأس مالـك ورزقـك فخـذه واجعـل الآخـر في بيت المال[1].

لقد روي كل هذا بفخر واعتزاز في نفس الوقت الذي كان فيه أولئك السابقون الصادقون يعيشون كل أنواع الآلام والفقر، لا يلتفت لهم أحد.. ولا يهتم بهم أحد.. سواء في حيـاتهم أو بعـد وفاتهم..

وقد روى المؤرخون الـذين يعتـبرونهم تلـك المعانـاة الـتي عاناها أبـو ذر، حين نفي إلى الربـذة، وهي على بعـد ثلاثـة أيـام من المدينة المنورة، لخلافـه مـع معاويـة، مـع كـون أبي ذر من السـابقين الأولين إلى الإسـلام، يقـول ابن عبـد الـبر في [الاستيعاب]: (بعد أن أسلم أبو ذر، رجـع إلى بلاد قومـه، فأقـام بها حـتى مضـت بـدر، وأحـد، والخنـدق، ثم قـدم على النـبي ﷺ المدينة، فصحبه إلى أن مات ﷺ، ثم خرج بعد وفاة أبي بكر إلى الشـام، فلم يـزل بهـا حـتى ولي عثمـان، ثم اسـتقدمه عثمـان لشكوى معاوية، فنفاه وأسكنه الربذة، فمات بها..)[2]

3() انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، (5/ 252). تاريخ دمشق، ابن عساكر، (67/370). سير أعلام النبلاء (2/612)

1() الطبقات الكبرى، ابن سعد، (5/ 252، 253)

2() الاستيعاب (حاشية على كتاب الإصابة) م 1 ص 213 ..

هكذا كان حاله مع أن رسول الله ﷺ قال عنـه: (مـا أظلت الخضـراء، ولا أقلت الغـبراء من ذي لهجـة أصـدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم)[1]

لكنهم يصورونه بصورة الضـعيف الـذي لا يسـتطيع الحكم، في نفس الـوقت الـذي يسـتطيع ذلـك أبـو هريـرة وأولاد أبي سفيان.

وهكـذا كـان حـال غـيره من الـذين لم يتح لهم ــ بسـبب حفاظهم على قيم الـدين ــ أن تصـير لهم أمـور الأمـة، بعـد أن صـارت للطلقـاء، والانتهـازيين الـذين يسـتعملون كـل الطـرق للوصول إلى غاياتهم.

وهكذا كـان حـال حذيفـة بن اليمـان، ذلـك التلميـذ الـذكي النجيب من تلاميذ رسول الله ﷺ، فقـد روي أن عمـر ولاه على المدائن، وكتب له عهدا قـال فيـه لأهـل المـدائن: (اسـمعوا لـه وأطيعوا وأعطوه ما سـألكم)، فخـرج على حمـار موكـف، تحتـه زاده، فلمـا قـدم المـدائن، اسـتقبله أعـاظم الـدهاقين (التجـار) وبيده رغيف، وعرق من لحم. ولما قرأ عليهم عهده، قالوا: سل ما شئت، قال: طعاما آكله، وعلف حماري هـذا - مـا دمت فيكم - من تبن. فأقام ما شاء الله، ثم كتب إليه عمـر: (أقـدم)، فلمـا بلغه قدومه، كمن له على الطريق - وكانت هـذه عادتـه - فلمـا رآه على الحال التي خرج عليها، أتـاه فالتزمـه وقـال: أنت أخي وأنا أخوك[2].

1() الترمذي (3802).

2() سير أعلام النبلاء: 2/260.

وهكذا كان حال سلمان الفارسي الذي دخـل عليـه قـوم - وهو أمير على المدائن - وهو يعمل الخوص، فقيل له: لم تعمـل هذا وأنت أمير يجرى عليك رزق؟ فقال: (إنى أحب أن آكـل من عمل يدى)، وكان يشـترى خوصـا بـدرهم فيعملـه ويبيعـه بثلاثـة دراهم ينفـق درهمـا ويتصـدق بـدرهمين، وروي أنـه تعلم عمـل الخوص بالمدينة من الأنصار أيـام كـان بهـا مـع النـبي ﷺ وكـان عطاؤه خمسة آلاف، يتصدق به، ويأكل من عمل يده[3].

وهكذا كان حال سعيد بن عامر حين كان واليا على حمص، وسأله عمر بن الخطـاب، فقـال لـه: مـا لـك من المـال؟ قـال: سلاحي وفرسـي وأبغـل أغـزو عليهـا، وغلام يقـوم عليَّ وخـادم لامرأتي، وسهم يعد في المسلمين. فقال له عمر: مـا لـك غـير هذا؟ قال: حسـبي هـذا، هـذا كثـير. فقـال لـه عمـر: فلمَ يحبـك أصـحابك؟ قـال: أواسـيهم بنفسـي، وأعـدل عليهم في حكمي. فقال له عمر: خذ هذه الألف دينار فتقوَّ بهـا. قـال: لا حاجـة لي فيها، أعط من هـو أحـوج إليهـا مـني. فقـال عمـر: على رسـلك حتى أحدثك مـا قـال رسـول اللـه ﷺ، ثم إن شـئت فاقبـل وإن شئت فدع: إن رسول الله عـرض عليَّ شـيئًا فقلت مثـل الـذي قلت، فقال رسـول اللـه: (من أعطي شـيئًا من غـير سـؤال ولا استشراف نفس، فإنه رزق من اللـه فليقبلـه ولا يـرده)، فقـال الرجل: أسمعت هذا من رسول الله؟ قـال: نعم. فقبلـه الرجـل ثم أتى امرأته فقال: إن أمير المؤمنين أعطانا هذه الألف دينار، فإن شئت أن نعطيـه من يتجـر لنـا بـه ونأكـل الـربح ويبقى لنـا رأس مالنا، وإن شئت أن نأكل الأول فالأول. فقالت المرأة: بل أعطه من يتجر لنا به ونأكل الربح، ويبقى لنا رأس المال. قـال: ففرقيه صررًا. ففعلت، فجعل كل ليلة يخرج صـرة فيضـعها في

---

[3] () الاستيعاب: 2/572.

المساكين ذوي الحاجة، فلم يلبث الرجل إلا يسيرًا حـتى تـوفي، فأرسل عمر يسأل عن الألف، فأخبرته امرأته بالذي كان يصنع، فالتمسوا ذلك فوجدوا الرجل قدمها لنفسه، ففـرح بـذلك عمـر وسُرَّ وقال: يرحمه الله، إن كان الظن به كذلك[1].

وهكـذا كـان حـال عمـير بن سـعد الـذي كـان عـاملا على حمص، وبقى فيها عامًا كاملا دون أن يرسل إلى عمـر بالمدينـة أي رسالة، فأرسل إليه عمر ليـأتي إليـه، وجـاء عمـير وشـاهده الناس، وهو يدخل المدينة وعليه آثـار السـفر، وهـو يحمـل على كتفيه جرابًا وقصعة (وعاء للطعام) وقربة ماء صغيرة، ويمشــي في بطء شــديد من التعب والجهـد، ولمـا وصـل إلى عمــر بن الخطاب قال لـه: السـلام عليـك يـا أمـير المؤمـنين، فـرد عمـر السلام ثم قال له: ما شأنك يـا عمـير؟ فقـال عمـير: شـأني مـا ترى، ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا؟ فقـال عمـر: ومـا معـك؟ قـال عمـير: معي جـرابي أحمـل فيـه زادي، وقَصْعَتي آكـل فيهـا وأغسـل فيهـا رأسـي، وإداوتي أحمـل فيهـا وضـوئي وشـرابي، وعصـاي أتوكـأ عليهـا، وأجاهـد بهـا عـدوًا إن عَرَض (ظهر)، فوالله ما الدنيا إلا تَبعٌ لمتاعي. فقال عمر: أجئت ماشيًا؟ قال عمير: نعم. فقال عمر: أَوَلَمْ تَجـدْ من يعطيـك دابـة تركبهـا؟ قـال عمـير: إنهم لم يفعلـوا، وإني لم أسـألهم. فقـال عمر: فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟ قـال عمـير: أتيت البلـد الذي بعثتني إليـه، فجمعت صُـلَحَاء أهلـه، ووليتُهم جَبايَـة فـيئهم

[1] () ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق 1/1309.

(جمع صدقاتهم) وأموالهم، حتى إذا جمعوها وضعتها، ولو بقى لك منها شيء لأتيتك به، فقال عمر: فما جئتنا بشيء؟ قال عمير: لا. فقال عمر: جدِّدوا لعمير عهدًا، ولكن عميرًا رفض وقال في استغناء عظيم: تلك أيام خَلَتْ، لا عَمِلتُ لك، ولا لأحد بعدك[1].

هؤلاء هم الذين كان ينبغي أن تسند إليهم جميع أمور الأمة، لكنهم عزلوا وطردوا وقتلوا.. ولم يبق لهم وجود حتى في أذهان الناس، لأن الطلقاء صاروا هم الصحابة والسابقين، ومن عداهم لا قيمة له.

***

أيها السابقون الصادقون من أصحاب رسول الله ﷺ الذين وصفهم الإمام علي، فقال: (قد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى أحداً يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجّداً وقياماً يراوحون بين جباهِهِم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم رُكب المعزي من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبُلَّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب)[2]

نعم أولئك فازوا بالأموال والدنيا، لكن تبقون أنتم الصحابة الحقيقيون الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، ولذلك لن تطردوا من

---

[1] () الطبراني في الكبير من 17 / 51 (109) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية 1 / 250، وابن عساكر في تاريخه 46/ 489، وابن الجوزي في المنتظم 4 / 319.

[2] () نهج البلاغة للشريف الرضى شرح محمد عبده ص 225 ...

الحوض في الوقت الذي يطرد فيه المتخلفون الناقضون للعهود.

ولا تخافوا من تلك التهم التي يتهمكم بها أولئك الذين يكذبون على أنفسهم، وعلى الناس حين يزعمون أنهم يعظمون الصحابة، بينما هم يمارسون معهم كل ألوان العنصرية والتزوير.

ألا ترونهم كيف يقصرون المبشرين بالجنة في أولئك العشرة، لا لشيء إلا لكونهم من قريش في نفس الوقت الذي يتركون فيه أولئك السابقين إلى الإيمان من الذين أوذوا وعذبوا، وكأن الإسلام جاء لقريش لا لغيرها من القبائل والشعوب؟

وهم لم يكتفوا بذلك، بل راحوا يعتبرون كبارهم من الذين واجهوا بني أمية منافقين.. فمن الصحابة الذين حكموا عليهم بالنفاق مع كونهم ممن شارك في غزوة بدر[1] معتب بن قشير الأنصاري: الذي هو بدري بالإجماع وهو عندهم منافق بالإجماع..

ومنهم مدلاج بن عمرو السلمي وهو بدري شهد صفين مع الإمام علي وتأخرت وفاته إلى عام 50 هـ، ورغم ذلك قال أبو حاتم عنه: (أعرابي مجهول وتواطئوا على ذكره في الضعفاء كأبي حاتم وابنه وابن الجوزي إلى عهد الذهبي فاستدركه عليهم ابن حجر في لسان الميزان في القرن التاسع!)

ومنهم ربيعة بن مسعود القارئ الذي قال فيه أبو حاتم: (أعرابي مجهول)! وذكره في الضعفاء ابن الجوزي والذهبي،

---

[1] () انظر بحثا في المسألة مهما جدا بعنوان [صحابة بدريون ولكنهم منافقون.... هكذا يقول السلفيون!] للشيخ حسن بن فرحان المالكي.

وأهمله البخاري في تاريخه.. مع أنه بدري، وأسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وشهد بدراً والمشاهد كلها وتوفي عام 30 هـ.

ومنهم خليدة بن قيس الأنصاري، وهو بدري، لكن مع ذلك قال عنه أبو حاتم الرازي: (خليدة بن قيس بن عثمان من بني نعمان بن سنان الأنصاري شهد بدرا سمعت أبي يقول ذلك وسمعته يقول هو مجهول)[1]

ومنهم حمزة بن الجمير من بني عبيد بن عدي الأنصاري، وهو بدري ومع إقرار أبي حاتم بذلك إلا أنه قال فيه: (سمعت أبي يقول ذلك ويقول هو مجهول)، أي مجهول العدالة..

ومنهم أبو سفيان بن الحارث بن قيس، أخو نبتل، الأوسي، وهو بدري اتهموه بالنفاق..

وغيرهم كثير من الذين اتهموهم بالنفاق أو بالجهالة، وراحوا يرمونهم بعدم الوثاقة، في نفس الوقت الذي يكذبون فيه على الناس بادعاء عدالة جميع الصحابة.. لكن مقصدهم الأول في ذلك هو الفئة الباغية، ومن ساندها.

وهكذا نرى مواقفهم من الصحابة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالصدق والإخلاص، ولكن بسبب كونهم من المعارضين للفئة الباغية نرى التجاهل في حقهم، بل الإعراض عنهم، واتهام كل من يذكرهم بالرفض وما يتبعه من الألقاب والأوصاف.

ومنهم أولئك الشهداء المظلومين المقتولين ظلما بعذراء من أرض دمشق، فعن أبي الأسود، قال: دخل معاوية على

---

[1] () الجرح والتعديل: 3/400.

عائشة فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجـر وأصـحابه؟ فقال: يا أم المؤمـنين، إني رأيت قتلهم صـلاحا للأمـة، وبقـاءهم فسادا للأمة، فقـالت: سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: (سـيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم، وأهل السماء)[1]

وعن سعيد بن أبي هلال أن معاوية حج فـدخل على عائشـة فقالت: (يا معاوية قتلت حجـر بن الأدبـر وأصـحابه؟ أمـا واللـه، لقد بلغني أنه سيقتل بعذراء سبعة نفـر يغضـب اللـه لهم وأهـل السماء)[2]

ومن العجيب أنهم ـ مع قبولهم لهذا الحديث، ومع كونه يـدل على غضب الله على من قتل أولئك الشـهداء المظلـومين ــ إلا أنهم لم يغضــبوا لــذلك، بــل راحــوا يــدافعون عن الطلقــاء، وجرائمهم في حق الصحابة وغيرهم..

ومنهم عمـرو بن الحمـق الـذي أخـبر رسـول اللـه ﷺ أن الطلقاء سيقتلونه، فعن رفاعة بن شداد البجلي أنه خرج مع عمرو بن الحمق حين طلبه معاويـة قـال: فقـال لي يـا فارعـة أن القـوم قـاتلي، إن رسـول اللـه ﷺ أخـبرني أن الجن والإنس تشـترك في دمي، قال رفاعة: فما تم حديثـه حـتى رأيت أعنـة الخيـل فودعتـه وواثبتـه حيـة، فلسـعته وأدركـوه فـاحتزوا رأسـه، وكـان أول رأس أهدي في الإسلام[3].

1() رواه يعقوب بن سفيان وابن عساكر.

2() رواه ابن عساكر.

3() رواه ابن عساكر.

وفي حـديث آخـر عنـه قـال: بعث رسـول اللـه ﷺ سـرية، فقالوا: يا رسول الله، إنك تبعثنا، ولا لنـا زاد ولا طعـام، ولا علم لنا بالطريق، فقال: (إنكم ستمرون برجل صبيح الوجه يطعمكم من الطعام ويسقيكم من الشراب، ويدلكم على الطريـق، وهـو من أهل الجنة)، فلم يزل القـوم على جعـل يشـير بعضـهم الى بعض، وينظـرون الي فقلت: مـالكم يشـير بعضـكم الى بعض وتنظرون إلي، فقالوا: أبشر ببشرى الله ورسوله ﷺ فإنا نعرف فيك نعت رسول اللـه ﷺ، فـأخبروني بمـا قـال لهم، فـأطعمتهم وسقيتهم وزودتهم وخرجت معهم حتى دللتهم على الطريق. ثم رجعت الى أهلي وأوصيتهم بإبلي ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فقلت: ما الذي تدعو إليه؟ قال: (أدعو الى شـهادة أن لا الـه الا الله، وأني رسول الله واقام الصلاة، وايتاء الزكـاة، وحج الـبيت، وصوم رمضان)، فقلت: إذا أجبنـاك الى هـذا فنحن آمنـون على أهلنـا ودمائنـا وأموالنـا؟ قـال: (نعم)، فأسـلمت، ثم رجعت الى أهلي، فأعلمتهم باسلامي، فأسلم على يدي بشر كثير منهم، ثم هاجرت الى رسول الله ﷺ فبينا أنـا عنـده ذات يـوم فقـال: (يـا عمـرو، هـل لـك أن أريـك آيـة الجنـة، تأكـل الطعـام، وتشـرب الشراب وتمشـي في الاسـواق؟)، قلت: بلى، بـأبي أنت وأمي، قال: (هذا وقومه)، وأشـار الى علي بن أبي طـالب، وقـال لي: (يا عمرو، هـل لـك أن أريـك آيـة النـار تأكـل الطعـام، وتشـرب الشراب، وتمشي في الاسـواق؟)، قلت: بلى، بـأبي أنت وأمي، قال: (هذا) وأشـار الى رجـل، فلمـا وقعت الفتنـة ذكـرت قـول رسول الله ﷺ ففررت من آية النار الى آيـة الجنـة، ويـرى بـني أمية قاتلي بعد هذا، قلت: اللـه ورسـوله أعلم، قـال: واللـه، لـو كنت حجرا في جوف حجر لاستخرجني بنو أمية حـتى يقتلـوني، حدثني به حبيبي رسول الله ﷺ أن رأسي أول رأس تجز، ويحتز في الاسلام، وينقل من بلد الى بلد.

ومنهم قيس بن خرشة ومحاولـة هـؤلاء المجـرمين التعـرض له، وحماية الله له منهم، فعن محمد بن يزيـد بن أبي زيـاد الثقفي قال: إن قيس بن خرشة قدم على النبي ﷺ، قال: أبايعك على مـا جـاء من اللـه تعـالى وعلى أن أقـول بـالحق، فقـال النـبي ﷺ: (يـا قيس، عسى أن يمدك الـدهر، أن يلقـاك بعـدي من لا تسـتطيع أن تقـول بـالحق معهم)، قـال قيس: واللـه لا أبايعـك على شـيء إلا وفيت لك بـه، فقـال النـبي ﷺ: (إذا لا يضـرك بشـر)، وكـان قيس يعيب زياد بن أبي سفيان، وابنه عبيد الله، فبلغ ذلك عبيـد اللـه، فأرسـل إليـه فقـال: أنت الـذي تفـتري على اللـه تعـالى وعلى رسوله؟ قال: لا، ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفـتري على اللـه وعلى رسوله؟ قال: من ذاك؟ قال: أنت وأبـوك الـذي أمركمـا، قال قيس: وما الذي افتريت على الله ورسوله؟ فقـال: (تـزعم انـه لا يضـرك بشـر!) قـال: نعم، قـال: (لتعلمن اليـوم أنـك قـد كذبت، ائتوني بصاحب العذاب وبالعذاب)، قال: فمال قيس عند ذلك، فمات[1].

ومنهم أهل الحرة، وفيهم صـحابة أجلاء، فهم يزعمـون كـذبا أنهم موالون لهم، مع أنهم يقفون مع الـذين اسـتحلوا دمـاءهم، فعن أيوب بن بشير المعاوي أن رسول الله ﷺ خرج في سـفر، فلما مر بحرة زهـرة وقـف، فاسـترجع، فسـألوه فقـال: (يقتـل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي)[2]

وعن ابن عباس قال: جـاء تأويـل هـذه الآيـة على رأس سـتين سنة: ﴿ وَلَـوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَـا ثُمَّ سُـئِلُوا الْفِتْنَـةَ لَآتَوْهَـا وَمَـا

[1] رواه الطبراني والبيهقي.

[2] رواه البيهقي.

تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً (الأحزاب:14) قال: لأعطوها، يعني إدخال بني حارثة أهل الشام على المدينة[1].

وعن الحسن قال: لما كان يوم الحرة قتل أهل المدينة حتى كاد لا ينفلت منهم أحد[2].

وعن مالك بن أنس قال: قتل يوم الحرة سبعمائة رجـل من حملة القرآن منهم ثلاثمائة من الصحابة، وذلك في ملك يزيد.

وقـد أخـبر ﷺ عن هـذه الحادثـة، وعن بعض الأحـداث الـتي ستحدث في المدينة المنورة بعـده، فعن أبي ذرٍّ الغفـاريِّ قـال: ركب رسول الله ﷺ حماراً، وأردفـني خلفـه، وقـال: (يـا أبـا ذر، أرأيت إن أصـاب النـاس جـوعٌ شـديد، لا تسـتطيع أن تقـوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصـنع؟) قـال: اللـه ورسـوله أعلم، قال: (تعفّف)، قـال: (يـا أبـا ذر، أرأيت إن أصـاب النـاس مـوتٌ شديدٌ، يكون البيت فيه بالعبـد، (يعـني: القـبر) ــ كيـف تصـنع؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (اصبر)، قـال: (يـا أبـا ذر، أرأيت إن قتـل النـاس بعضـهم بعضـاً حـتى تغـرق حجـارة الـزيت من الدماء كيف تصنع؟)، قلت: الله ورسوله أعلم، قـال: (اقعـد في بيتك، وأغلق عليك بابك)، قال: فإن لم أتـرك؟ قـال: (فـأت من أنت منهم فكن فيهم)، قال: فآخذ سلاحي؟ قال: (إذاً تشـاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السـيف، فـألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك)[3]

---

[1] () رواه البيهقي.

[2] () رواه البيهقي.

[3] () رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.

وقد قال ابن حجر مشيرا إلى هذه الوقعة عند ترجمته لمسرف بن عقبة ـ وهو صحابي ظالم من قواد يزيد بن معاوية ـ: (وقد أفحش مسلم القول والفعل بأهل المدينة وأسرف في قتل الكبير والصغير حتى سموه مسرفا وأباح المدينة ثلاثة أيام لذلك والعسكر ينهبون ويقتلون ويفجرون، ثم رفع القتل وبايع من بقي على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية)[1]

وقال ابن كثير – الذي يثقون فيه كما يثقون في ابن حجر-: (وإنما يسميه السلف: مسرف بن عقبة، فلما ورد المدينة استباحها ثلاثة أيام، فقتل في غضون هذه الأيام بشرا كثيرا حتى كاد لا يفلت أحد من أهلها، وزعم بعض علماء السلف أنه قتل في غضون ذلك ألف بكر والله أعلم)[2]

ونقل عن عبد الله بن وهب عن الإمام مالك قوله: (قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن، حسبت أنه قال: وكان فيهم ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك في خلافة يزيد)[3]

وقد علق الشيخ حسن بن فرحان المالكي على هذا النص بقوله: (هؤلاء الصحابة من قتلهم غير سلف الغلاة؟ ولماذا يتكتمون؟.. كفار قريش لم يقتلوا من (الصحابة) ربع ما قتل سلفهم. مجموع ما قتلت قريش نحو (90 صحابياً فقط) ولكن

1() الإصابة في تمييز الصحابة (6/ 232)

2() البداية والنهاية: 6/262.

3() البداية والنهاية: 6/262.

بني أمية قتلوا فوق الألف على أقل حال.. أيضاً الشيعة والجهمية (والرافضة) وكل خصوم الغلاة لم يقتلوا من (الصحابة) صحابياً، بينما سلف الغلاة من بني أمية حصدوا أهل بدر والرضوان، بينما سعيد بن المسيب يقول بأن بني أمية قتلوا من أدركوا من (أهل بدر والرضوان).. لو سلمنا لهم جدلاً.. أن كل خصومهم من الشيعة والجهمية والإباضية يكفرون (كل الصحابة ويلعنونهم) فهل تكفير الصحابي ولعنه أشد أم قتله؟ ليجرب أحدكم نفسه، ولينظر: هل يسوؤه أكثر من يلعنه ويكفره.. أم من يقتله ويفجر بنسائه وبناته، كما فعل أحبابكم بنو أمية بالصحابة، اصحوا، ولماذا حقدكم على من يلعن (الصحابة) أكثر من حقدكم على من قتلوا الصحابة وفجروا بنسائهم، مع أن أحبابكم بني أمية جمعوا الأمرين معاً.. أريد تفسيراً واضحاً من الغلاة.. حتى نرتب الحقد على قدر الذنب. لكنني لا أفهم منهم هذا الحب للقاتل واللاعن والفاجر، وهذا البغض للاعن فقط)[1]

والنص الذي يشير إليه الشيخ حسن بن فرحان هو ما ورد في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى - يعني مقتل عثمان - فلم تبقِ من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية - يعني الحرة - فلم تبقِ من أصحاب الحديبية أحداً)[2]

وهكذا نرى موقف هؤلاء الطلقاء من الأنصار الذين يدعون تعظيمهم لهم، بينما هم يحتقرونهم أعظم احتقار حين يوالون

1() خلاصات أموية - الشيخ حسن فرحان المالكي.

2() صحيح البخاري: 4/1475.

أعداءهم، وقد حدث أسـيد بن حضـير وأنس أن رسـول اللـه ﷺ قال للأنصار حين أفاء الله عليه أمـوال هـوازن: (إنكم سـتلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[1]

وحدث أنس عن ذلك، فذكر أن رسول الله ﷺ قال للأنصـار: (ستلقون بعدي أثرة في القسم والأمر، فاصـبروا حـتى تلقـوني على الحوض)[2]

وقد حدث مقسم يذكر وقوع ما أخـبر عنـه رسـول اللـه ﷺ، فذكر أن أبا أيوب أتى معاوية فذكر حاجة له، فجفـاه ولم يرفـع به رأسا، فقال أبو أيوب: أمـا ان رسـول اللـه ﷺ قـد خبرنـا أنـه ستصيبنا بعده أثرة قال: فبم أمركم؟ قال: أمرنا أن نصـبر حـتى نرد عليه الحوض، قال: فاصبروا إذا، فغضب أبـو أيـوب، وحلـف أن لا يكلمه أبدا[3].

هذا سـادتي قليـل من كثـير من المظـالم الـتي ارتكبت في حقكم، ثم يزعمـــون كـــذبا وزورا أنهم يحبـــون الصـــحابة، ويعظمونهم، بل يجعلونهم وسيلة لتفريق صف الأمـة، بينمـا هم يستعملون كـل مـا لـديهم من حقـد ليصـبوه عليهم.. فالصـحابة عندهم ليست سوى قريش، ومن والاهـا، ووالى طلقاءهـا.. أمـا من عداهم، فهم عنـدهم لا يسـاوون شـيئا، وكـأنهم لم يسـمعوا قولـه ﷺ: (يهلـك النـاس هـذا الحى من قـريش)، قـالوا: فمـا

[1] () رواه البخاري ومسلم واحمد والبيهقي والترمذي والنسائي.

[2] () رواه الحاكم وأبو نعيم.

[3] () رواه الحاكم.

تأمرنا؟ قال: (لو أن الناس اعتزلوهم؟)[1]

ومن شــك في ذلــك فليــذهب لكتب الحــديث والفقــه والتفسير، وليحسب عـدد روايـات أولئـك الـذين لم يـرض عنهم الطلقاء، وسيرى مبلغ الطرد الذي تحقق لهم.. فمن العجيب أن أبا حميد الساعدي[2] الذي توفي بعد أبي هريرة بثلاث سنوات، (تـوفي بعـد عـام 60 هــ)، وسـبقه إلى الإسـلام، بـل كـان من البدريين، ومع ذلـك لم يـرووا عنـه سـوى ثلاثـة أحـاديث.. فهـل يعقل أن يصحب رجل رسول الله ﷺ كل تلك المدة، ويرى بـدرا وأحــدا والأحــزاب، وغيرهــا كثـير، ومــع ذلـك لا يــروي إلا ثلاثــة أحاديث؟

ومثلــه أم ســلمة زوج النــبي ﷺ[3] الـتي تـوفيت بعـد أبي هريرة بأربع سـنوات (تـوفيت سـنة 61 هــ)، ومـع ذلـك لم تـرو ســوى 158حــديثا.. مــع أنهــا كــانت من الســابقين للإســلام، وهاجرت للحبشة، ثم عادت مع زوجها أبي سلمة، وتحاصـرا في الشعب مع بني هاشم، ولم يشترك أحد غيرهما مع بني هاشم.. وسبب ذلك التقصير في الرواية عنها هـو موقفهـا المتشـدد من معاوية والفئة الباغيـة معـه، فقـد كـانت معارضـة شـديدة للعن الإمـام علي على المنـابر، ورثت الحسـين، وروت فضـائل أهـل البيت.. ولذلك لا يكادون يذكرونها أو يهتمون بهـا، لأنهم يرتبـون أمهات المؤمنين بحسب مواقفهم من معاوية، لا بحسب كـونهن

1() رواه البخاري: 4/ 242.

2() انظر ترجمته في الإصابة في تمييز الصحابة (7/ 80)

3() انظر ترجمتها في الإصابة في تمييز الصحابة (8/ 404)

أمهات المؤمنين.

ومثلهما صالح شقران[1] مولى النبي ﷺ الـذي تـوفي بعـد أبي هريرة بثلاثة عشر عاماً (توفي عـام 70 هــ)، ومـع ذلـك لم يرووا عنه سوى حديث واحد فقط، رغم أنه بدري، ومولى للنبي ﷺ، والمولى أقـرب من غـيره[2].. ومـع ذلـك لم يـرووا عنـه إلا حديثا واحدا فقط.. وسبب ذلك بسيط، وهو أن صـالحا كـان قـد قاتل مع الإمام علي بصفين، وهو مولى للنـبي ﷺ نفســه، وكـل ذلك ساهم في (إماتـة حديثـه وسـيرته، كـل تلامـذة أبي هريـرة بقوا بعد أبي هريرة في المدينة ثلاثـة عشـر عامـاً، وقـد انقطـع حــديث أبي هريـــرة بموتـــه، فلمـــاذا لم يبحثـــوا عن صـــحابة كشقران؟)[3]

[1] () وهو مولى رسول الله ﷺ، واسمه صالح بن عديّ، قال ابن حجر: (وكان حبشيا، يقال أهـداه عبـد الـرّحمن بن عـوف لرسـول اللـه ﷺ، ويقـال اشتراه منه فأعتقه بعد بدر، ويقال: إن النّبيّ ﷺ ورثه من أبيه هو وأمّ أيمن، ذكر ذلك البغويّ عن زيد بن أخرم، سـمعت ابن داود يعـني عبـد اللَّه الخريـبي يقول ذلك.. وقال أبو حاتم: يقال إنه كان على الأسارى يوم بدر، وكذا حكى ابن سعد، وزاد: لم يسهم له لكونه مملوكـا، لكن كـان كـلّ من افتـدى أسـيرا وهب له شيئا، فحصل له أكثر مما حصل لمن شهد القسمة) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (3/ 284)

[2] () ومن دلائل قربه من رسول الله ﷺ ما رواه التّرمذيّ، عن شقران، قال: أنا واللَّه طرحت القطيفـة تحت رسـول اللَّه ﷺ في القـبر. ورواه ابن السّكن من طريق ابن إسحاق عن الزّهري عن علي بن الحسين، قال: نزل في قبر رسول الله ﷺ العبّاس، والفضـل، وشـقران، وأوس بن خـولي، وكـان شقران قد أخذ قطيفة كان النبيّ ﷺ يلبسها فدفنها في قبره.

[3] () علم الحديث - أمانة أهل الحديث... في الميزان، للشيخ حسن بن فرحان المالكي.

رسالة إلى الأصحاب الشهداء

سادتي يا أصحاب رسـول اللـه ﷺ الـذين قـدموا نفوسـهم رخيصــة في ســبيل اللــه، ولم يضــعفوا، ولم يــتزحزحوا، ولم يتوانوا، ولم يتثاقلوا إلى الدنيا.

ســادتي.. يــا من كنتم أحســن من مثــل الإســلام وقيمــه الرفيعة، وأحسن من مثل الصحبة وشرفها العظيم، وأحسن من مثــل التلمــذة على رســول اللــه ﷺ، وكــان من المتخــرجين الناجحين من مدرسته.

دعوني أحدث قومي عنكم، حـتى يعرفـوا فضـلكم، ويحيـوا ذكركم، فقد شُوهت أشرف صحبة في الدنيا والآخرة منـذ دخـل فيهــا الطلقــاء والفــارون من الزحــف والمغيّــرون والمبــدلون والمتثاقلون إلى الدنيا..

وغيرت تلك الصحبة الشريفة منذ أصبحت قريش هي التي تحدد المبشـرين بالجنـة، وتمـيزهم عن غـيرهم، ومنـذ أصـبحت الصحبة مجرد رؤية بصرية لا علاقـة لهـا بالبصـيرة، ولا بالعمـل، ولا بالقيم، ولا بالتضحية.

لقد كنتم بتضحياتكم وبـذلكم أحسـن رد على هـؤلاء الـذين أقصوكم، فأخروا تـرتيبكم في الصـحبة، وكـأن شـهادتكم كـانت وبالا عليكم، ولم تكن شرفا لكم.

أنتم أيها الشهداء الصادقون.. لم تخرجوا من دياركم بطـرا ولا كـبرا ولا طلبـا للغنـائم، وإنمـا خـرجتم لتحمـوا الإسـلام من الهجمات الكثيرة التي تعرض لهـا، والـتي كـادت تبيـده، لـولا أن حفظه الله بكم، وبتضحياتكم.

لقــد كــان القــرآن الكــريم يــنزل في ذلــك الحين ــ وأنتم تعـذبون، أو يسـاء إليكم بكـل أصـناف الإسـاءة ـ ليـدعوكم إلى الصـبر في وجـه ذلـك الأذى الشـديد الـذي كنتم تتعرضـون لـه، ليعرف العالم أجمـع أن المسـلمين قـوم مسـالمون، لا يبـدؤون غيرهم بالقتال، وإنما يلجؤون إليه بعد أن تضـيق بهم المسـالك، ولا يجدون حلا غيره، ثم لا يستعملونه إلا في الحدود الضرورية.

لقد روى المحدثون عن أبي بن كعب أنـه قـال: (لمـا قـدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العــرب واليهــود عن قــوس واحــدة وشــمّروا لهم عن ســاق العــداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب حـتى كـان المسـلمون لا يبيتون إلا في السّلاح ولا يصـبحون إلا فيـه، فقـالوا: تـرى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل، فأنزل الله تبارك وتعــالى: ﴿وَعَــدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُــوا مِنْكُمْ وَعَمِلُــوا الصَّــالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَــى لَهُمْ وَلَيُبَـدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْـدِ خَــوْفِهِمْ أَمْنًـا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْـرِكُونَ بِي شَـيْئًا وَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: 55]) [1]

في تلك الظروف القاسية، والتي اجتمع فيهـا الجميـع على حربكم، نزل قوله تعـالى يـدعوكم إلى الصـبر، وعـدم المقابلـة بالمثل: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْـدِ مَـا ظُلِمُـوا لَنُبَـوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُـونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 41، 42]

ولم يكن ذلك الأذى قاصرا على الأذى الحسي، بل كان المشركون واليهود والمنافقون يستعملون كل وسائل الحرب

[1] () رواه البيهقيّ وغيره، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (4/ 3)

النفسية، ليزحزحوكم عن الدين، ولم يكن رسول الله ﷺ، ولا القرآن الكريم يدعوكم سوى للصبر والصفح والسلام.

لقد كان الله تعالى يخاطبكم حينها بقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]

ويقول لكم: ﴿ودَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109]

وهكذا كان يتنزل عليكم أمثال قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، وقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)﴾ [الأنعام: 106، 107]، وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]، وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تأمر بالصفح والعفو والسلام والإعراض عن الأذى وعدم مقابلته بالمثل.

وقد كان رسول الله ﷺ يشعر بتلك الآلام التي تشعرون بها، وأنتم أهل الشجاعة والبطولة، ولكنه كان ينهاكم عن أن تلبوا ما تطلبه نفوسكم من مواجهة العنف بالعنف، بل كان يدعوكم إلى الكف والصبر والحلم، حتى ولو كانت لكم قوة ومنعة.

وقد روي أنه لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي ـ يعنون أهل منى ــ ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: (إني لم أومر بهذا)[1]

وقد أخبر القرآن الكريم عن تلك الطلبات الكثيرة التي كانت تأتي رسول الله ﷺ تدعوه لإباحة قتال المعتدين، ومنها قوله تعالى في عتاب الذين قصروا بعد أن أمروا بالقتل مع أنهم كانوا يطلبونه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: 77]

وقد حدث ابن عباس عنهم، فقال: أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال ﷺ: (إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم)، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: 77]) [2]

وهكذا، وبعد أن ضاقت نفوسكم، واشتد أذى أعدائكم، وتوهموا أن صفحكم وسلامكم ليس ناتجا عن تنفيذكم لوصايا

---

[1] () تفسير ابن كثير (5/ 434)

[2] () سنن النسائي الكبرى برقم (11112) والمستدرك (2/307)

ربكم، وحفاظكم على قيم الـدين، وإنمـا هـو نـاتج عن ضـعفكم وجبنكم.

بعد أن حصل هـذا، وبعـد أن خطـط الأعـداء لاستئصـالكم، حينها فقط أمرتم بالجهاد، وبشروطه الممتلئة بـالقيم الرفيعـة.. لقد تنزل عليكم حينها قولـه تعـالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُـوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْـرِ حَـقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَـا اللَّهُ وَلَـوْلَا دَفْـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَـا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ﴾ [الحج: 39، 40]

حينها بدأت معركتكم مع المعتدين الظالمين، لا مع غـيرهم من المسـالمين حـتى لـو كـانوا يهـودا أو مشـركين، لأنكم لم تؤمروا بالحرب من أجل نشر الدين، وإنمـا أمـرتم بهـا لِتـدافعوا عن أنفسكم، كما قـال تعـالى: ﴿ وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190]

حينها تحول الإسـلام من دين المستضـعفين السـاكنين إلى دين المستضعفين المقاومين، ذلك أنه لا يمكن لـدين يـراد منـه أن يخلص البشرية جميعا من الاستكبار والطغيان، ألا يشرع فيه القتال، وكيـف لا يشـرع، والمسـتكبرون لا يعرفـون سـوى لغـة السلاح.

ولذلك فـإن الـذين يعـاتبونكم، ويتصـورون أن الإسـلام قـد تغير بسبب تلك الأوامر بجهاد المعتدين، لم يفهموا الإسلام، ولم يعيشـوا الظـروف الـتي عشـتم فيهـا، وهـل يمكن أن يتحـرر المستضعفون من نير المستكبرين من دون مقاومة؟

ومثلهم، بل أشد منهم أولئك الذين توهمـوا أن أوامـر اللـه

تعالى لكم بجهاد المعتدين الذين يظلمـونكم تنسـخ تلـك الآيـات التي تأمرهم بالصبر والصفح والعفـو وتحمـل الأذى، فـذلك كلـه وهم، فآيات الله هي كلماته التي لا تبدل ولا تغـير، وإنمـا توضـع في مواضعه المناسبة.. والأصل هو العفـو والسـماحة والسـلام، لكن إن ووجهت بالمستكبرين الذين لا يعرفون هذه اللغة حينهـا تطبق اللغة الأخرى، ووفق حدودها الأخلاقية.

ولذلك مثلتم أنتم يا أصحاب رسـول اللـه ﷺ كلا الأمـرين.. فكنتم مســالمين متســامحين، وفي نفس الــوقت كنتم أبطــالا مجاهدين.

1. شهداء المقاومة:

اسمحوا لي ـ سادتي ـ بعد هذا أن أحدث قــومي عن بعض تضحياتكم في تلك الغـزوات الـتي فرضـت عليكم، بعـد أن أذن الله لكم باسترداد حقوقكم، والدفاع عن أنفسكم..

أ ـ شهداء بدر:

لقد كانت أول غزوة اختبرت فيها بطولتكم وصدقكم غزوة بدر.. تلك التي خرج فيها رسول الله ﷺ بعد أن جاء المشـركون لقتالكم، وهم يفوقونكم عددا وعدة..

لقـد خـرج ﷺ حينهـا، وهـو ينظـر إلى ضـعفكم وجـوعكم، ويقــول مخاطبــا ربــه: (اللهم إنهم حفــاة فــاحملهم، وعــراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فأغنهم من فضلك)[1]

وقـد حـدث ابن مسـعود يصـف حـالكم في تلـك الغـزوة، فقال: (كنا يوم بدر كلّ ثلاثـة على بعـير، وكـان أبـو لبابـة وعليّ

[1] () دلائل النبوة للبيهقي (3/ 38)

زميلي رسول الله ﷺ، وكان إذا كانت عقبة رسول الله ﷺ قـالا: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول: (ما أنتمـا بـأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما) [1]

حينها لم يستعمل رسول الله ﷺ مـا يسـتعمله المسـتبدون من التجنيد الإجباري، وإنما راح يستشيركم، ويخبركم عمـا نـزل بكم لتقرروا ما ترونه مناسبا، حتى يكون إقـدامكم صـادقا وفي سبيل الله، ومن غير أن تكرهوا عليه.

وحين استشـاركم قـام أحـد أبطـالكم، وهـو المقـداد بن الأسود، ذلك الذي أمر الله بحبه، وقـال: (يـا رسـول اللـه امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله مـا نقـول لـك كمـا قـال قـوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـاتِلَا إِنَّا هَاهُنَـا قَاعِـدُونَ﴾ [المائدة: 24]، ولكن اذهب أنت ربك فقاتلا إنا معكما مقـاتلون، عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، والذي بعثك بـالحق لـو سرت بنا إلى برك الغمـاد لجالـدنا معـك من دونـه حـتى نبلغـه) [2]،، فأشرق وجه رسول الله ﷺ، وعلم أي قوم أنتم.

ولم يكن المهاجرون وحدهم من قال مثـل تلـك الكلمـات، بل قال مثلها الأنصار أيضا، فقد قام أحدكم، وهو شهيد الإسـلام سعد بن معاذ، فقال: (يـا رسـول اللـه قـد آمنّـا بـك وصـدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحـق، وأعطينـاك على ذلـك عهودنـا ومواثيقنا، على السّمع والطاعـة، فـامض لمـا أردت، ولعلـك يـا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار تـرى عليهـا ألّا ينصـروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فـاظعن حيث

1() الأنوار في شمائل النبي المختار (ص: 308)

2() مغازي الواقدي (1/ 48)

شئت، وصل حبل من شئت، واقطـع حبـل من شـئت، وخـذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منّا كان أحبّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبـع لأمـرك، فـو اللـه لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنّ معـك، واللـه لـو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقي عدوّنا غدا، إنّا لصـبر في الحـرب، صـدق في اللّقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، ولعلـك خـرجت لأمـر فأحدث الله غيره، فسـر بنـا على بركـة اللـه، فنحن عن يمينـك وشمالك، وبين يديك وخلفك، ولا نكوننّ كالذين قـالوا لموسـى: ﴿فَـــاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـــاتِلَا إِنَّا هَاهُنَـــا قَاعِـــدُونَ﴾ [المائـــدة: 24]،ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكما متّبعون) [1]

بعــد أن اطمــأن رســول اللــه ﷺ إلى وجــود أمثــالكم من الصادقين، قـال: (سـيروا على بركـة اللـه، وأبشـروا، فـإن اللـه تعـالى وعـدني إحـدى الطـائفتين، واللـه لكـأني الآن أنظـر إلى مصارع القوم)

في تلك المعركة ــ ككـل المعـارك ــ لم ينجح الجميـع في الاختبار، حيث أن طائفة من الناس، نكلت عن عهودهـا، وراحت تبرر ذلـك بأصـناف التـبريرات، مثلهم مثـل أولئـك الإسـرائيليين الذين قعدوا عن النصرة، بعد أن امتلأوا بالجبن.

لكنكم سادتي لم تكونوا هذا النوع، بل نجحتم في الاختبار، وكانت شهادتكم في سبيل الله أحسن برهـان على هـذا النجـاح الذي وقعتموه بدمائكم..

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنكم بعد شهادتكم ظللتم ثابتين، بل تمنيتم أن يعيدكم الله للدنيا، لتستشهدوا من جديد، قال ابن

1() دلائل النبوة للبيهقي (3/ 107)

مسعود يروي ذلك: (إن الثمانية عشر الذين قتلـوا من أصـحاب رسول الله ﷺ يوم بدر جعل الله أرواحهم في الجنـة في جـوف طير خضـر تسـرح في الجنّـة، فبينمـا هم كـذلك إذ اطّلـع عليهم ربّهم اطّلاعة فقال: يا عبادي، ماذا تشتهون؟ فقالوا: يا ربنا هـل فوق هذا من شـيء؟ قـال: فيقـول: يـا عبـادي، مـاذا تشـتهون؟ فيقولون في الرابعة: تردّ أرواحنا في أجسادنا فنقتل كما قتلنـا) [1]

لقد سار منكم إلى الله في تلك المعركة أصحاب طاهرون طيبون، أبلوا أحسن البلاء إلى أن لقـوا اللـه تعـالى، وهـو عنهم راض..

لاشـــك أنكم تعرفـــون أول من طعن منكم، ثم استشـــهد بعدها.. إنه عبيدة بن الحارث، ذلك الذي أمره رسول الله ﷺ أن يقوم بمبارزة المشركين، هو وعمه حمزة، وأخوه علي..

إنـه ذلـك الفـارس البطـل في الجاهليـة والإسـلام، ذلـك القريب السابق، الـذي أسـلم قبـل دخـول النـبي ﷺ دار الأرقم، وكان ثاني قائد عقد له النبي ﷺ لـواء في الإسـلام، حينمـا بعثـه للقيام بدورية استطلاع في السنة الأولى من الهجرة، تلك الـتي التقت بأبي سفيان في ثنية المرة[2].

وقد اختاره رسول الله ﷺ حـتى يـبين للمسـلمين وغـيرهم أن أول من يقدم التضحيات هم أقاربه.. وقد شاء الله أن يكـون أول من طعن، وفيه وفي أخويه، وفي أعـدائهما من المشـركين نزل قوله تعـالى: ﴿ هَـذَانِ خَصْـمَانِ اخْتَصَـمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ

1 () رواه الطبراني بسند رجاله ثقات، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (4/ 75)

2 () الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (4 /209-210)

كَفَـرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَـابٌ مِنْ نَـارٍ يُصَـبُّ مِنْ فَـوْقِ رُءُوسِـهِمُ الْحَمِيمُ [الحج: 19]، وفي مقابلهم نزل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُـدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَـا مِنْ أَسَـاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُـؤًا وَلِبَاسُـهُمْ فِيهَـا حَرِيرٌ [الحج: 23]

وبعـد أن بـدأت المعركـة، خـرج رسـول اللـه ﷺ يبشـركم بقولـه: (قومـوا إلى جنـة عرضـها السـموات والأرض، والـذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليـوم رجـل فيقتـل صـابرا محتسـبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة) [1]

حين سمع ذلك رجل منكم، وهـو عمـير بن الحمـام، وكـان في يده تمرات يأكلهنّ، قال، وهو ممتلئ بالبشارة: (بخ بخ[2] يا رسول الله، عرضها السـموات والأرض؟!) قـال ﷺ: نعم، قـال: (أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟)، ثم قـال: (لئن حييت حتى آكـل تمـراتي هـذه إنهـا لحيـاة طويلـة) [3]، ثم قذف التّمرات من يـده، وأخـذ سـيفه، وظـل يقاتـل، وهـو يـردد فرحا مسرورا:

ركضا إلى الله   إلّا التّقى
والصّبر في الله   وكلّ زاد

وظلّ على ثباته إلى أن رزقه الله تعالى الشهادة.

1() دلائل النبوة للبيهقي (3/ 69)

2() بخ بخ: كلمة تقال عند المدح والرّضا بالشيء وتكرّر للمبالغة

3() الإصابة (5/31-32)

وهكذا سار على طريقه حارثة بن سراقة، ذلك الذي استشهد من غير أن يعرف قاتله، بعد أن أصابه سهم غرب[1] وقع في نحره، وقد جعل ذلك أمه وأخته تتألمان، لا بسبب شهادته، وإنما خوفا من ألا يكون شهيدا بسبب عدم معرفة القاتل[2].

لقد قالت أمه عندما سمعت كيفية قتله: (والله، لا أبكي عليه حتى يقدم رسول الله ﷺ، فأسأله، فإن كان ابني في الجنة لم أبك عليه، وإن كان ابني في النار بكيته لعمر الله فأعولته!)

فلما قدم رسول الله ﷺ من بدر جاءت إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله، قد عرفت موقع حارثة من قلبي، فأردت أن أبكي عليه فقلت: لا أفعل حتى أسأل رسول الله، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإن كان في النار بكيته فأعولته. فقال النبي ﷺ: (هبلت، أجنة واحدة؟ إنها جنان كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى)، فقالت: (فلا أبكي عليه أبدا!)

حينها دعا رسول الله ﷺ بإناء من ماء فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أم حارثة فشربت، ثم ناولت ابنتها فشربت، ثم أمرهما فنضحتا في جيوبهما، ففعلتا فرجعتا من عند النبي ﷺ، وما بالمدينة امرأتان أقر أعينا منهما ولا أسر[3].

---

1 () سهم غرب: أي لا يعرف رامية. (النهاية، ج 3، ص 153)

2 () الإصابة، (1/311)

3 () مغازي الواقدي (1/ 94)

وهكذا سار في طريق الشهادة سعد بن خيثمة الخزرجي[1]، أحد النقباء الاثني عشر الذين كفلوا قومهم في بيعة العقبة، وقد روي أنه استهم مع أبيه خيثمة أيهما يشارك في الغزوة، فخرج سهمه، وكان شاباً، فقال له أبوه: آثرني اليوم ـ أي: اسمح لي بأن أخرج إلى بدر بدلاً منك ـ فقال له سعد: (يا أبت، لو كان غير الجنة لفعلت)، وسار سعد مزهوا فرحا باختيار الله له بأن يكون من شهداء هذه الغزوة.

ومن شهداء هذه الغزوة عمير بن أبي وقاص الزهري[2]، ذلك الذي رده رسول الله ﷺ، ولم يسمح له بالقتال لصغر سنه، فبكى عمير تألما لذلك، وحينها سمح له الرسول ﷺ بالقتال، فاستشهد.

ومنهم مهجع العكي[3]، الذي كان عبدا فعتق، وكان من السابقين في الإسلام، وهو من الذين أنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: 52]

وغيرهم من الصادقين الذين لم تصلنا تفاصيل أخبارهم، فلا نعرف عنهم إلا أسماءهم وأنسابهم، لكن الله يعرفهم، والإسلام يعرفهم، ورسول الله ﷺ يشهد لهم، ونحن نتبرك بهم، ونسأل الله بجاههم سواء عرفناهم أو لم نعرفهم.

ب ـ شهداء أحد:

---

[1] انظر: الإصابة (3/75)

[2] انظر: الإصابة (5/ 35-36)

[3] الإصابة، (6/ 46)

وبعد تلك الغزوة الـتي كتب اللـه فيهـا النصـر للمسـلمين، راحت قريش تستخدم كل ما لديها من قـوة مـال وعـدد وعـدة لضرب الإسـلام الضـربة القاضـية، وقـد كـان أبـو سـفيان عـدو الإسلام اللدود يتجول بين الأحيـاء والعشـائر، يحرضـهم، ويقـول لهم: (إن محمدا قد وتركم وقتل خيـاركم، فأعينونـا بهـذا المـال على حربه، لعلّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا)[1]

وبعـد أن جمـع أئمـة الكفـر أبـو سـفيان وغـيره الأمـوال الكثـيرة، والـتي وصـف القـرآن الكـريم اجتهـادهم في جمعهـا، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36] أرسلوا عمرو بن العـاص، وعبـد الله بن الزّبعرى وهبيرة بن أبي وهب، ومسافع بن عبـد منـاف، وأبا عزّة عمـرو بن عبـد اللـه الجمحيّ إلى العـرب يسـتنفرونها لحرب رسول الله ﷺ، فألّبوا العرب وجمعوها.

ومثلهم ذهب أبو سفيان لأكابر العـرب، فأخـذ يـؤلّبهم على رسول الله ﷺ، ويجمع الجموع، فجمع قريبـا من ثلاثـة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس.

وقد كان القصد من هذا الإعداد الضخم ليس مجرد معركة بسيطة يحاربون بها الإسلام، وإنما أرادوا استئصاله جميعا، ومن جذوره.

وبعد أن أعدوا أنفسهم كل ذلك الإعداد، خرجوا مع نسائهم إلى المعركة التي أرادوا أن تكون فاصلة، فقد خرج أبو سـفيان بزوجته هند بنت عتبـة، ومثلـه سـادة قـريش وكـبراؤهم خرجـوا

1() دلائل النبوة للبيهقي (3/ 224)

معهم بنسائهم، ومعهنّ الدّفوف يبكين قتلى بدر، ليثرن حماسة المقاتلين.

وقد بلغ الحقد بهند بنت عتبة أنها قالت لزوجها أبي سفيان: (إنكم قد خرجتم بالظعن معكم، ونحن نخاف على نسائنا. فتعالوا ننبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة، فإن يصب من نسائكم أحدا قلتم هذه رمة أمك، فإن كان برا بأمه كما يزعم، فلعمري ليفادينكم برمة أمه، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم، فلعمري ليفدين رمة أمه بمال كثير إن كان بها برا)[1]

في تلك المعركة التي انتصر المسلمون في بدايتها، ثم انهزموا بسبب انشغالهم بجمع الغنائم.. تميز الصادقون من المترددين، والثابتون من المولين.. وقد كنتم أنتم أيها الشهداء الطيبون مصاديق للثبات والصدق والإخلاص، ذلك أنكم لم تترددوا، ولم تفروا، ولم تتوانوا في نصرة رسول الله ﷺ، خاصة بعد أن أشاع المشركون أنه قد قتل.

لقد كان سيد شهدائكم في تلك المعركة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ذلك الذي بقرت بطنه، وحملت كبده إلى هند بنت عتبة لتأكلها، وترضي حقدها الذي لا تخمد ناره.

وكان من شهدائكم فيها عبد الله بن جحش الأسدي[2]، أحد السابقين إلى الإسلام، وممن هاجر إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة لما بلغ مهاجري الحبشة إسلام أهل مكة.. وكان ممن شرفوا بإرسال رسول الله ﷺ لهم في بضع

[1] () مغازي الواقدي (1/ 206)

[2] () الطبقات الكبرى: 2/42، والذهبي، سير أعلام النبلاء: 1/149.

السـرايا، وقـد قـال حينهـا يصـفه: (لأبعثن عليكم رجلا أصـبركم على الجـوع والعطش)، قـال سـعد: فبعث علينـا عبـد اللــه بن جحش فكان أول أمير في الإسلام، ورايته في تلك السـرية هي أول راية عقدت في الإسلام، ونسبت إليـه فيمـا بعـد فسـميت: (سرية عبد الله بن جحش)[1]

في ذلك اليوم الذي استشهد فيه، أكل وشرب حـتى شـبع، وكأنه ليس مقدما على تلك المعركة الخطـيرة، فقـال لـه بعض الحاضرين متعجبـا: (أتـدري أين تغـدو؟)، قـال: (نعم، ألقى اللـه وأنا ريان أحب إلي من أن ألقاه وأنـا ظمـآن، اللهم إني أسـألك أن أستشهد، وأن يمثل بي، فتقول: فيم صـنع بـك هـذا؟ فـأقول فيك وفي رسولك) [2]

وروي أنه قال لسعد بن أبي وقاص: ألا تأتي فندعو؟.. قال سـعد: فخلونـا في ناحيـة، فـدعا سـعد فقـال: (يـا رب إذا لقينـا القوم غـدا فلَقِّني رجلا شـديدا حـرده، أقاتلـه فيـك، ثم ارزقـني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه)، فأَمَّنَ عبد اللــه بن جحش، ثم قـال: (اللهم ارزقـني رجلا شـديدا حـرده أقاتلـه فيـك حـتى يأخـذني فيجـدع أنفي وأذني؛ فـإذا لقيتـك قلت: هـذا فيـك وفي رسولك، فتقول صدقت)، قال سـعد: (فكـانت دعـوة عبـد اللــه خيرا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفــه وأذنــه لمعلــق في خيط) [3]

---

[1] () انظر تفاصيل السرية في تهذيب سيرة ابن إسحاق لابن هشام 1/601، والحديث رواه أحمد: (1/178)

[2] () ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/91

[3] () الإصابة: 2/287.

وفي حديث آخر أنه قال في دعائه: (اللهم إذا لاقوا هؤلاء غدا فإني أقسم عليك لما يقتلوني ويبقروا بطني ويجدعوني، فإذا قلت لي لم فعل بك هذا فأقول: (فيك وفي رسولك)[1]

وقد قال الرجل الذي سمع منه هذا الدعاء: (أما هذا فقد استجيب له، وأعطاه الله ما سأل في جسده في الدنيا، وأنا أرجو أن يعطى ما سأل في الآخرة)

وقد صار يلقب بعدها بـ [المجدع في الله]، وكان سيفه انقطع يوم أحد فأعطاه النبي ﷺ عرجونا، فصار في يده سيفا، فكان يسمى العرجون.

وكان من شهدائكم فيها مصعب بن عمير[2]، ذلك الصحابي الجليل المجاهد السابق إلى الإسلام، ذلك الذي ترك العز الذي يعيشه، ليلتحق بالإسلام، وهو في عز شبابته، ويتحمل الأذى بسببه، ومن أقرب الناس إليه..

ذلك الذي كان يبالغ في اهتمامه بمظهره وزينته وشعره قبل الإسلام، وكانت أمة الثرية تكسوه أحسن الثياب وأرقها، وتعطره بأجمل العطور وأغلاه، وكان رسول الله ﷺ يقول عند ذكره له: (ما رأيت بمكة أحدا أحسن لمة، ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير) [3]

1() الإصابة: 2/287.

2() انظر في ترجمته: ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/116، وابن عبد البر، الاستيعاب: 3/468، وابن الأثير، أسد الغابة: 4/405، وابن حجر، الإصابة:3/421-422.

3() ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/116

لكن ذلك كله فارقه بعـد إسـلامه، فقـد جهـد ــ كمـا يـذكر الرواة عنه ـ جهدا شـديدا حـتى إن جلـده كـان يتحشف[1] كمـا يتحشف جلد الحية[2].. وقد روي أنه أقبل ذات يـوم، والنـبي ﷺ جالس في أصحابه، عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهاب، فلما رآه أصحاب رسول الله ﷺ نكسوا رؤوسهم رحمة لـه، ليس عنـدهم ما يغيرون عنه، فسلم فرد عليه النبي ﷺ، وأحسـن عليـه الثنـاء وقال: (الحمـد للـه ليقلب الـدنيا بأهلهـا، لقـد رأيت هـذا (يعـني مصعبا) وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منـــه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير، في حب الله ورسوله) [3]

وقـد كـان من الـذين أوذوا في اللـه، فعنـدما سـمع أهلـه بإسلامه، أوثقوه، فلم يزل محبوسا إلى أن هرب مـع من هـاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكـة فهـاجر إلى المدينـة بعـد العقبـة الأولى ليعلم الناس القـرآن ويصـلي بهم، فقـد كـان مـع ابن أم مكتوم أول من قدم المدينة، وكانا يقرئان أهلها القرآن الكريم.. وبذلك كان أول سفير وداعية للإسلام.

وقد منّ الله عليـه بالجهـاد في غـزوة بـدر، ثم شـارك في أحد، وكان الصحابة الـذين تـأخرت وفـاتهم يذكرونـه، ويغبطونـه على شهادته، ويـذكرون أنـه (ممن مضـى، ولم يأخـذ من أجـره شـيئا، فقـد تـرك نمـرة إذا غُطي بهـا رأسـه بـدت رجلاه، وإذا

1 () المتحشف: اللابس للحشيف: وهو الخلق (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 1/391)

2 () ابن الأثير، أسد الغابة: 4/406.

3 () الطبقات الكبرى لابن سعد: 3/82.

غُطيت بهـا رجلاه بـدا رأسـه، فـأمر رسـول اللـه ﷺ أن يُغطى رأسه، ويجعل على رجليه شيء من إذخر) [1]

وقد مر رسـول اللـه ﷺ عليـه حين رجـع من أحـد، فوقـف عليـه وعلى أصـحابه، فقـال: (أشـهد أنكم أحيـاء عنـد اللـه، فـزوروهم وسـلموا عليهم فوالـذي نفس محمـد بيـده لا يسـلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة)، ثم قـرأ رسـول اللـه ﷺ قوله تعـالى: ﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23])[2]

وكــان من شــهدائكم فيها شــماس بن عثمــان المخزومي[3]، وكان مثل أخيه مصعب من فتيان قـريش الـذين عرفوا بالجمال والرفاهيـة، ولـذلك لقب بهـذا اللقب، وقـد كـان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشـة، ثم شـهد بـدرا، واستشهد يوم أحد.

وقد كان في الوقت الذي فر فيه الخائفون من سطوات السيوف قريبا من رسول الله ﷺ يذب عنه، ويقيه بنفسه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بذلك، فقال: (ما شبهته يومئذ إلا بالجُنة، ما أوتى من ناحية إلا وقاني) [4]

1() البخاري، 7/226.

2() ابن الأثير، أسد الغابة: 4/407-408.

3() ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/245،وابن عبد البر، الاستيعاب: 2/156، 3/89.

4() ابن سعد، الطبقات الكبرى: 2/44.

وكـان من شـهدائكم فيها سـعد بن الرَّبيـع الخـزرجي الأنصاري[1]، ذلك الذي كان أحد نقباء الأنصـار، وكـان كاتبـا في الجاهلية، وشهد العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرا.

ذلك الذي مثل الأخوة الإيمانية في أرقى مراتبها، فقد روي أنه ﷺ آخى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، وكان كثـير المـال، فقال له: (قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالا، سأقسم بيــني وبينك شطرين)[2]

وبعد غزوة أحد، أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى، فقال: (من يأتيني بخبر سعد بن الربيع، فـإني رأيت الأسـنة قـد أشرعت إليه؟)، فذهب بعضهم يبحث عنـه بين القتلى، فوجـده، وبه رمق، فقال له: (اذهب إليه ﷺ فأقرئه مني السلام، وأخـبره أني قد طعنت اثنـتي عشـرة طعنـة، وأني قـد أنفـذت مقـاتلي، وأخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند اللـه إن قتـل رسـول اللـه ﷺ وواحد منهم حي) [3]

وفي رواية أنه قال له: (اقرأ على قومي السلام وقــل لهم يقول لكم سعد بن الربيع: الله اللـه ومـا عاهـدتم عليـه رسـول الله ﷺ ليلة العقبة، فوالله مـالكم عنـد اللـه عـذر إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف)، فقال رسول اللــه ﷺ عنـدما وصـلته الرسالة: (نصح لله ولرسوله حيا وميتا)

1() ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/522، وابن عبد البر، الاستيعاب: 2/34-35، وابن الأثير، أسد الغابة: 2/196.

2() البخاري،: 7/112-113،ـ 9/231، أما باقي الحديث، فلا نرى صـحته، خاصـة وأن العرب كانت تأنف من ذلك أنفة شديدة.

3() ابن عبد البر، الاستيعاب: 2/34-35، وابن الأثير، أسد الغابة: 2/196-197.

وكـــان من شـــهدائكم فيهـــا أوس بن الأرقم بن زيد[1]، ذلك الـذي قتلـه صـفوان بن أميـه ثم قـال: (الآن حيث شفيت نفسي حين قتلت الأماثل من أصـحاب محمـد ﷺ، قتلت ابن قوقل، وقتلت ابن أبي زهير ــ يعـني خارجـة ــ وقتلت أوس بن أرقم) [2]

وكان من شهدائكم فيها مالـك بن سِـنَان والـد أبى سـعيد الخـدري الأنصـاري[3]، والـذي قـال يحـدث عن والـده: (أصيب وجه رسول الله ﷺ فاستقبله مالك بن سنان ـ يعني أباه ـ فمسح الدم عن رسول الله ﷺ، ثم ازدرده، فقال رسـول اللـه ﷺ: (من أحب أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان([4]

وقد كان منذ إسـلامه من الـذين تمثلت فيهم قيم العفـاف والزهد، وقد روي أنه طوى ثلاثاً ولم يسأل أحدا شيئا، فقال عنه رسول الله ﷺ: (من أراد أن ينظر إلى العفيف المسـألة فلينظر إلى مالك بن سنان([5]

1() ابن عبد البر، الاستيعاب: 1/79، وابن الأثير، أسد الغابة: 1/163 وابن حجر، الإصابة: 1/79.

2() ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/525.

3() ، وابن عبـد الـبر، الاسـتيعاب: 3/370، وابن الأثـير، أسـد الغابـة: 4/251، وابن حجر، الإصابة: 3/345.

4() ابن الأثير، أسد الغابة: 4/251.

5() ابن الأثير، أسد الغابة: 4/251.

وكـــان من شـــهدائكم فيها عبـــاس بن عبـــادة الأنصاري الخزرجي[1]. وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهـو بمكـة، وشـهد معـه العقبـتين، وكـان في النفـر السـتة من الأنصار الذين لقـوا رسـول اللـه ﷺ بمكـة فأسـلموا قبـل سـائر الأنصار، وأقام مع رسول اللـه ﷺ بهـا حـتى هـاجر إلى المدينـة، فكان يقال له مهاجري أنصاري.

وقد حدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القـوم لما اجتمعـوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة: (يا معشـر الخـزرج، هل تدرون علام تبـايعون هـذا الرجـل؟) قـالوا: نعم، قـال (إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم تــرون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الـدنيا والآخـرة، وإن كنتم تـرون أنكم وافـون لـه بمـا دعوتمـوه إليـه على نهكـة الأمـوال، وقتـل الأشراف، فخذوه، فهو والله خـير الـدنيا والآخـرة)، قـالوا: فإنـا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتـل الأشـراف، فمـا لنـا بـذلك يـا رسول الله إن نحن وفينـا بـذلك؟ قـال: (الجنـة)، قـالوا: ابسـط يدك، فبسط يده فبايعوه[2].

ولم يكتف بـذلك، بـل راح يعـرض على رسـول اللـه ﷺ أن يمثل على المشركين، فقال: (لئن شئت يـا رسـول اللـه لنميلن عليهم غدا بأسيافنا)، فقال النبي ﷺ: (لم نؤمر بذلك) [3]

1() ابن عبد البر، الاستيعاب: 3/100، و، وابن حجر، الإصابة: 2/271.

2() ابن عبد البر، الاستيعاب: 3/100.

3() ابن الأثير، أسد الغابة: 3/59.

وكان من شـهدائكم فيها عبـد اللـه بن عمـرو بن حرام الخزرجي الأنصاري[1] والد جـابر بن عبـد اللـه، ذلـك الذي شهد العقبة مع السـبعين من الأنصـار، وكـان أحـد النقبـاء الاثني عشر، وشهد بدرا، وأحدا، ولما بكـاه بعض أهلـه قـال لهم النـبي ﷺ: (ابكـوه أو لا تبكـوه فواللـه مـا زالت الملائكـة تظلـه بأجنحتها حتى دفنتموه) [2]

وحدث جابر قال: (لقيـني رسـول اللـه ﷺ فقـال: يـا جـابر مالي أراك منكسرا مهتما؟ قلت: يـا رسـول اللـه استشـهد أبى وترك عيالا وعليه دين، قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أبـاك؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: (إن الله أحيا أباك وكلمه.. فقـال له: يا عبدى تمن أعطك، قال: يا رب تـردني إلى الـدنيا، فأقتـل فيك ثانية، فقال الرب تعالى ذكره: إنه سـبق مـني أنهم إليهـا لا يرجعون قال يا رب فأبلغ من ورائي فـأنزل اللـه: ﴿وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ﴾ [آل عمران: 169]، فحفرت له قبرا بعد ستة أشهر فحولته إليه فما أنكرت منه شيئا الا شعرات من لحيته كانت مستها الأرض) [3]

وعن جابر أن رسول الله ﷺ لمـا خـرج لـدفن شـهداء أحـد قال: (زملوهم بجراحهم فإني أنا الشـهيد عليهم، مـا من مسـلم يُكْلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسـيل دمـا اللـون لـون

---

1 () ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/561ـ 3/620، وابن عبد البر، الاستيعاب: 2/339، وابن الأثير، أسد الغابة: 3/242، وابن حجر، الإصابة: 2/350.

2 () البخاري، 7/374، 7 مسلم، 3/385.

3 () ابن الأثير، أسد الغابة: 3/242-244، وابن حجر، الإصابة: 2/350.

الزعفران والريح ريح المسك) [1]

قال جابر: وكفن أبي في نمرة واحدة وكان يقــول ﷺ: (أي هؤلاء كان أكثر أخذا للقرآن؟، فإذا أشـير لـه إلى الرجـل، قـال: (قدموه في اللحد قبل صاحبه)، وبما أن عبد اللــه بن عمــرو بن حرام كان أخا وصديقا لعمرو بن جموح، فقد طلب رسـول اللـه ﷺ أن يدفنا في قبر واحـد، وقـال: (ادفنـوا عبـد اللـه بن عمـرو وعمرو بن الجموح في قبر واحد)

وقد ذكر جابر كرامة تتعلـق بهمـا بعـد موتهمـا، فقـد قـال: (كان عبد الله بن عمرو رجلا أحمر أصـلع ليس بالطويـل، وكـان عمرو بن الجموح رجلا طويلا، فعرفا ودخل السيل عليهما، وكان قبرهما مما يلي السيل فحفر عنهما وعليهما نمرتان، وعبد اللــه قد أصابه جـرح في يـده، فيـده على جرحـه، فـأميطت يـده عن جرحه فانثعب الدم فردت إلى مكانها فسكن الـدم، قـال جـابر: فرأيت أبي في حفرته، فكأنه نائم، فقيـل لـه: أفـرأيت أكفنتـه؟ فقال: إنما دفن في نمرة خمر بها وجهه، وعلى رجليه الحرمـل، فوجدنا النمرة كما هي والحرمـل على رجليـه على هيئتـه، وبين ذلـك سـت وأربعـون سـنة) [2]، فشـاورهم جـابر في أن يطيب بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي ﷺ.

وأخبر جابر قال: لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال: (مـا أراني إلا مقتـولا في أول من يقتـل من أصـحاب النـبي ﷺ؛ وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول اللـه ﷺ وإن علي دينا فاقض واسـتوص بأخواتـك خـيرا، فأصـبحنا فكـان أول

---

[1] () النهاية في غريب الحديث: 2/313.

[2] () دلائل النبوة للبيهقي محققا (3/ 293)

قتيل) [1]

وكان من شهدائكم فيها عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام[2].. ذلك الذي شهد العقبة، ثم شهد بـدرا، وقـد كـان من سادات الأنصار، وكان سيدا من سادات بني سلمة وشــريفا من أشرافهم.

وقد روي أنه (كان رجلا أعرج شديد العرج، وكان لـه بنـون أربعة مثل الأسد، يشهدون المشاهد مـع رسـول اللـه ﷺ، فلمـا كان يوم أحد أرادوا حبسه، فأتى رسول اللـه ﷺ فقـال: إن بـني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فواللــه إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: (أما أنت فقـد عـذرك اللـه، فلا جهـاد عليـك)، وقـال لبنيـه: (مـا عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله يرزقه شهادة)، فخرج معه، فأخـذ سلاحه وولى، فلما ولى أقبل على القبلة وقـال: (اللهم ارزقـني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي خائبا) [3]

وقد قال فيه رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيــده إن منكم من لو أقسـم على اللـه لأبـره، منهم عمـرو بن الجمـوح، ولقـد رأيته يطأ في الجنة بعرجته)

وقد شهد له رسـول اللـه ﷺ بالسـيادة على قومـه، فقـال: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس على بخـل فيـه،

1() البخاري، 3/214.

2() ابن عبد البر، الاستيعاب: 2/503، وابن الأثير، أسد الغابة: 3/703، والذهبي، سير أعلام النبلاء: 1/252، وابن حجر، الإصابة: 2/529.

3() عيون الأثر (2/ 27)

فقال النـبي ﷺ: (وأي داء أدوى من البخـل، بـل سـيدكم الأبيض الجعد عمرو بن الجموح) [1]

وروي أنه أتى إلى رسول الله ﷺ قبل استشهاده، فقال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت حـتى أقتـل في سـبيل اللـه تـراني أمشي برجلي هذه في الجنة قال: نعم[2].

وروي أن النبي ﷺ قال يوم أحد: (قوموا إلى جنـة عرضـها السموات والأرض أعدت للمتقين)، فقام عمرو بن الجموح وهو أعـرج فقـال: (واللـه لأقحـزن عليهـا في الجنـة)، فقاتـل حـتى قتل[3].

وهكذا قدمتم في تلك الغزوة الكثير من الشـهداء الـذين لا نـزال نحن إلى ذكـراهم، وقـد كـان رسـول اللـه ﷺ يكـثر من زيـارتهم، وقـد حـدث بعضـهم، قـال: كـان النـبي ﷺ يـأتي قبـور الشهداء عند رأس الحول، فيقول: (السـلام عليكم بمـا صـبرتم فنعم عقبى الدار) [4]

ج. شهداء آخرون:

وبعد تينك الغزوتين اللتين أبليتم فيهـا بلاء حسـنا، اكتشـف أعــداءكم من المشــركين واليهــود وغــيرهم قــوتكم ومنعتكم،

1() الاستيعاب: 2/503.

2() الاستيعاب: 2/503.

3() أسد الغابة: 3/705

4() مصنف عبد الرزاق الصنعاني 3/ 573 ح (6716)

ولذلك لم تحصل أي معركـة تشـبههما، لكن حصـلت الكثـير من الأحــداث الــتي اســتدعت جهــادكم، وقــدمتم فيهــا الكثــير من البطولات، وسار فيها منكم الكثير من الشهداء.

ومن تلك الأحداث ما يعرف بغزوة مؤتة بأدنى البلقـاء دون دمشق في جمادى الأولى سـنة ثمـان من الهجـرة، والـتي أمّـر فيها رسول الله ﷺ ثلاثة من القادة، كلهم استشهدوا في سـبيل الله.

فقد حدث عمر بن الحكم عن أبيه أن رسول الله ﷺ صلّى الظهر، ثم جلس، وجلس أصحابه حوله، ثم قال: (زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيـد فجعفـر بن أبي طـالب، فـإن أصـيب جعفر، فعبـد اللـه بن رواحـة، فـإن أصـيب عبـد اللـه بن رواحـة فليرتض المسلمون رجلا منهم فليجعلوه عليهم)

وقد ثارت حينها بعض النفوس الـتي لم تعـرف جيـدا القيم الإسـلامية، حيث اسـتغربت توليـه زيـد القيـادة مـع أنـه لم يكن قرشيا، وقد ذكر ذلك عبد الله بن عمـر، فقـال: (بعث النـبي ﷺ بعثا وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارتــه، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين فقام رسول الله ﷺ فقال بعد أن حمد اللـه وأثـنى عليـه، ثم قـال: (قـد بلغـني أنكم قلتم في أسامة، إن تطعنوا في إمارتـه فقـد كنتم تطعنـون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كـان لخليقـا للإمـارة وإن كـان لمن أحبّ الناس إليّ، وإن هذا لمن أحبّ النّاس إليّ بعده) [1]

في ذلك الموقـف كـان جعفـر بن أبي طـالب من الثـابتين الصادقين، فقد حدث أبو قتادة قال: بعث رسـول اللـه ﷺ جيش

[1] () رواه البخاري (4468)

الأمراء وقال: (عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد فجعفر فـإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحـة)، قـال: فـوثب جعفـر، وقـال: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كنت أرهب أن تسـتعمل عليّ زيدا)، فقال ﷺ: (امض فإنك لا تدري أي ذلك خير) [1]

وقد ذكر المؤرخون أنه لما تجهّز الناس للخروج وهم ثلاثـة آلاف، جاء رسول الله ﷺ وأوصاهم وودعهم، فلما ودّع عبد اللـه بن رواحة مع من ودّع من الأمراء بكى، فقالوا: (ما يبكيك يا ابن رواحـة؟)، فقـال: (أمـا واللـه مـا بي حبّ الـدنيا ولا صـبابة بكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب اللـه عـز وجـل يـذكر فيهـا النـار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَـا كَـانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًـا مَقْضِـيًّا﴾ [مـريم: 71]، فلسـت أدري كيـف لي بالصّـدر بعـد الورود؟)

حينهـا قـال المودعـون لـه وللجيش: (صـحبكم اللـه ودفـع عنكم وردّكم إلينا صالحين)، فرد عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرّحمن   وضربة ذات فرغ

أو طعنة بيدي حرّان   بحربة تنفذ الأحشاء

حتّى يقال إذا مرّوا   يا أرشد الله من غاز

ثم بعـد أن تهيـأ الجيش للخـروج أتى عبـد اللـه بن رواحـة رسول الله ﷺ فودّعه، ثم قال:

فثبّت الله ما آتاك   تثبيت موسى ونصرا

إنّي تفرّست فيك   الله يعلم أنّي ثابت

[1] () رواه أحمد 5/ 299 والبيهقي في الدلائل 4/ 367 .

أنت الرّسول فمن ... والوجه منك فقد أزري

وعندما بلغ الجيش ثنيّة الوداع، وكان رسول اللـه ﷺ معهم يشيعهم وقف، ووقفوا حوله فقال: (اغـزوا باسـم اللـه، فقـاتلوا عـدوّ اللـه وعـدوّكم بالشـام، وسـتجدون رجـالا في الصـوامع معتزلين النـاس فلا تعرضـوا لهم، وسـتجدون آخـرين للشـيطان في رؤوسـهم مفـاحص فافلقوهـا بالسـيوف، لا تقتلنّ امـرأة ولا صـغيرا ولا كبـيرا فانيـا ولا تقـربن نخلا ولا تقطعنّ شـجرا ولا تهدمنّ بيتا) [1]

وقد ظل رسول الله ﷺ يوصيهم إلى آخر لحظة، فقد روي أنه قال، وهو في الطريق لعبد الله بن رواحـة: (إنـك قـادم غـدا بلدا السجود فيه قليل فأكثر السجود) قال عبد اللـه بن رواحـة: زدني يا رسول الله، قـال: (اذكـر اللـه فإنـه عـون لـك على مـا تطالب)، فقام من عنـده حـتى إذا مضـى ذاهبـا رجـع فقـال: يـا رسول الله إن الله وتـر يحب الـوتر، فقـال: (يـا ابن رواحـة مـا عجزت فلا تعجزنّ إن أسأت عشرا أن تحسن واحدة)، قـال ابن رواحة: لا أسألك عن شيء بعدها[2].

وقد حـدث زيـد بن أرقم عن عبـد اللـه بن رواحـة وشـوقه للشهادة، فقال: (كنت يتيماً في حجر عبد الله بن رواحـة فلم أر وليّ يتيم كان خيرا منه فخرجنا إلى مؤتـة فكـان يردفـني خلفـه على حقيبة رحله فو الله إنه ليسـير ليلـة إذ سـمعته وهـو ينشـد أبياته هذه:

---

1 () رواه البيهقي في السنن 9/ 69.

2 () ذكره السيوطي في الدر 3/ 189 وعزاه لابن عساكر.

إذا أدّيتني وحملت ... مسيرة أربع بعد

فشأنك أنعم ... ولا أرجع إلى أهلي

وآبّ المسلمون ... بأرض الشّام

وردّك كلّ ذي ... إلى الرّحمان

هنا لك لا أبالي ... ولا نخل أسافلها

فلما سمعتهنّ منه بكيت فخفقني بالدّرّة وقال: (ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة فأستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وأحزانها وترجع بين شعبتي الرّحل)، ثم قال في بعض شعره وهو يرتجز:

يا زيد زيد اليعملات ... تطاول اللّيل

ثم نزل من الليل، ثم صلى ركعتين ودعا فيهما دعاء طويلا ثم قال: يا غلام. قلت: لبّيك. قال: هي إن شاء الله الشهادة.

وعندما وصلوا أرض المعركة، ووجد أن العدو قد جهز لهم ما لم يكن يخطر على بالهم، فقد كان عددهم أكثر من مائة ألف، ثم بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم وجذام وقبائل قضاعة وغيرها، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بكثرة عدونا فإما أن يمدّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له.

حينها قام عبد الله بن رواحة، وقال: (يا قوم والله إن التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة

وليست بشرّ المنزلتين)، فقال الناس: صدق والله ابن رواحة.

وبعد أن بدأت المعركة، وبدأ القتال الشديد، قاتـل زيـد بن حارثـة برايـة رسـول اللـه ﷺ حـتى شـاط في رمـاح القـوم، ثم أخذها جعفر بن أبي طـالب فقاتـل بهـا حـتى إذا ألحمـه القتـال اقتحم عن فرس له شقراء فعرقبها، وهو يقول:

يا حبّذا الجنّة طيّبة وباردا

والرّوم روم قد كافرة بعيدة

عليّ إذ لاقيتها ضرابها

ثم قاتـل القـوم حـتى قتـل، وكـان بـذلك أول رجـل من المسلمين عرقب فرسا له في سبيل الله، وقد ذكر المؤرخـون أنه أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابـه اللـه بـذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء.

وحدث عبد الله بن عمر قال: (كنت فيهم في تلك الغـزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طـالب فوجـدناه في القتلى ووجـدنا في جسده بضعا وستين من طعنة ورمية)

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، هو يقول مخاطبا نفسه:

أقسمت يا نفس طائعة أو

إن أجلب النّاس مالي أراك

قد طال ما قد كنت هل أنت إلا نطفة

ويقول لها:

يا نفس إلّا هذا حمام الموت

وما تمنّيت فقد ... إن تفعلي فعلهما

وبعد استراحة له، جاءه بعضهم بعرق من لحم فقال: (شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت)، فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

وهكذا سار الكثير من الأصحاب الصادقين في طريق الشهادة سواء في عهد رسول الله ﷺ، أو بعده، ومنهم **أبو دجانة، سماك بن خرشة الساعدي الأنصاري**[1]، ذلك الشهيد الحي الذي كاد يقتل في غزوة أحد، لولا أن الله من عليه بالحياة بعدها، حتى يستشهد بعده.

وقد كان من المستقبلين للنبي ﷺ يوم هجرته، وهو آخذ بخطام ناقته يقول معهم: (هلم يا رسول الله إلى العز والثروة، والقوة والجلد والعدد)، لكن رسول الله ﷺ كان يقول لهم ولغيرهم: (خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة) [2]

ذلك الذي نجح في مسابقة اختبار السيف، عندما أخرج النبي ﷺ يوم أحد سيفا باترا، ونادى أصحابه: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟) فقام أبو دجانة، وقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: (أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني)، فقال: (أنا آخذه بحقه يا رسول الله)، فأعطاه إياه[3].

---

1 () الثقات لابن حبان (1/ 134) والسيرة الحلبية (2/ 244)

2 () الثقات لابن حبان (1/ 134) والسيرة الحلبية (2/ 244)

3 () رواه مسلم (2470)، وأحمد (3/ 123) والحاكم وصححه (3/ 230)

حينها خرج يختال، وقد عصب عصابته الحمراء، التي كـانت علامـة على أنـه سـيقاتل حـتى المـوت، وقـد وصـف الزبـير بن العوام قتاله، فقال: (وجدت في نفسي حين سألت رسول اللــه ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت في نفسي: أنـا ابن صفية عمتـه، ومن قـريش، وقـد قمت إليـه فسـألته إيـاه قبلـه؛ فآتاه إياه وتركـني! واللــه لأنظـرن مـا يصـنع؟ فاتبعتـه، فـأخرج عصابة له حمراء؛ فعصب بها رأسه؛ فقالت الأنصـار: أخـرج أبـو دجانة عصابة الموت! فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، ولا يرتفـع لـه شيء إلا هتكـه وأفـراه، وكـان في المشـركين رجـل لا يـدع لنـا جريحا إلا ذفف عليه، فجعل كل واحـد منهمـا يـدنو من صـاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفـا ضـربتين، فضـرب المشرك أبا دجانة؛ فاتقاه بدرقته، فعضـت بسـيفه، فضـربه أبـو دجانة فقتله) [1]

وقـد روي أنـه مـر في قتالـه بنسـوة قـريش، فـامتنع عن قتلهن، وقــال: (رأيت إنســانا يخمش النــاس خمشــا شــديدا؛ فصـمدت لـه، فلمـا حملت عليـه السـيف ولـول، فـإذا امـرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة(

وبعد أن بدأت انتكاسة أحد، وفر الكثير من المعركـة، كـان أبو دجانة من الثابتين فيها، وقد جعل جسده ترسـا دون رسـول الله ﷺ يتحمل حر النبل في ظهره وهو منحن على رسول اللــه ﷺ حتى كثرت عليه[2].

وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ وعلى صـدقه، وأعطى ابنتـه

[1] () تاريخ الطبري (2/ 63) والكامل لابن الأثير (2/ 106) ودلائل النبوة (3/ 234)

[2] () البيهقي في دلائل النبوة (3/ 234) وهي في سيرة ابن هشام (3/ 118)

فاطمة سيفه، وقال: (هاك السيف؛ فإنها قد شفتني)

ولم يكتف بذلك الجهاد المبارك، بل شارك في حصار بــني النضير، وندبه النبي ﷺ مع علي بن أبي طالب وسهل بن حـنيف في عشــرة من أصــحابه لملاحقــة اليهــود الــذين أرادوا أخــذ المسلمين على حين غرة، فأدركوهم فقتلوهم[1].

وهكـذا سـاهم في كـل الغـزوات إلى أن قتـل شـهيدا يـوم اليمامة، وقد ذكر أنس شهادته، فقال: (رمى أبـو دجانـة بنفسـه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة ـ وكانت تسمى حديقة المــوت ـ فانكسرت رجله؛ فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قتل) [2]

2. شهداء الدعوة:

لم يكن أولئك فقط من سلكوا طريـق الشـهادة في عهـد رسول الله ﷺ وبعده، وإنما كان هناك آخـرون قتلـوا في سـبيل الله مع أنهم لم يخرجوا للقتال، وإنما خرجوا للــدعوة والإصــلاح والتعليم.. لكن النفـــوس الممتلئـــة بالحقـــد راحت تغـــدر بهم وتقتلهم.

وليت أولئك الذين ينكرون تلك الآيات الكريمــة الــتي تــأمر بالجهاد، اطلعوا على ما ذكره التاريخ عن هؤلاء، ليعلموا أنه لولا ذلك التشـريع المقـدس الـذي يـتيح للمسـلمين أن يـدافعوا عن أنفسهم، لما بقيت للمسلمين قائمة.

وسنذكر هنا نماذج عنهم، لنعرف البيئة الـتي كلـف رسـول

---

1 () سبل الهدى والرشاد (4/ 322)

2 () ابن سعد (3/ 556)

الله ﷺ بدعوتها، وكيف كان الجهاد في سبيل اللـه هـو الوسـيلة الوحيدة التي تحمي الدعوة من سـطوات النفـوس المسـتكبرة الحاقدة.

لقد ذكر المؤرخون أنه قدم على رسول الله ﷺ بعد غــزوة أحد رهط من قبيلتي عضل والقارة، فقالوا: (يا رسـول اللـه إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا من أصـحابك يفقهوننـا في الـدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام)

فبعث رسول الله ﷺ معهم سـتة من أصـحابه، وهم: مرثـد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليـثي الكنـاني، وعاصـم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنـة، وعبـد الله بن طارق.

فخرجــوا مــع القــوم حــتى إذا كــانوا على الرجيــع بناحيــة الحجاز، غـدروا بهم، فاستصـرخوا عليهم هـذيلا فلم يـرع القـوم وهم في رحـالهم إلا الرجـال بأيـديهم السـيوف، قـد غشـوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم فقـالوا لهم: (إنـا واللـه مـا نريـد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة، ولكم عهـد الله وميثاقه أن لا نقتلكم)

وجاء القوم فأحاطوا بهم فقـالوا: (لكم العهـد والميثـاق أن نزلتم إلينا ألّا نقتل منكم رجلا، إنّا واللَّه لا نريد قتلكم، إنما نريـد أن نصيب منكم شيئا من أهل مكة).

حينها قال عاصم: (أمـا أنـا فلا أنـزل في ذمـة كـافر، اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فاحم لحمي، اللهم أخبر عنا رسولك)

وقد استجاب الله دعاءه، قال إبراهيم بن سعد: (فاستجاب اللَّه تعـالى لعاصـم فـأخبر رسـول اللَّه ﷺ خـبره وخـبر أصـحابه

بذلك يوم أصيبوا) [1]

ثم إنه قاتلهم، فقتلوه، وقد ذكر المؤرخون أن قريشا طلبت أن يؤتى لهم بعاصم ولو بشيء من جسده، لأنه قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر، وهو عقبة بن أبي معيط، فبعث اللَّه عليه مثل الظلة من الدّبر يطير في وجوههم ويلدغهم فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء.

فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث اللَّه تعالى الوادي فاحتمله فذهب به، وكان عاصم قد أعطى اللَّه عهدا ألّا يمس مشركا ولا يمسّه مشرك، فبرّ اللَّه عز وجل قسمه، فلم يروه ولا وصلوا منه إلى شيء.

أما خبيب وزيد، وعبد اللَّه فقد صعدوا إلى الجبل، فلم يقدروا عليهم حتى أعطوهم العهد والميثاق، فنزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظّهران انتزع عبد اللَّه بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه فقبروه بالظّهران.

ثم انطلقوا بزيد وخبيب فباعوهما بمكة، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، ثم راحوا يمارسون جرائمهم بقتلهم، بعد أن مارسوا جرائمهم بتعذيبهم.

وقد ذكر المؤرخون أنه لما أتوا بزيد بن الدثنة لقتله، واجتمع رهط من قريش، منهم أبو سفيان الذي قال له مخاطبا: (أنشدك اللَّه يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟)، فقال زيد: (واللَّه ما

---

[1] () رواه البخاري 7/ 437 (4086)

أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيـه وأني جالس في أهلي)، فقال أبو سفيان: (مـا رأيت من النـاس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا)

وهكــذا فعلــوا بخــبيب بن عــدي الــذي رأى القرشــيون الكرامات تترى على يديه، ومع ذلك لم تتحرك قلوبهم للإيمــان، بل تحركت أيديهم لقتله، فقد روي أنـه في الفـترة الـتي حبس فيها انتظارا لقتلـه بعـد خـروج الأشـهر الحـرم، قـالت بعض من كان محبوسا في بيتها: (والله مـا رأيت أسـيرا خـيرا من خـبيب، والله لقد وجدته يأكل قطفـا من عنب مثـل رأس الرجـل، وإنـه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة، وما كان إلا رزقا رزقه اللـه) [1]

وقالت: (اطلعت عليه من صير الباب وإنه لفي الحديد وإن في يده لقطفا من عنب مثل رأس الرّجل يأكـل منـه ومـا أعلم في أرض اللَّه تعالى عنبا يؤكل)

وروي أنه كان يتهجّد بالقرآن فكان يسـمعه النسـاء فيبكين ويرفقن عليه، فلما انسلخت الأشهر الحرم، وأجمعوا على قتلـه قالت ماوية: (فأتيته فأخبرته فو اللَّه ما اكترث بذلك)

ثم أخرجوه مغلولا في الحديد حـتى انتهـوا بـه إلى التنعيم، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكـة، فلم يتخلّف أحد منهم يريدون التشـفي برؤيتـه، فلمـا انتهـوا بـه إلى التنعيم أمروا بخشبة طويلة فحفروا لها.

فلمـا انتهـوا بخـبيب إليهـا قـال: (هـل أنتم تـاركي فأصـلّي ركعتين؟) قالوا: نعم. فركع ركعـتين أتمّهمـا من غـير أن يطـوّل

[1] () رواه البخاري (4086)

فيهما، ثم أقبل على القوم فقال: (أما واللَّه لـولا أن تظنـوا أني إنما طوّلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة) [1]

وبعــد أن انتهى من صــلاته، قــال: (اللهم أحصــهم عــددا واقتلهم بـددا ولا تغـادر منهم أحـدا)، وقـد كـان معاويـة بن أبي سفيان حينها من الذين حضروا يشمتون به وبقتله، فقـال: (لقـد حضرت مع أبي سفيان، فلقد رأيتني وإن أبـا سـفيان ليضـجعني إلى الأرض فرقـا من دعـوة خـبيب)، وقـال حـويطب بن عبـد العزّى: (لقد رأيتني أدخلت إصبعي في أذنيّ وعدوت هاربا فرقا أن أسمع دعاءه)، وكأن ذلـك الاضـطجاع وغـيره سـيحميهم من تلك الدعوة التي نزلت بهم.

فلما صلى الركعتين جعلـوه على الخشـبة، ثم وجّهـوه إلى المدينة وأوثقوه رباطـا، ثم قـالوا لـه: (ارجـع عن الإسـلام نخـل سبيلك). قال: (لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي مـا في الأرض جميعـا). قـالوا: (أفتحب أن محمـدا في مكانـك وأنت جالس في بيتك؟) قال: (لا والله ما أحب أن يشاك محمد شوكة وأنا جالس في بيتي). فجعلوا يقولون: (ارجع يـا خـبيب)، فقال: (لا أرجع أبدا). قـالوا: (أمـا واللات والعـزى لئن لم تفعـل لنقتلنّك)، فقال: (إن قتلى في الله لقليل)، ثم قــال: (اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، الله إنـه ليس هنـا أحـد يبلـغ رسـولك عـني السلام، فبلّغه أنت عني السلام)

فلما رفع على الخشبة أخذ يدعو، وقد روي عن أسـامة بن زيد أن رسول الله ﷺ (كـان جالسـا حينهـا في أصـحابه فأخذتـه غمية كما كانت تأخذه فلمـا نـزل عليـه الـوحي سـمعناه يقـول: (وعليـه السـلام ورحمـة اللـه وبركاتـه). ثم قـال: (هـذا جبريـل

[1] () رواه البخاري (4086)

يقرئني من خبيب السلام)، ثم قال: (وعليك السلام، خبيب قتلته قريش)

ثم دعا المشركون أربعين ولدا ممن قتل آباؤهم ببدر كفّارا، فأعطوا كل غلام رمحا وقالوا: (هذا الذي قتل آباؤكم، فطعنوه برماحهم طعنا خفيفا)، فاضطرب على الخشبة، فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: (الحمد للَّه الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه)، ثم قتلوه.

***

هذه سادتي بعض الذكريات الجميلة التي لا نزال نحملها عنكم، وهي تدلنا على مبلغ النجاح الذي حققه رسول الله ﷺ في تربيتكم وتوجيكم وتعليمكم جميع قيم الإيمان.

وليت الذين ينشغلون بالدفاع عن الطلقاء، والاعتذار عن الفارين عن الزحف، والمولين الدبر، والمتثاقلين للدنيا، تركوهم، وانشغلوا بكم، وأحيوا من خلال ذكركم المفهوم الصحيح لصحبة رسول الله ﷺ.. تلك الصحبة الشريفة التي لا ينال حقيقة معناها إلا الصادقون، فليس كل من دخل المدرسة تلميذ، ولا كل من تشرفت عيناه برؤية رسول الله ﷺ تشرف قلبه بها، وإلا كان المشركون واليهود الذي رأوه من كبار الصحابة، فقد طالت رؤيتهم له بمقدار طول عداوتهم.

رسالة إلى الأصحاب الأوفياء

سادتي يا أصحاب رسول اللـه ﷺ.. يـا من امتلأتم بالوفـاء، ولم تنقضـوا العقـود، ولم تنكثـوا العهـود، بـل حـافظتم عليهـا، وضحيتم في سبيلها إلى أن توفاكم الله بعد أن ذقتم كـل ألـوان البلاء.

لقد كنتم تدركون جيدا أن صحبة رسول الله ﷺ، وإن كانت شريفة مقدسة إلا أن مسؤولياتها لا تقـل عن شـرفها.. ذلـك أن كـل من صـحب رسـول اللـه ﷺ، وأعطى المثـال السـيء عنـه، يكون مثل ذلك التلميذ الفاشل الذي يشوه أستاذه.

لذلك كنتم تحرصون كل حين على مراقبة أنفســكم، حــتى لا تشوهوا نبيكم، ولا القيم العظيمة التي رباكم عليها.

وقد كنتم تذكرون كل حين أن رسول اللـه ﷺ تـرككم على عهود عظيمـة، وأن أسـاس علاقتكم بـه حرصـكم على تنفيـذها بدقة، حتى لا يصدق فيكم ما صدق على أصحاب الأنبيـاء الـذين خانوا الصحبة، ونقضوا العهود، كما قال تعالى بعد ذكره للرسـل عليهم الصـلاة والسـلام: ﴿ وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَـا اقْتَتَـلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُـوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَـرَ وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَـا اقْتَتَلُـوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَـلُ مَـا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]

وقال بعد أن أثنى على مجموعة من الأنبياء عليهم الصــلاة والســــلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَـا مَـعَ نُـوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَـرُّوا سُـجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَـاعُوا الصَّـلَاةَ وَاتَّبَعُـوا الشَّـهَوَاتِ

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 58، 59]

بل إن الله تعالى أخبر أن الناقضين لعهودهم مع أنبيائهم عليهم السلام، لا ينتظرون وفاتهم، بل إنهم ينقضونها، وبأقرب فرصة لذلك الانقلاب الخطير، كما قال تعالى:﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: 83 - 86]

ولهذا كنتم تقرؤون هذه الآيات الكريمة، وتطبقونها على أنفسكم، لا على بني إسرائيل، فالله تعالى ما أنزل القرآن الكريم على بني إسرائيل، وإنما أنزله على هذه الأمة.

وكيف لا تقرؤونها بمثل تلك القراءة، وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن هذه الأمة لا تختلف عن سائر الأمم في هذه السنة، ولو أنها كانت متميزة عنها في ذلك لاستثنى، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

بل ورد في آية أخرى الدلالة على أن الأمة ستفترق بعده ﷺ إلى ثلاث فرق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 31، 32]

وقـد ورد في الحـديث مـا يـبين أن هـذه الفـرق تشـمل الصـحابة فمن بعـدهم، فقـد روي أن عائشـة سـئلت عن الآيـة الكريمة، فقـالت ــ ردا على من سـألها ــ: (يـا بـني، هـؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهـد رسـول اللـه ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأمـا المقتصـد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأمـا الظـالم لنفسـه فمثلي ومثلكم) [1]

وكيف لا تقرؤونها بمثل تلـك القـراءة، وقـد كنتم تسـمعون رسـول اللـه ﷺ يـذكر لكم كـل حين أن جيلكم الـذي تشـرف بصـحبته كغـيره من الأجيـال، لا ضـمانه لـه بـأن يبقى ملتزمـا، فالنجاح في الاختبار الإلهي هو الذي يحدد مصير كل إنسان، وما دام حيا، فهو عرضة للنجاح والسقوط، وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لشهداء أحد: (هؤلاء أشهد عليهم)، فقال أبو بكر: ألسـنا يـا رسـول اللـه بـإخوانهم، أسـلمنا كمـا أسـلموا، وجاهـدنا كمـا جاهدوا، فقال رسول اللـه ﷺ: (بلى، ولكن لا أدري مـا تحـدثون بعدي)[2]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قام على أهل البقيـع، فقـال: (السـلام عليكم يـا أهـل القبـور من المؤمـنين والمسـلمين، لـو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هـو كـائن بعـدكم)، ثم نظـر إلى أصحابه، فقـال: هـؤلاء خـير منكم. قـالوا: يـا رسـول اللـه، ومـا يجعلهم خيراً منا؟ قد أسلمنا كما أسلموا وهاجرنا كمـا هـاجروا، وأنفقنا كما أنفقوا، فما يجعلهم خيراً منـا؟ فقـال ﷺ: (إن هـؤلاء مضوا لم يـأكلوا من أجـورهم شـيئا، وشـهدت عليهم. وإنكم قـد

1() مسند الطيالسي برقم (1489)

2() موطأ مالك 2: 461.

أكلتم من أجوركم بعدهم، ولا أدري كيف تفعلون بعدي)[1]

وهكـذا كنتم تسـمعون الأحـاديث الكثـيرة الـتي تحـذر من الفتن، وتخبر أنها قريبة منكم، وأن بابها سيفتح عليكم بعد وفاته مباشرة.

لقد حدث أسامة بن زيد قال: أشـرف النـبي ﷺ على أطم من آطام المدينة، ثم قال: (هل ترون مـا أرى؟ إني أرى مواقـع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر) [2]

وحدث كعب بن عجرة الأنصاري قـال: خـرج علينـا رسـول اللـــه ﷺ ونحن في المســجد، أنــا تاســع تســعة، فقــال لنــا: (أتسمعون هل تسمعون ـ ثلاث مرار ـ إنها ستكون عليكم أئمة، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فلست منه، وليس مني، ولا يرد علي الحوض يـوم القيامـة، ومن دخـل عليهم ولم يصـدقهم بكـذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهـو مـني وأنا منه، وسيرد علي الحوض يوم القيامة) [3]

وهكذا كنتم تسمعون تحذيراتـه ﷺ من الفتن الـتي سـتحل بالأمة، فتن السـراء، وفتن الضـراء، فقـد بـالغ ﷺ في نصـحكم، وذكر لكم كل مـا سيحصـل لكم من أنـواع الاختبـار الـتي أشـار إليها قولـه تعـالى: ﴿أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُـوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُـولِهِ وَلَا الْمُـؤْمِنِينَ

1() الزهد لابن مبارك: 171. المصنف لعبد الرزاق 3: 575.

2() صحيح البخاري 2: 871، صحيح مسلم 4: 2211.

3() السنن الكبرى للبيهقي 8: 165.

وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [التوبة: 16]

وغيرها من الآيات الكريمة التي فسرتها الأحـاديث الكثـيرة التي تبين لكم بدقة ما سيحصل لكم، ومنها ما رواه عبد الله بن عمـرو أن النـبي ﷺ قـال: (كيـف أنتم إذا فتحت عليكم خـزائن فارس والـروم.. أي قـوم أنتم؟) قـال عبـد الـرحمن بن عـوف: نقــول كمــا أمرنــا اللــه، قــال: (أو غــير ذلــك؟ تتنافســون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون)[1]

وفي حديث آخـر عن عمـرو بن عـوف عن النـبي ﷺ قـال: (والله ما الفقر أخشـى عليكم، ولكن أخشـى أن تبسـط عليكم الــدنيا كمــا بســطت على من كــان قبلكم، فتنافســوها كمــا تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)[2]

وفي حـديث آخـر عن أبي بـرزة عن النـبي ﷺ قـال: (إنمـا أخشى عليكم الشهوات التي في بطـونكم وفـروجكم ومضـلات الفتن) [3]، وفي رواية: (ومضلات الهوى)[4]

وقد ورد في الحديث ما يشـير إلى أن الشـر سـيكون بعـد النبـوة مباشـرة، ففي الحـديث عن حذيفـة قـال: كـان النـاس يسـألون رسـول اللــه ﷺ عن الخــير، وكنت أسـأله عن الشــر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر

1 () مسلم (2962)، ابن ماجه (3996)

2 () البخاري (2988)، مسلم (2961)، الترمذي (2462)، ابن ماجه (3997)، أحمد (4/ 137)

3 () أحمد (4/ 420)

4 () أحمد (4/ 420)

فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله: صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[1]

وهكذا كنتم تعلمون أن سنة الله في الأمم السابقة ستحل بهذه الأمة أيضا، فقد قال ﷺ لكم مخاطبا ومحذرا: (لتتبعنَّ سنن من كان من قبلكم شبر بشبر وذراع بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم)، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)[2]

وقد قال حذيفة ــ وهو المهتم بأحاديث الفتن ــ: (لتركبن سنة بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، غير أني لا أدري تعبدون العجل أم لا) [3]

لكنكم سادتي استطعتم أن تنجحوا في الاختبارات، وهذا لا يعني عصمتكم، فأنتم أنفسكم تقرون بتقصيركم، ولكن فرق

1() البخاري 4/ 242 (3606) وفي 9/ 65 (7084) ومسلم (6/ 20 (4812)

2() أحمد، 5/ 21. النسائي، 6/ 346 رقم 11185. الترمذي، 4/ 475 رقم 2180 ..

3() مصنف ابن أبي شيبة 7: 481.

كبـير بين ذلـك الـذي يخطئ ويعـترف، ثم يعـود إلى السـراط المستقيم، وبين ذلك الذي يستمر في غيه وضلاله وتبديله.

لن أتحدث عن جميعكم هنا، فمنكم من لم يسـجل التـاريخ أسـماءهم، ومنكم من لم يحفـظ أحاديثـه الـرواة.. ولـذلك اعـذروني في أن أذكـر أربعـة منكم، كـانوا من أحسـن نمـاذج الوفاء للعهود التي عاهدوا عليها رسول اللـه ﷺ.. حيث حـافظوا عليهـا إلى أن أعـادهم اللـه تعـالى لصـحبة نبيـه ﷺ، وهـو عنهم راض.

1. المقداد بن الأسود:

واعـذروني سـادتي في أن أبـدا بأحـدكم، وهـو سـيد من سادات الوفاء.. شهد لله رسول الله ﷺ بذلك.. وشهد له التاريخ كله بذلك.

إنه أحد الأربعة الذين تشتاق لهم الجنة.. أولئك الـذين أمـر رسول الله ﷺ بحبهم، وأمرنا بالتأسي به في ذلك.

إنه أحد الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (إن الجنـة تشـتاق إلى أربعة: إلى عمار، وعلي وسلمان، والمقداد) [1]، وقال: (إن الله تعالى أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم، وإنك يـا علي منهم، والمقداد وأبو ذر وسلمان) [2]

إنه صاحب ذلك المشهد الذي تمنى عبد اللـه بن مسـعود ـ على جلالة قدره ـ أن يكـون صـاحبه، فقـال: (لقـد شـهدت من

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 142)

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 172)

المقداد مشهدا لأن أكـون أنـا صـاحبه أحب إلي ممـا في الأرض من شيء، وكان رجلا فارسـا، وكـان رسـول اللـه ﷺ إذا غضـب احمرت وجنتاه، فأتاه المقداد على تلك الحال فقـال: (أبشـر يـا رسول الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسـرائيل لموسـى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقـاتلا إنـا هاهنـا قاعـدون، ولكن والـذي بعثـك بـالحق لنكـونن من بين يـديك، ومن خلفـك، وعن يمينك، وعن شمالك، أو يفتح الله عز وجل لك)[1]

إنه أحد أولئك الذين (أخـذهم المشـركون وألبسـوهم أدرع الحديـد، ثم صـهروهم في الشـمس، فمـا منهم أحـد إلا وأتـاهم على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هـانت عليـه نفسـه في اللـه، وهـان على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شـعاب في مكة، وهو يقول: أحد أحد)[2]

إنه ذلك الذي ضحى بكل شيء، وتحمل الجوع الشديد من أجل نصرة الإسلام، وقـد ورد في الحـديث أنـه قـال: (جئت أنـا وصاحبان، لي قـد كـادت تـذهب أسـماعنا وأبصـارنا من الجهـد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسـول اللـه ﷺ، فمـا يقبلنـا أحد حتى انطلق بنا رسول الله ﷺ إلى رحلـه، ولآل محمـد ثلاث أعنز يحتلبونها، فكان النبي ﷺ يوزع اللبن بيننا، كنا نرفع لرسول الله ﷺ نصيبه، فيجيء فيسلم تسليما يسمع اليقظان ولا يوقــظ النائم، فقال لي الشيطان: لو شربت هذه الجرعة فإن النبي ﷺ يأتي الأنصار فيتحفونه، فما زال بي حتى شـربتها، فلمـا شـربتها ندمني وقال: ما صنعت؟ يجيء محمد ﷺ فلا يجد شرابه فيـدعو عليك فتهلك، وأما صاحباي فشربا شرابهما ونامـا، وأمـا أنـا فلم

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 172)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 149)

يأخـذني النـوم، وعلي شـملة لي إذا وضـعتها على رأسـي بـدت منها قدماي، وإذا وضعتها على قدمي بدا رأسي، وجاء النـبي ﷺ كمـا كـان يجيء فصـلى مـا شـاء اللـه أن يصـلي، ثم نظـر إلى شرابه فلم ير شيئا فرفـع يـده، فقلت: تـدعو علي الآن فأهلـك، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (اللهم أطعم من أطعمـني، واسـق من سقاني)، فأخذت الشفرة وأخذت الشملة وانطلقت إلى الأعـنز أجسـهن أيتهن أسـمن كي أذبحـه لرسـول اللـه ﷺ، فـإذا حفـل كلهن، فأخذت إناء لآل محمد ﷺ كانوا يطمعون أن يحتلبـوا فيـه فحلبته حتى علته الرغوة، ثم أتيت رسـول اللـه ﷺ، فشـرب ثم نـاولني فشـربت، ثم ناولتـه فشـرب، ثم نـاولني فشـربت، ثم ضحكت حـتى ألقيت إلى الأرض، فقـال لي: (إحـدى سـوآتك يـا مقداد)، فأنشأت أحدثه بما صنعت، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (مـا كـانت إلا رحمـة من اللـه عـز وجـل، لـو كنت أيقظت صـاحبيك فأصابا منها)، قلت: والذي بعثك بالحق، ما أبالي إذا أصـبتها أنت وأصبت فضلتك من أخطأت من الناس)[1]

وقال: (لمـا نزلنـا المدينـة عشـرنا رسـول اللـه ﷺ عشـرة عشرة، يعني في كل بيت، قال: فكنت في العشرة الـذين كـان النبي ﷺ فيهم، قال: ولم يكن لنا إلا شاة نتجزأ لبنها) [2]

إنه ذلـك الـذي عـرف الجاهليـة والإسـلام، ومـيز بين القيم الـتي تمثلهمـا، ولم يغـتر بالصـحبة المجـردة عن القيم، وقـد رد على من قال له: (طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسـول اللـه ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشـهدنا مـا شـهدت)، بقولـه: (ما يحمل الرجل أن يتمنى محضرا غيبة الله عنه لا يـدري كيـف

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 173)

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 174)

يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام كبهم اللــه على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، ألا يحمد الله تعالى أحدكم أن لا تعرفوا إلا ربكم مصدقين بما جـاء بـه نـبيكم، فقـد كفيتم البلاء بغـيركم، واللـه لقـد بعث النـبي ﷺ على أشـد حـال بعث عليها نبي من الأنبيـاء في فـترة وجاهليـة لم يـروا أن دينـا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل، وفرق بين الوالـد وولـده، حـتى إن كـان الرجـل لـيرى والـده أو ولده أو أخاه كافرا، وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان ليعلم أنه قد هلك من دخل النـار، فلا تقـر عينـه وهـو يعلم أن حميمـه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَـا هَبْ لَنَـا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74])[1]

إنه ذلك الذي أدرك بأن الاختبارات الإلهيـة ليسـت متوقفـة على فترة دون فترة، وأن ادعاء الإسلام والصحبة ليسا كـافيين، وقد قـال في ذلك: (العجب من قـوم مـررت بهم آنفـا، يتمنـون الفتنة، ويزعمون ليبتلينهم الله فيها بما ابتلى به رسـول اللـه ﷺ وأصـحابه، وأيم اللـه لقـد سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: (إن السعيد لمن جنب الفتن ـ يرددها ثلاثا ــ وإن ابتلي فصـبر)، وأيم الله لا أشهد لأحد أنه من أهل الجنة حتى أعلم بما يمـوت عليـه بعد حديث سمعته من رسول اللـه ﷺ، سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: (لقلب ابن آدم أسـرع انقلابـا من القـدر إذا اسـتجمعت غليا) [2]

ولذلك كان يلوم المتقاعسين والقاعدين في كل الجبهـات،

---

[1] () رواه مسلم (4/ 3154) 250

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 175)

حتى في جبهة القتال، وقد روي عن أبي يزيد المكي قال: (كان أبو أيوب والمقداد يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال، ويتأولان هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: 41])

وقال أبو راشد الحبراني: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من تابوت الصيارفة بحمص، قد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو؛ فقلت له: لقد أعذر إليك. قال: أتت علينا سورة البعوث: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: 41])

ولهذا كانت كل أمانيه الشهادة في سبيل الله، وقد قال محدثا عن نفسه في غزوة الغابة: (فخرجت وأنا أسأل الله الشهادة حتى أدرك أخريات العدو)، لكن الله تعالى شاء له فيها النصر، وقد مدحه حينها حسان بن ثابت، فقال في تصويره الشاعري لتلك الغزوة[1]:

لولا الّذي لاقت ومسّ بجنوب ساية أمس
للقينكم يحملن كلّ حامي الحقيقة ماجد
ولسرّ أولاد اللّقيطة سلم غداة فوارس

وبسبب هذا لم يغب عن أي غزة من الغزوات، بل كان في جميعها فارسا وبطلا، ولهذا جعله رسول الله ﷺ يوم أحد على الخيل بعد إعطاء لواء المهاجرين للإمام علي، ولواء الأوس إلى أسيد بن خضير، ولواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر.

وقد قال فيه بعضهم يذكر هذه الصفة: (ما بقي أحدٌ إلا وقد جال جولة إلا المقداد بن الأسود فإن قلبه كان مثل زبر

[1] () سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (5/ 104)

الحديد) [1]

ولذلك لم يكن يرى في الدين وسيلة للمغانم والمكاسب، وإنما كان يرى فيه وسيلة لتكميل النفس وتربيتها وتهذيبها، وقد بدأ ذلك معه من عهد رسول الله ﷺ، فقد روي عنه أنه قال يحدث عن نفسه: (بعثني رسول الله ﷺ مبعثا، فلما رجعت قال لي: كيف تجد نفسك؟ قلت: ما زلت حتى ظننت أن معي حولا لي، وأيم الله، لا ألي على رجلين بعدها أبدا)

وما ذلك إلا لحسابه لنفسه، وورعه وتقواه، وهو تنبيه لأولئك المسارعين في طلب الولايات على الرغم من عدم تهذيبهم لأنفسهم، وتأديبهم لها.

لكنه ـ مع ورعه الذي جعل يترك الإمارة وطلبها ــ كان يمارس دوره الواجب عليه في النصيحة لكل من ولي أي مسؤولية، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وقد حدث الحارث بن سويد، قال: كان المقداد بن الأسود في سرية فحصرهم العدو، فعزم الأمير أن لا يحشر أحد دابته، فحشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة، فضربه، فرجع الرجل وهو يقول: ما رأيت كما لقيت اليوم قط، فمر المقداد فقال: ما شأنك؟ فذكر له قصته، فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال: أقده من نفسه، فأقاده فعفا الرجل، فرجع المقداد وهو يقول: (لأموتن والإسلام عزيز) [2]

ومن صفاته العظمى التي وفرت له تلك المكانة الخاصة في قلب رسول الله ﷺ تلك الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ،

[1] () معجم رجال الحديث، ج18، ص360 و363.

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 176)

والتي يسلم له فيها تسليما مطلقـا، فلا يجادلـه، ولا يماريـه، ولا يقدم رأيه على رأيه، وقد روي عنه أنه قـال: أنـا أسـرت الحكم بن كيسان، أراد أميرنا ضرب عنقه، فقلت: دعـه نقـدم بـه على رسول الله ﷺ قدمنا، فجعل رسول الله ﷺ يـدعوه إلى الإسـلام فأطال، فقال عمر: علام تكلم هذا يا رسول الله؟ والله لا يسلم هذا آخر الأبد، دعني أضرب عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية، فجعل النبي ﷺ لا يقبل على عمر حتى أسلم الحكم، فقـال عمـر: فمـا هو إلا أن رأيته قد أسلم حتى أخذني ما تقدم وما تـأخر، وقلت: كيف أرد على النبي ﷺ أمرا هو أعلم بـه مـني؟ ثم أقـول: إنمـا أردت بذلك النصيحة للـه ولرسـوله، فقـال عمـر: فأسـلم واللـه فحسن إسـلامه وجهـد في اللـه حـتى قتـل شـهيدا ببـئر معونـة ورسول الله ﷺ راض عنه ودخل الجنان[1].

وروي أن رسول الله ﷺ قال للذين جادلوه أو همـوا بقتلـه معاتبا لهم: (لو أطعتكم فيه آنفا فقتلته دخل النار) [2]

ومن صـفاته العظمى ذلـك الثبـات على المبـدأ، والوفـاء بالعهد، والالتزام بتلك الوصية التي أوصى بها رسول الله ﷺ في حق الإمام علي، والتي تصـور الكثـير من الصـحابة ومن بعـدهم أنها مجرد اجتهاد من رسول اللـه ﷺ، وليسـت أمـرا جازمـا، ولا حكما نافذا، لكن المقداد لم يكن يرى ذلك، بل كان يعلم أن كل كلمة من رسول الله ﷺ وحي يوحى، لا مجال فيه للعاطفـة، ولا للرأي المجرد.

ولهذا ذكره الإمام الصادق من جملة الذين طالبوا بعد وفاة

1() رواه ابن سعد، حياة الصحابة (1/ 72)

2() رواه ابن سعد، حياة الصحابة (1/ 72)

رسول الله ﷺ بتطبيق وصـيته، وحكم الإمـام علي، ولم يرجعـوا عن ذلك إلا خشية من تفرق صف المسلمين، فقـد قـال: (كـان الذي أنكر على أبي بكر اثنى عشـر رجلا من المهـاجرين: خالـد بن سعيد بن العاص، وكان من بني أمية وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفــاري والمقــداد بن الأســود وعمــار بن ياســر وبريــدة الأسلمي ومن الأنصار أبو الهشيم بن التيهان وسهل وعثمان ابنا حنيف وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبي بن كعب وأبو أيــوب الأنصاري)

وقال: (إنما منزلة المقداد في هذه الأُمة كمنزلـة ألـف في القرآن، لا يلزق بها شيء) [1]

وممــا كتبــه الإمــام الرضــا للمــأمون في محض الإســلام، وشرائع الدين قولـه: (والـذين مضـوا على منهـاج نـبيهم ﷺ ولم يغيروا، ولم يبدِّلوا، مثـل: سـلمان الفارسـي، وأبي ذر الغفـاري، والمِقداد بن الأسود) [2]

وقد روي من نصـائحه الـتي أسـداها للخليفـة الأول منكـرا عليه قولـه: (يـا أبـا بكـر تب إلى ربـك والـزم بيتـك، وابـك على خطيئتك، وسـلم الأمـر لصـاحبه الـذي هـو أولى بـه منـك، فقـد علمت ما عقده رسول الله ﷺ في عنقك من بيعته، وألزمك من النفوذ تحت راية أسـامة بن زيـد وهـو مـولاه، ونبـه على بطلان وجوب هذا الأمر لك ولمن عضـدك عليـه بضـمه لكمـا إلى علم النفاق ومعدن الشنان والشـقاق عمـرو بن العـاص الـذي أنـزل الله فيه على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُـوَ الْأَبْتَـرُ﴾ [الكـوثر: 3]، فلا

1() الاختصاص:10.

2() عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق 134:2

اختلاف بين أهل العلم أنها نزلت في عمرو، وهو كان أميرا عليكما في الوقت الذي أنفذه رسول الله ﷺ في غزاة ذات السلاسل، وأن عمرا قلد كما حرس عسكره، فأين الحرس إلى الخلافة، اتق الله وبادر بالاستقالة قبل فوتها، فإن ذلك أسلم لك في حياتك وبعد وفاتك، ولا تركن إلى دنياك ولا تغرنك قريش وغيرها، فعن قليل تضمحل عنك دنياك ثم تصير إلى ربك فيجزيك بعملك، وقد علمت وتيقنت أن علي ابن أبي طالب هو صاحب الأمر بعد رسول الله ﷺ، فسلمه إليه بما جعله الله له فإنه أتم لسترك واخف لوزرك، فقد والله نصحت لك إن قبلت نصحي وإلى الله ترجع الأمور) [1]

وروي من دفاعه عن آل بيت النبوة، وتنفيذه لوصايا رسول الله ﷺ في ذلك أنه قال: (ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم)، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وما أنت وذاك يا مقداد، فقال: (إني والله لأحبهم لحب رسول الله ﷺ إياهم، وإن الحق معهم وفيهم، يا عبد الرحمن أعجب من قريش وإنما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت، قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله ﷺ بعده من أيديهم، أما وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصارا لقاتلتهم كقتالي إياهم مع النبي ﷺ يوم بدر) [2]

2. بلال بن رباح:

واعذروني بعد المقداد أن أذكر أخاه بلالا.. ذلك الذي منعته حبشيته من أن يذكر في المبشرين بالجنة، مع أن الأحاديث

[1] () الاحتجاج، ص102.

[2] () مروج الذهب ج 2، ص 352.

وردت بذلك، بل وردت بما هو أشرف منه، فقد كان رسول الله ﷺ يذكره، ويثني عليه، ويعتبره من السابقين الصادقين، وفوق ذلك استعمله أمينا للمال في عهده، حتى يكون ذلك درسا لمن عزلوه، وعزلوا أمثاله من الأمناء، وراحوا يولون الطلقاء أمور المسلمين.

وقد قال ﷺ يذكر دخوله الجنة: (رأيتني دخلت الجنة وسمعت خشفا أمامي، فقلت: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا بلال) [1]

وذكر أن ذلك الدخول لم يكن مجانيا، ولا للصحبة المجردة عن العمل، وإنما لبعض الأعمال التي كان يقوم بها بلال، وهي وإن بدت بسيطة، لكنها تدل على شخصه والقيم التي يؤمن بها، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لبلال بعد صلاة الغداة: (حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة، قال بلال: ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهورا تاما في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي)[2]

وهكذا شرفه ﷺ بلقب [سيد المؤذنين]، فقال: (نعم المرء بلال، وهو سيد المؤذنين)[3]

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 150)

2() رواه البخاري 3 / 28 ، ومسلم رقم (2458)

3() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 147)

وشــرفه بــأن اعتــبره ســابق قومــه، فقــال: (بلال ســابق الحبشة)[1]

وشرفه بأن ذكر معاناته والأذى الذي لحقه، وأشــركه معــه في ذكره، فقال: (لقد أوذيت في اللــه ومــا يـؤذى أحــد، وأخفت في اللــه ومــا يخــاف أحــد، ولقــد أتت علي ثلاثــون من بين يـوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد؛ إلا ما يواري إبط بلال)[2]

وإلى الآن لا تــزال صــورته ترتســم في الأذهــان لتمثــل الصحبة الحقيقية تلك التي تتحمـل الآلام في سـبيل الإسـلام، لا تلك التي لبسها الطلقاء وإخوانهم زورا وبهتانا.

وقد ذكر الرواة الكثير من مشاهد الآلام التي مر بهـا، وهـو يضحي بنفسه في سـبيل عقيدتـه، فعن عـروة بن الزبـير قـال: (كان بلال لجارية من بني جمح، وكـانوا يعذبونـه برمضـاء مكـة، يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك، فقول: أحد أحد، فيمر به ورقة ـ وهو على تلك الحال ـ فيقول: أحد، أحد، يـا بلال. واللـه، لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا) [3]

وعن ابن إســحاق، قــال: (كــان أميــة يخرجــه إذا حميت الظهــيرة فيطرحــه على ظهــره في بطحــاء مكــة؛ ثم يــأمر بالصخرة العظيمـة فتوضـع على صـدره، ثم يقـول لـه: لا تـزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. فيقـول ـ

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 149)

[2] () رواه أحمد والترمذي وابن حبان ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، حياة الصحابة (1/ 315)

[3] () رواه الزبير بن بكار، حياة الصحابة (1/ 346)

وهو في ذلك البلاء ـ: أحد، أحد)[1]

وفي تلـك الأيـام قـال عمـار بن ياسـر، شـريكه في الآلام يذكره[2]:

جزى الله خيرا عن ... عتيقا وأخزى فاكها وأبا
عشية هما في بلال ... ولم يحذرا المرء ذو
بتوحيده رب الأنام ... شهدت بأن الله ربي
فإن يقتلوني يقتلوني ... لأشرك بالرحمن من
فيا رب إبراهيم والعبد ... وموسى، وعيسى،
لمن ظل يهوى الغي ... على غير بركان منه ولا

وقد كان لبلال وإخوانه ـ بسـبب ذلـك ــ مـواقفهم الخاصـة من أولئـك المتجـبرين من القرشـيين، والـذين عرفـوا من خلال معـــاملتهم القاســـية لهم أن إســـلامهم لم يكن إلا نوعـــا من استسلام المنافقين الذين يتحينون الفرص للانقضاض من جديد.

وقد أيـدهم رسـول اللـه ﷺ في ذلـك الموقـف بصـراحة لا حدود لهـا، فقـد روي أن أبـا سـفيان مـر على سـلمان وصـهيب وبلال في نفر من المستضعفين بعد أن ادعى الإسـلام، فقـالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، حينها قـال أبـو بكـر: أتقولـون هـذا لشـيخ قـريش وسـيدهم؟ ثم أتى النـبي ﷺ فـأخبره، وكأنـه يرجـو من رسـول اللـه ﷺ أن ينهـاهم عن ذلـك الموقف، لكنه ﷺ قال له ـ مشيرا إلى تأييده لهم ـ: (يـا أبـا بكـر

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 148)

[2] () سيرة ابن إسحاق، (ص: 191)

لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك)، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: (لا.. يغفر الله لك يا أخي) [1]

لكن للأسف لم يعتبر ذلك الموقف سندا للمستضعفين في رفضهم لتولي الطلقاء أمور المسلمين، بل اعتبر مجرد ثناء فارغ من أي محتوى، مع أن الكبرياء والتجبر الذي كان لديهم ظل مصاحبا لهم، ولم يكن تلفظهم بالشهادتين كافيا لتطهيرهم من رواسب الجاهلية.

وكيف يتطهرون، وقد ظلوا لآخر لحظة محجوبين عن الإسلام بسبب اتباع المستضعفين لرسول الله ﷺ، وقد ورد في الحديث عن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا رسول الله أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم؟ أطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 51، 52]) [2]

وهكذا كان موقف نظرائهم من الملأ الذين حشوا كبرا وتجبرا، وقد روي عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي

---

[1] رواه أحمد (5/64) وفي (5/65) ومسلم (7/173) والنسائي في الكبرى (5057)

[2] رواه أبو نعيم في الحلية وغيرهن حياة الصحابة (3/ 215)

وعيينة بن حصن الفزاري، فوجـدوا رسـول اللـه ﷺ مـع صـهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنـا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العـرب فضـلنا، فـإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانـا العـرب مـع هـذه الأعبـد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنـا، فـإذا نحن فرغنـا فاقعـد معهم إن شئت.. فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَـيْءٍ فَتَطْـرُدَهُمْ فَتَكُـونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]) [1]

وقد روي أن رسول الله ﷺ بعد أن نزلت عليـه هـذه الآيـة الكريمة، قام يلتمسهم حتى أصابهم في آخر المسـجد يـذكرون الله، فقال: (الحمد لله الـذي لم يمتـني حـتى أمـرني أن أصـبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات)[2]

ولهـذا كـان رسـول اللـه ﷺ يـدعو بلالا ــ كمـا يـدعو كـل المستضعفين ـ إلى عـدم السـقوط في مسـتنقعات الـدنيا، لأن فضـلهم لم يكن سـوى بسـبب تلـك القيم الممتلئـة بالتواضـع، والتي وفرها لهم وقوفهم مع المستضـعفين، ففي الحـديث عن بلال، قـال: (قـال لي رسـول اللـه ﷺ: (يـا بلال مت فقـيرا، ولا تمت غنيـا)، قلت: فكيـف لي بـذلك يـا رسـول اللـه؟ قـال: (مـا رزقت فلا تخبئ، ومـا سـئلت فلا تمنـع)، فقلت: يـا رسـول اللـه

---

1 () رواه ابن ماجة في السنن برقم (4127)، وقال البوصيري في الزوائد (3/276): هذا إسناد صحيح، هذا ما نـراه صـحيحا من الروايـة، أمـا مـا أضيف إليه من إقرار رسول الله ﷺ ، وقولهم: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب.. فغير صحيح، ويسـتحيل على رسـول اللـه ﷺ أن يستسلم لأهوائهم.

2 () تفسير الطبري، (15/ 240)

كيف لي بذلك؟ قال: (هو ذلك أو النار) [1]

ولهذا ظل ممتلئا بالتواضع، ولم يتاجر بذلك الثناء الذي أثني عليه، وقد حدث الشعبي قال: خطب بلال وأخوه إلى أهل بيت من اليمن، فقال: أنا بلال وهذا أخي، عبدان من الحبشة، كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، إن تنكحونا فالحمد لله وإن تمنعونا فالله أكبر[2].

ولم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بالثناء عليه، وإنما كان يستعمله، وفي أخص شؤون المسلمين، لينبه من بعد إلى اختيار السابقين المتواضعين، لا المتخلفين والطلقاء والمستكبرين.

فقد كانت كل الأموال التي تجبى للمسلمين توضع عند بلال، أي أنه كان وزير المالية، أو أمين صندوق المال، ولذلك كان يسأل عن كل الشؤون المالية للمسلمين، فعن عبد الله الهوزني، قال: لقيت بلالا فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ فقال: (ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي له ذاك منذ بعثه الله عز وجل حتى توفي، وكان إذا أتاه الرجل المسلم فرأه عاريا يأمرني به، فأنطلق فأستقرض وأشتري البردة فأكسوه وأطعمه)[3]

وكان رسول الله ﷺ يوصيه كل حين، ليعلمه ــ ويعلم من

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 149)

2() رواه ابن سعد حياة الصحابة (3/ 493)

3() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 149)

بعده ـ كيف يتعامل مع ما اعتبره الله تعالى قوام حياة النـاس، فعن عبد الله بن مسعود، قال: دخل النبي ﷺ على بلال، وعنده صبر من تمر، فقـال: (مـا هـذا يـا بلال؟) قـال: يـا رسـول اللـه ادخرته لك ولضيفانك، قال: (أما تخشى أن تكـون لـه بخـار في النار، أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[1]

ومن القصص الطريفة التي تروى عنه في هذا، والتي تدل على كيفية تسييره لهذا الجانب، ومدى الصلاحيات التي أعطاها له رسول الله ﷺ ما حدث به عبد الله الهوزنيّ؛ قال: لقيت بلالا مـؤذّن رسـول اللـه بحلب، فقلت: يـا بلال، حـدّثني كيـف كـانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنـا الّـذي ألي ذلك منه منـذ بعثـه اللـه إلى أن تـوفّي، وكـان إذا أتـاه الإنسـان مسـلما فـرآه عاريـا يـأمرني فـأنطلق فأسـتقرض فأشـتري لـه البردة فأكسوه وأطعمـه، حتّى اعترضـني رجـل من المشـركين فقال: يـا بلال، إنّ عنـدي سـعة فلا تسـتقرض من أحـد إلّا منّي، ففعلت، فلمّا أن كان ذات يوم توضّأت ثمّ قمت لأؤذّن بالصّـلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التّجّار، فلمّا رآني قال: يا حبشيّ؛ قلت: يا لبّاه، فتجهّمني وقال لي قولا غليظا، وقـال لي: أتدري كم بينك وبين الشّهر؟ قال: قلت: قريب، قال: إنّما بينـك وبينه أربع، فآخذك بالّـذي عليـك فـأردّك تـرعى الغنم كمـا كنت قبل ذلك، فأخذ في نفسي مـا يأخـذ في أنفس النّـاس، حتّى إذا صلّيت العتمة رجـع رسـول اللـه ﷺ إلى أهلـه فاسـتأذنت عليـه، فأذن لي، فقلت: يـا رسـول اللـه بـأبي أنت وأمّي إنّ المشـرك الّذي كنت أتديّن منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك مـا تقضـي عنّي، ولا عندي، وهو فاضحي، فأذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الّذين قد أسلموا حتّى يرزق اللـه رسـوله ﷺ مـا يقضـي

---

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 149)، ورواه البزار بإسناد حسن والطبراني، حياة الصحابة (2/ 392)

عنّي، فخــرجت حتّى إذا أتيت مــنزلي فجعلت ســيفي وجــرابي ونعلي ومجنّي عند رأســي، حتّى إذا انشــقّ عمــود الصّــبح الأوّل أردت أن أنطلق فإذا إنسان يسعى يدعو: يـا بلال، أجب رســول الله ﷺ، فانطلقت حتّى أتيته، فـإذا أربـع ركـائب مناخـات عليهنّ أحمالهنّ، فاستأذنت فقال لي رسول الله ﷺ: أبشر فقـد جـاءك اللــه بقضـائك، ثمّ قـال: (ألم تــر الرّكـائب المناخـات الأربــع؟) فقلت: بلى، فقــال: (إنّ لــك رقــابهنّ ومــا عليهنّ فــإنّ عليهنّ كسوة وطعاما أهداهنّ إليّ عظيم فدك، فاقبضهنّ واقض دينك) ففعلت.. ثمّ انطلقت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قاعد في المسجد، فسلّمت عليه فقال: (مـا فعـل مـا قبلـك؟) قلت: قـد قضى الله كلّ شيء كان على رسـول اللــه ﷺ فلم يبـق شـيء، قال: (أفضل شيء؟) قلت: نعم، قال: (انظــر أن تريحــني منــه، فإنّي لست بداخل على أحد من أهلي حتّى تريحني منــه)، فلمّــا صلّى رسول الله ﷺ العتمة دعاني فقال: (ما فعل الّذي قبلك؟) قلت: هو معي لم يأتنا أحد، فبات رسـول اللــه ﷺ في المســجد وقصّ الحديث، حتّى إذا صلّى العتمة يعني من الغد دعاني قال: (ما فعل الّذي قبلك؟) قال: قلت: قد أراحك الله منه يـا رسـول الله، فكبّر وحمد الله شفقا من أن يدركه المـوت وعنـده ذلـك) [1]

وفوق هـذا، فقـد كـانت علاقـة بلال برسـول اللــه ﷺ أكـبر بكثير من تلك الصـورة الـتي ذكرهـا المحـدثون، وقـد قـال فيـه الإمام الصادق: (رحم الله بلالاً فإنه كان يحبنا أهل البيت) [2]

ومن الروايات الدالة على تلك العلاقة مـا ورد في الروايــة

1() رواه أبو داود (3055)

2() المفيد، الاختصاص: ص 83.

أنه (بينما كان النبي ﷺ والنـاس في المسـجد ينتظـرون بلالاً أن يأتي فيؤذن إذ أتى بعد زمان، فقال له النـبي ﷺ: مـا حبسـك يـا بلال؟، فقـال: إني اجـتزت بفاطمــة وهي تطحن واضـعة ابنهـا الحسن عند الرحى وهي تبكي، فقلت لهـا: أيمـا أحب إليـك: إن شئت كفيتك ابنك، وإن شئت كفيتك الرحى؟ فقالت: أنـا أرفــق بابني، فأخذت الرحى فطحنت، فذاك الذي حبسني، فقال النبي ﷺ: (رحمتها، رحمك الله)[1]

ولهذا لم يطق البقاء في المدينة بعد وفاة رسول اللــه ﷺ، وقد حدث إبراهيم بن الحارث التيمي قال لما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال ورسول الله ﷺ لم يقـبر فكـان إذا قـال: أشـهد أن محمــدا رسـول اللــه، انتحب النـاس في المسـجد، فلمـا دفن رسـول اللــه ﷺ قـال لـه أبـو بكـر: أذن، فقـال: إن كنت إنمـا أعتقتني لأكون معك فسبيل ذلك، وإن كنت أعتقتني لله فخلـني ومن أعتقتني له، فقال: ما أعتقتك إلا للــه، قـال: فـإني لا أؤذن لأحد بعد رسول اللهﷺ، قال: فذلك إليـك، فأقـام حـتى خـرجت بعوث الشام، فسار معهم حتى انتهى إليها[2].

وروي أنه (رأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول لـه: مـا هـذه الجفوة يا بلال! أما آن لـك أن تـزورني يـا بلال!.. فانتبـه حزينـاً وجلاً خائفاً، فركب راحلتـه وقصـد المدينـة فـأتى قـبر النـبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسـن والحسـين، فجعل يضمهما ويقبلهما، فقالا له: يا بلال نشـتهي نسـمع أذانـك الذي كنت تـؤذن بـه لرسـول اللــه ﷺ في السـحر؛ ففعـل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفـه الـذي كـان يقـف فيـه، فلمـا أن

[1] () مختصر تاريخ دمشق، ج 5، ص 1.

[2] () مختصر تاريخ دمشق (5/ 265)

قال: الله أكبر، الله أكبر ارتجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله طح المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلمـا أن قال: الله أكبر، الله أكبر ارتجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله ازداد رجتها فلما أن قال: أشهد أن محمـداً رسـول الله خرج العواتق من خدورهن، وقالوا: أبعث رسـول اللـه ﷺ!؟ فما رئي يوم أكثر باكياً ولا باكيةً بالمدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم[1].

ولم يكن بلال من أولئـك الـذين اعـتزلوا، وفـروا بـدينهم فقط، وإنما كان يجـاهر بنصـائحه خوفـا من تبـديل الـدين، وقـد حـدث قيس بن أبي حـازم قـال: جـاء بلال إلى عمـر حين قـدم الشام وعنده أمراء الأجناد، فقال: يا عمر، يا عمر، فقـال عمـر: هذا عمر. فقال: إنك بين هؤلاء وبين الله، وليس بينك وبين اللـه أحـد، فـانظر من بين يـديك ومن عن يمينـك ومن عن شـمالك، فإن هؤلاء الذين جاؤوك والله إن يأكلوا إلا لحـوم الطـير، فقـال عمر: صدقت، لا أقوم من مجلسـي هـذا حـتى تكفلـوا لي لكـل رجل من المسلمين بمدي بر وحظهما من الخل والزيت، قـالوا: تكفلنا لك يا أمير المؤمنين، هو علينـا، قـد أكـثر اللـه من الخـير وأوسع، قال: فنعم[2].

3. خباب بن الأرت:

من الأسـماء الـتي لا يمكننـا تجاهلهـا بعـد ذكـر بلال أخـوه وزميله وصديقه في الوفاء خباب بن الأرت[3].. ذلك الذي مثـل الوفاء والتضحية والنبل بأسمى معانيها.. وقد بقيت النيران التي

1() مختصر تاريخ دمشق (5/ 265)

2() رواه أبو عبيد، والطبراني ، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الله بن أحمد وهو ثقة مأمون، حياة الصحابة (2/ 472)

حرقته بها قـريش تملـؤه بـالآلام كـل حين إلى أن مـات بسـببها شهيدا، بعد أن أخـر اللـه وفاتـه لـيزداد من بركـات ذلـك اللقـاء المبارك مـع رسـول اللـه ﷺ، وتـزداد معهـا أدلـة وفائـه الـتي لا تنتهي.

لقد كان يحرص كل حين على ذكر مـا أصـابه وإخوانـه من البلاء، لا ليمن به على المسلمين، وإنما ليذكر بـه أولئـك الـذين ألقوا بزمام الأمور إلى الطلقاء، وأبعدوا الذين ضـحوا بأنفسـهم في سبيل الإسلام.

ومما يروى في ذلك ما حدث به الشعبي قال: دخل خبــاب بن الأرت على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئه وقـال: مـا على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قـال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال لـه خبـاب: (يـا أمـير المؤمـنين مـا هـو بـأحق مـني، إن بلالا كـان لـه في المشركين من يمنعه اللـه بـه ولم يكن لي أحـد يمنعـني، فلقـد رأيتني يوما أخذوني وأوقدوا لي نارا ثم سـلقوني فيهـا ثم وضـع رجــل رجلــه على صــدري فمــا اتقيت الأرض إلا بظهــري)، ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص[1].

وقد حدث عن نفسه وعن إخوانه من المستضعفين، وكيف لجأوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون نصرة الله مع أنه كان يمكنهم أن يخفوا إيمانهم، لكنهم أبوا أن يفعلوا ذلك، يقول: شــكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة لـه في ظـل الكعبـة، فقلنـا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقـال ﷺ: (قـد كـان من قبلكم يؤخـذ

3() انظر ترجمته في تهذيب الكمال (1674) ، وتهـذيب التهـذيب (3/ـ 133) ، ومغـازي الواقـدي (100)ـ ـ (155) ، وحليـة الأوليـاء (1/ـ 43)ـ ، والاستيعاب (2/ 437) ، وأسد الغابة (2/ 98)

1() الطبقات الكبرى (3/ 122)

الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون) [1]

ومع ذلك، فقد دعا على رسول الله ﷺ على المرأة التي كانت تؤذيه، فقد روي أنه ﷺ قال: (اللهم انصر خبابا)، فاشتكت مولاته رأسها، وكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، يفعل بها ليعالجها، ما كانت تفعل به لتعذبه[2].

وهكذا كان يذكر مواقف قريش، ويذكر بعنادها وجبروتها، حتى تعزل من أن يكون الأمر لها، ويحرم منه الضعفاء الذين ضحوا بأنفسهم، وقد روي من كلماته في ذلك قوله: (كنت رجلا قينا، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت، ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 77 - 80])[3]

---

1 () رواه البخاري 7 / 126.

2 () سبيل الهدى والرشاد، ج 2، ص 359.

3 () رواه مسلم (2795) (36) ، والترمذي (3162) ، والنسائي في "الكبرى" (11322)

وعندما ذهب إلى المدينة المنورة مهاجرا، ظـل على حالـه من المعاناة، وقد كان حينها في صحبة المقداد، فعن موسى بن يعقوب عن عمته أن (المقـداد بن عمـرو وخبـاب بن الأرت لمـا هاجرا إلى المدينة نزلا على كلثوم بن الهـدم، فلم يبرحـا منزلـه حتى توفي قبل أن يخرج رسول الله ﷺ إلى بدر بيسير. فتحــولا فــنزلا على سـعد بن عبـادة فلم يـزالا عنـده حـتى فتحت بنـو قريظة)

وقد شهد مثل إخوانه من الأوفيـاء الثـابتين المشـاهد كلهـا مع رسول الله ﷺ ابتداء من بـدر وأحـد والخنـدق وغيرهـا.. ولم يحصل منه فيها جميعا فرارا، ولا تردد، ولا جبن على الـرغم من الآلام الكثيرة التي كانت تعتريه كل حين بسـبب التعـذيب الـذي تعرض له.

وقد حدث حارثة بن مضرب: دخلت على خباب وقد اكتوى سبع كيات، فسـمعته يقـول: (لـولا إني سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقول: (لا ينبغي لأحد أن يتمنى الموت) لألفـاني قـد تمنيتـه)، ثم أتي بكفنه قباطي، فبكى، ثم قال: لكن حمزة عم النبي ﷺ كفن في بردة، إذا مـدت على قدميـه قلصـت عن رأسـه، وإذا مـدت على رأسه قلصت عن قدميه، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ ما أملك دينارا ولا درهما، وإن في ناحيـة بيـتي في تـابوتي لأربعين ألف واف، ولقد خشيت أن تكـون عجلت لنـا طيباتنـا في حياتنـا الدنيا) [1]

ومع كل ذلك الوفاء الذي أثبت به صدق إيمانه إلا أنـه ظـل خائفا إلى آخـر لحظـات حياتـه من تقصـيره وتفريطـه في حـق العهود الـتي عاهـد بهـا رسـول اللـه ﷺ، وقـد روي أن نفـرا من

1 () مسند الحميدي 1/ 86 رقم 158، طبقات ابن سعد 3/ 166، حلية الأولياء 1/ 144، 145، الزهد لابن المبارك 183، 184 رقم 522، أسد الغابة 2/ 99.

أصحاب رسول الله ﷺ زاروه في مرض موته، وقالوا: (أبشر يا أبا عبد الله، إخوانك تقدم عليهم غدا)، فبكى، وقال: (أما إنه ليس بي جزع، ولكن ذكرتموني أقواما، وسميتموهم لي إخوانا، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم) [1]

وقد جعله ذلك التواضع والوفاء يوصي ابنه بقوله: (أي بني إذا أنا مت، فادفني بهذا الظهر، فإنك لو قد دفنتني بالظهر قيل دفن بالظهر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فدفن الناس موتاهم) [2]

وقد ظل أولاده حريصين على استمرار وفائه من بعده، فمن أولاده عبد الله بن خباب، ذلك الذي كان من أصحاب الإمام علي وشيعته، وكان عاملا له على منطقة النهروان، وقد قُتل هو وزوجته على يد الخوارج بعد أن شقوا بطن زوجته واستخرجوا جنينها، وبسبب ذلك حارب الإمام علي الخوارج في النهروان[3].

4. حجر بن عدي:

حتى لا يكون للزمن دوره في تحديد الصالحين من غيرهم، فسنذكر هنا ذلك الصحابي الذي لم يتشرف كثيرا بصحبة رسول الله ﷺ، ولم تطل تلمذته له، ولذلك اعتبر من صغار

1() الطبقات الكبرى (3/ 124)

2() الطبقات الكبرى (3/ 124)

3() تاريخ الطبري، ج 5، ص 81.

الصحابة.. لكن صدقه ووفاءه وتضحياته جعلته من كبارهم، بل جعلت رسول الله ﷺ يشير إليه، ويتحدث عنه.. فالعبرة ليست بالسبق، وإنما بالصدق.. ومن سبق ولم يصدق، سبقه من صدق ولم يسبق.

إنه حجر بن عدي[1] شهيد الولاء والوفاء.. ذلك الذي أخبر رسول الله ﷺ عن قتله مع أصحابه، وبشر بعظيم الأجر الذي ينالونه، وبعظيم السخط الذي يناله قتلتهم، ففي الحديث عن أبي الأسود، قال: دخل معاوية على عائشة فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين، إني رأيت قتلهم صلاحا للأمة، وبقاءهم فسادا للأمة، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم، وأهل السماء)[2]

ذلك الذي ذكره الإمام علي، وشبه قلته وقتل أصحابه بأصحاب الأخدود، فقد حدث عبد الله بن زرير الغافقي قال: سمعت علياً يقول: يا أهل العراق، سيقتل سبعة نفر بعذراء مثلهم كمثل أصحاب الأخدود، منهم حجر بن عدي الأدبر وأصحابه، يقتلهم معاوية بالعذراء من دمشق، كلهم من أهل الكوفة) [3]

---

1 () هو حُجر بن عَدي الكندي الكوفي، من فضلاء الصحابة وزهادهم، وفد على النبي ﷺ مع أخيه هانئ بن عدي وشارك في معركة القادسية، وفتح مرج عذراء بالشام، وهو من خواص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قاتل معه في الجمل وصفين والنهروان، وكان يرأس قبيلته في كل المعارك. قتله معاوية بن أبي سفيان بعد أن عرض عليه البراءة من الإمام علي بن أبي طالب فأبى ذلك، فقتله ومعه أحد أبنائه، وعدد من أصحابه، وقطعوا رأسه وعلّقوه على بوابة الشام، وهو أول رأس يُعلّق على البوابات، انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 1، ص 480، البرقي، أحمد بن محمد، كتاب الطبقات، ص 58 رقم 74، رجال الكشي، ص 80، رقم 40.

2 () ابن عساكر (12/226)

3 () تاريخ دمشق، ج 12، ص 227.

ذلك الذي أرسـل الإمـام الحسـين رسـالة إلى معاويـة في شأنه، وبعد قتله له، يقـول فيهـا: (ألسـت قاتـل حجـر بن عـدي وأصحابه المصلين العابدين، الذين ينكرون الظلم ويسـتعظمون البـدع، ولا يخـافون في اللـه لومـة لائم، ظلمـا وعـدوانا، بعـد إعطائهم الأمان بـالمواثيق والأيمـان المغلظـة؟ أو لسـت قاتـل عمـرو بن الحمـق صـاحب رسـول اللـه ﷺ الـذي أبلتـه العبـادة وصفرت لونه وأنحلت جسمه؟!)[1]

ذلك الذي اعتبر الحسن البصري مقتله جريمة من الجرائم الكـبرى الـتي ارتكبهـا معاويـة في حـق الإسـلام، فقـال: (أربـع خصال كنّ في معاويـة لـو لم يكن فيـه منهنّ إلا واحـدة لكـانت موبقة، انتزاؤهُ على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغـير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصـحابة وذوو الفضـيلة، واسـتخلافه ابنــه بعــده سـكيراً خمـيراً يلبس الحريـر ويضـرب بالطنـابير، وادعاؤهُ زياداً وقد قال رسول الله ﷺ: (الولد للفراش، وللعـاهر الحجر)، وقتله حجراً، ويلاً له من حجر وأصـحاب حجـر، مـرتين)[2]

ذلــك الــذي رثتــه هنــد ابنــة زيــد بن مخرمــة الأنصــارية، فقالت[3]:

ترفع أيها القمر   تبصر هل ترى

[1] () البلاذري في أنساب الأشراف (ج 2 / ص 119)

[2] () تاريخ الطبري ج 4 ص 208، الكامل في التاريخ ج 3 ص 487، المنتظم لابن الجوزي ج 5 ص 243.

[3] () تاريخ الرسل والملوك (3/ 206)

يسير إلى معاوية ليقتله كما زعم
تجبرت الجبابر بعد وطاب لها الخورنق
وأصبحت البلاد بها كأن لم يحيها مزنٌ
ألا يا حجر حجر تلقتك السلامة
أخاف عليك ما وشيخاَ في دمشق
يرى قتل الخيار له من شر أمته
ألا يا ليت حجراً ولم ينحر كما نحر
فإن تهلك فكل من الدنيا إلى هلكٍ

ومثله قالت الكندية الوفية ترثيه:

دموع عيني ديمةٌ تبكي على حجرٍ
لو كانت القوس ما حمل السيف

لاشك أنكم تعلمون قصته، ولستم بحاجة لأقصها عليكم، ولكن اسمحوا لي أن أذكر بها تلك الأجيال التي راحت تمجد الجلاد، وتشاركه في قتل الضحية.. تلك التي عزلت رسول الله ﷺ.. وعزلت أصحابه السابقين الصادقين.. وراحت تثني على معاوية، وترمي حجرا وأصحابه وغيرهم من المظلومين في طيات النسيان، ولا تكتفي بذلك، بل تمارس نفس جرائمها مع كل من يريد أن يحيي ذكرهم، أو يشير إليهم، أو يدعو لهم.. لأنهم لا يريدون الإسلام الإلهي، وإنما يريدون الإسلام الشيطاني الذي أسسه معاوية وإخوانه من الطلقاء، ومن ساندهم وناصرهم وضحى بوفائه من أجلهم.

وطبعا لن أذكر الروايات التي وردت في مصادر الموالين لأهل بيت النبوة، فهم متهمون في كل الأحوال، لذلك سأذكر

المصادر التي يعتمدونها، والأشـخاص الـذين يثقـون فيهم، حـتى يعلمون مقدار جرائم الطلقاء في حق الأصحاب الحقيقيين.

لقد ذكر الطبري قصة مقتله مفصـلة.. وسـنقتبس مشـاهد منها لتكون رمزا للوفاء في أجمل معانيه.. وتكـون كـذلك رمـزا للطغيان في أبشع صـوره.. فقـد احتـوت قصـته كلا الصـورتين، مثلما احتوت قصص جميع الأنبياء والصالحين قمة الطغيـان مـع قمة الإيمان.

وتبدأ القصة كما يحكيها الطبري من خلال مصادره الكثيرة بتلك الشريعة التي شرعها معاوية، وأضـافها إلى الـدين، وكلـف بها كل الخطباء، واعتبرهـا علامـة الإيمـان والوثاقـة، وهي سـب الإمام علي ولعنه، وتربية الأجيال، لأنه رأى أن تحريـف الـدين لا يمكن أن يتم في حضور اسـم الإمـام علي، ولا اسـم السـابقين من إخوانه.. لذلك بدأت معركته من هذا الباب.

وقــد ذكــر الطــبري أن معاويــة بن أبي ســفيان لمــا ولى المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة إحدى وأربعين دعـاه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أمـا بعـد فـإن لـذي الحلم قبـل اليوم ما تقرع العصا، وقد قال المتلمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما   وما علم الإنسان

وقد يجزي عنـك الحكيم بغـير التعليم، وقـد أردت إيصـاءك بأشـياء كثـيرة، فأنـا تاركهـا اعتمـاداً على بصـرك بمـا يرضـيني ويسـعد سـلطاني، ويصـلح بـه رعيـتي، ولسـت تاركـاً إيصـاءك بخصــلة: لا تتحم عن شــتم علي وذمــه، والــترحم على عثمــان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم، وتـرك الاســتماع منهم؛ وبــإطراء شــيعة عثمــان رضــوان اللــه عليــه، والإدنــاء لهم، والاســتماع منهم)، فقــال المغــيرة: (قــد جــربت

وجربت، وعملت قبلك لغيرك، فلم يذمم بي دفع ولا رفع ولا وضع، فستبلو فتحمد أو تذم)، قال: (بل نحمد إن شاء الله) [1]

وهنا بدأ المغيرة ينفذ مثله مثل سائر الولاة في الأقاليم المختلفة هذه السياسة، والتي يمكن اعتبارها أخطر ثورة مضادة للإسلام.. يقول الطبري: (أقام المغيرة على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً، وهو من أحسن شيء سيرةً، وأشده حباً للعافية، غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان، واللعن لهم، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له، والتزكية لأصحابه) [2]

وهنا يبدأ اختبار الوفاء.. أما الساقطون في هذا الاختبار، فقد راحوا يستعملون كل ما عندهم من دهاء وخداع لإرضاء الوالي والخليفة.. فكتبوا الأشعار، وسطروا الأخبار، ووضعوا الأحاديث، وفعلوا كلما يقربهم من السلطان، حتى الإمام علي إلى نكرة لا قيمة له في الدين، ولا أثر له في الصحبة.. بل اعتبروه ثقلا ووبالا على الأمة، وليس سفينة لنجاتها.

لكن حجر بن عدي ذلك الوفي لم يكن من هؤلاء، بل كان إذا سمع ذلك قال: (بل إياكم فذمم الله ولعن! ثم يقول، ويقول: (إن الله عز وجل يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: 135]، وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وأن من تزكون وتطرون أولى بالذم)

وحينذاك يرد المغيرة بقوة قائلا: (يا حجر، لقد رمي

[1] () تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (5/ 253)

[2] () المرجع السابق، (5/ 253)

بسهمك، إذ كنت أنا الوالي عليك، يا حجر ويحك! اتق السلطان، اتق غضبه وسطوته، فإن غضبة السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك كثيراً)

وهكذا كان ينهاه كل مرة إلى آخر إمارته، حيث قام المغيرة فقال في علي وعثمان كما كان يقول، وكانت مقالته ـ كما يذكر الطبري ـ: (اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، وأجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا، وحقن دماءنا، وقتل مظلوماً؛ اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالبين بدمه)، ثم يدعو على قتلته.

فقام حجر بن عدي، وقال بصوت عال: (إنك لا تدري بمن تولع من هرمك! أيها الإنسان، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنك قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين، وتقريظ المجرمين)

وحينها معه أكثر من ثلثي الناس يرددون: (صدق والله حجر وبر، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنا لا ننتفع بقولك هذا، ولا يجدي علينا شيئاً)

بعد تلك المقولة، واجتماع الناس عليها، دخل عليه أولئك المتاجرون بالدين المنعدمون للوفاء، وقالوا ـ يحرضون المغيرة ـ: (علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة، ويجترئ عليك في سلطانك هذه الجرأة! إنك تجمع على نفسك بهذا خصلتين: أما أولهما فتهوين سلطانك، وأما الأخرى فإن ذلك إن بلغ معاوية كان أسخط له عليه)

فقال لهم المغيرة: (إني قد قتلته؛ إنه سيأتي أميرٌ بعدي فيحسبه مثل فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند

أول وهلة فيقتله شر قتلة؛ إنه قد اقترب أجلي، وضـعف عملي، ولا أحب أن أبتـدئ أهـل هـذا المصـر بقتـل خيـارهم، وسـفك دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز في الـدنيا معاويـة، ويـذل يـوم القيامـة المغـيرة؛ ولكـني قابـلٌ من محسـنهم، وعـافٍ عن مسيئهم، وحامـدٌ حليمهم، وواعـظٌ سـفيههم، حـتى يفـرق بيـني وبينهم الموت، وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي)

بعده جاء زيـاد بن أبي سـفيان، فأقبـل حـتى دخـل القصـر بالكوفة، ثم صعد المنبر فحمد اللـه وأثـنى عليـه، ثم قـال: (أمـا بعد، فإنا قد جربنا وجربنا، وسسنا وساسنا السائسـون، فوجـدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله، بالطاعة اللينة المشبه سـرها بعلانيتهـا، وغيب أهلهـا بشـاهدهم، وقلـوبهم بألسـنتهم، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنـف، وإني واللـه لا أقـوم فيكم بـأمر إلا أمضـيته على أذلالـه، وليس من كذبة الشاهد عليهـا من اللـه والنـاس أكـبر من كذبـة إمـام على المنـبر)، ثم ذكـر عثمـان وأصـحابه فقـرظهم، وذكـر قتلته ولعنهم.

فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة، وقـد كـان زيادٌ قد رجع إلى البصرة وولي الكوفة عمرو بن الحريث، ورجع إلى البصرة فبلغه أن حجراً يجتمع إليـه شـيعة علي، ويظهـرون لعن معاويـة والـبراءة منـه، وأنهم حصـبوا عمـرو بن الحـريث، فشخص إلى الكوفة حتى دخلها، فأتى القصـر فدخلـه، ثم خـرج فصعد المنبر وعليه قباء سندس ومطرف خز أخضـر، قـد فـرق شعره، وحجر جالسٌ في المسجد حوله أصحابه أكـثر مـا كـانوا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد، فـإن غب البغي والغي وخيم، إن هـؤلاء جمـوا فأشـروا، وأمنـوني فـاجترأوا علي، وأيم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم)

وقال: (مـا أنـا بشـيء إن لم أمنـع باحـة الكوفـة من حجـر وأدعه نكالاً لمن بعده! ويل أمك يا حجر! سقط العشاء بك على سرحان)، ثم قال:

أبلغ نصيحة أن   سقط العشاء به

ثم إنـه كتب إلى معاويـة في شـأنه يستشـيره في كيفيـة التعامل معه، فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد، ثم احملــه إلي.

فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم حجـر أن يمنعـوه، فخشـي عليهم من الأذى، وهـو يعلم سـطوة معاويـة وعمالـه، فشـد في الحديد، ثم حمل إلى معاوية.

فلما دخـل عليـه قـال لـه معاويـة: أمـا واللـه لا أقيلـك ولا أستقيلك، أخرجوه فاضربوا عنقه، فأخرج من عنده، فقال حجـر للذين يلون أمره: (دعوني حتى أصـلي ركعـتين)؛ فقـالوا: صـل؛ فصلى ركعتين خفف فيهما، ثم قال ـ مثلما قال خبـاب ــ: (لـولا أن تظنوا بي غـير الـذي أنـا عليـه لأحببت أن تكونـا أطـول ممـا كانتا، ولئن لم يكن فيما مضى من الصـلاة خـيرٌ فمـا في هـاتين خير)

ثم قال لمن حضره من أهله: (لا تطلقـوا عـني حديـداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ألاقي معاوية غداً على الجادة)، ثم قــدم فضربت عنقه.

وقد ذكر ابن سعد أنهم لما حملوه إليها مع أصحابه ليقتلوه فيها، قال حجر: ما هذه القرية؟ قالوا: عذراء. قال: (الحمد لله. أما والله إني لأول مسلم نبح كلابها في سـبيل اللـه، ثم أتي بي اليوم إليها مصفودا)، ثم دفع كل رجل منهم إلى رجـل من أهـل الشام ليقتلـه. ودفـع حجـر إلى رجـل من حمـير فقدمـه ليقتلـه

فقال: يا هؤلاء دعـوني أصـلي ركعـتين. فـتركوه فتوضـأ وصـلى ركعـتين فطـول فيهمـا فقيـل لـه: طـولت. أجـزعت؟ فانصـرف فقال: (ما توضأت قط إلا صليت. ومـا صـليت صـلاة قـط أخـف من هذه. ولئن جزعت لقد رأيت سيفا مشـهورا وكفنـا منشـورا وقبرا محفورا) [1]

وقد كانت علاقتـه بالإمـام علي أكـبر من أن توصـف، فقـد كانت كل أحاديثه عنـه، وقـد روى ابن سـعد عن غلام لحجـر بن عدي الكندي قال: قلت لحجـر إني رأيت ابنـك دخـل الخلاء ولم يتوضـأ. قـال: نـاولني الصـحيفة من الكـوة. فقـرأ: (بسـم اللـه الرحمن الرحيم. هـذا مـا سـمعت علي بن أبي طـالب يـذكر أن الطهور نصف الإيمان)، ثم علق عليـه ابن سـعد بقولـه: (وكـان ثقة معروفا ولم يرو عن غير علي شيئا) [2]

وقد ذكر الطبري أن معاوية لقي عائشة بمكة، فقالت: (يـا معاوية، أين كان حلمك عن حجر؟)، فقال لها: (يا أم المؤمـنين، لم يحضرني رشيد!)، قال ابن سيرين: (فبلغنا أنـه لمـا حضـرته الوفاة جعل يغرغر بالصـوت ويقـول: يـومي منـك يـا حجـر يـومٌ طويل!)

---

1 () الطبقات الكبرى (6/ 244)

2 () الطبقات الكبرى (6/ 244)

رسالة إلى الأصحاب الحكماء

سادتي يا أصحاب رسول الله ﷺ الحكماء العلماء الذين ورثوا من علوم النبوة ما دلهم على السراط المستقيم وسفينة النجاة، فلم يغرقهم طوفان الفتن، ولم تنهد عليهم جدرانها، بل ظلوا صامدين واقفين في وجهها، متحدين كل ألوان الطغيان التي سببها الخذلان والخيانة.

ماذا عساي أقول لكم، وأنتم الذين عزلتم، وعزلت أحاديثكم بعد أن وضع الجبروت والطغيان الكثير من القواعد الكاذبة التي تستأصلكم، وتجعلكم كآحاد الناس، لا فرق بينكم وبينهم.

فمع أن النصوص المقدسة الكثيرة تشير بل تصرح إلى الفروق الشديدة بين أهل العلم، وغيرهم، إلا أن النصوص التي وضعتها الفئة الباغية راحت ترد ذلك كله في حقكم، لتجعل من جميع الصحابة علماء وعدولا وفقهاء.. وكل من يفتي بفتيا تعتبر رأيا من آراء الشريعة، وكل من روى منهم حديثا، يرفع إلى رسول الله ﷺ حتى ولو لم يسمعه، وحتى لو لم يتوفر فيه أي شرط من شروط العدالة.

ولم يكتفوا بذلك التمييع في حقكم، بل راحوا يضعون الأحاديث في اعتبار كل من رأى رسول الله ﷺ نجما من النجوم، يمكن الاهتداء به، والسير على منهجه، وهم يعلمون أن رسول الله ﷺ أخبر أن فيكم المنافقون والناكثون والقاسطون والمارقون وكل أصناف المنحرفين.. بل إن رسول الله ﷺ ذكر تلك الأسماء، وحذر منها، وأعطى علومها لخاصة أصحابه.

لكن الأمـة عـزلتهم، واعتـبرت أمثـال تلـك الأحـاديث لغـوا وفتنــة مــع كــونهم يرووﻧﻬــا عن محــدثيهم ورجــالهم الــذين يعتبرونهم، لكن الورع البارد جعلهم يقصـون كـل حـديث يتنـاول تلـك الأصـنام الـتي صـاروا يعبـدونها من دون اللـه، أو يؤولونـه لينسجم مع أهوائهم.

ولو أنهم عـادوا إلى اللـه ورسـوله لعرفـوا الأمـر، وفقهـوا حقيقة ما جرى.. فأول مـا يفعلـه الشـيطان إذا أراد عـزل أهـل العلم والحكمـة الـذين يعلم أنـه لا يسـتطيع عـزلهم، أن ينشـئ معهم وبجانبهم من علماء الضرار ما يعزلهم به.

هكــذا فعــل مــع الســامري حين ألقى وساوســه لبــني إسرائيل، باعتباره صاحب موسى عليه السـلام الخـاص، فاتبعـه الإسرائيليون، وتركوا هارون.

وهكذا فعـل معكم، حين وضـع بجـانبكم الكثـير من علمـاء السوء الذين باعوا ذممهم، واتبعوا أهواء الدنيا، وراحـوا يضـعون الأحاديث الكاذبة التي ملأت دين الله تحريفا وانحرافا.

ولو أن الصادقين اتبعوا ما أخبر به رسول الله ﷺ من تلـك الأحاديث تبين منابع الفتنة، لما وصل بهم الأمر إلى تلك الحال.

ولهـذا كـانت أحـاديثكم سـادتي تريـاق لمن أصـابته تلـك الأدواء.. وكـانت أحـاديثكم هدايـة لمن يريـد أن يـركب سـفينة النجـاة.. فائـذنوا لي في الحـديث إلى ثلاثـة منكم لـو أن الأمـة رجعت لهم، وسمعت مـواقفهم وأحـاديثهم الـتي ترويهـا لكـانت كافيـة في صـدهم عن الغي الـذي أوصـلتهم إليـه الفئـة الباغيـة ومن أنتجها وأسس لها.

1. حذيفة بن اليمان:

وأولهم أنت يا أبا عبد الله، يا حذيفة بن اليمان، يا من شهد لك الجميع بكونك صاحب علوم الفتن، وأسبابها، وأخبارها، وأنك المرجع في التعرف على النفاق وأهله..

وقد قال فيك أبو نعيم الأصفهاني الذي يقبلونـه، ويحـدثون عنه: (ومنهم العارف بالمحن وأحوال القلـوب، والمشـرف على الفتن والآفات والعيوب، سأل عن الشر فاتقـاه، وتحـرى الخـير فاقتنـاه، سـكن عنـد الفاقـة والعـدم، وركن إلى الإنابـة والنـدم، وسبق رتق الأيام والأزمان، أبو عبد الله حذيفة بن اليمان) [1]

وقال فيك الزركلي: (حذيفة بن اليمان صحابي، من الـولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره، ولما ولي عمـر سـأله: أفي عمـالي أحـد من المنـافقين؟ فقـال: نعم، واحـد. قـال: من هـو؟ قـال: لا أذكـره، وحدث حذيفة بهذا الحديث بعد حين فقال: وقد عزله عمر كأنما دل عليه) [2]

وقال فيك قبلهم جميعا الإمام علي، وقد سئل عنـك: (ذاك امرؤ علم أسماء المنافقين، إن تسـألوه عن حـدود اللـه تجـدوه بها عالما)[3]

بل كان الصحابة جميعا يقـرون لـك بـذلك، ويسـألونك عن علومه، وقد روي أنك بينما كنت جالسا عنـد عمـر إذ قـال: أيكم

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 270)

2() الأعلام، ج 2، ص 171.

3() الاحتجاج، 302.

يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ فقلت: (فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فقال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر، فقلت: (ليس عليك منها بأس، إن بينك وبينها بابا مغلقا)، فقال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ فقلت: لا بل يكسر، فقال عمر: (إذا لا يغلق أبدا) [1]

بل كنت تذكر ذلك عن نفسك، وتدعوهم إلى الاستفادة منك حتى يجنبوا أنفسهم الوقوع في الفتن، وقد قلت تذكر لهم ذلك، ومصادر علمك به: (لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره علمه من علمه وجهله من جهله إن كنت لأرى الشيء قد نسيت فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه) [2]

وكنت تقول لهم: (والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسر إلي في ذلك شيئا لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلسا أنا فيه عن الفتن: فقال رسول الله ﷺ وهو يعد الفتن: منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئا، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار)، ثم تقول لهم: (فذهب أولئك الرهط كلهم غيري) [3]

1() رواه البخاري (7096) ومسلم(144) وأحمد (5 / 401) وابن أبي شيبة (7 / 449) والطيالسي (1 / 55) والترمذي (2258) وابن ماجه (3955) والنسائي في الكبرى (1 / 144)وابن حبان (13 / 304) والأوسط للطبراني(2 / 215)

2() رواه البخاري(6604) ومسلم (2891) وأبو داود(4240) والداني مختصرا في السنن الواردة في الفتن (181) وأحمد (5 / 385) والطيالسي (1 / 58) وابن حبان (15 / 5) والحاكم (4 / 533)

3() رواه مسلم (2891) و الحاكم (4 / 518)

بل كنت ـ سيدي ـ تـذكر لهم بعض الأحـداث قبـل وقوعهـا حتى يتيقنوا من صدق قولك، فقد روي عن بعضـهم قـال: جئت يوم الجرعة فإذا رجل جالس فقلت: ليهراقن اليوم ههنـا دمـاء. فقـال ذاك الرجـل: كلا واللـه قلت: بلى واللـه. قـال: كلا واللـه قلت: بلى والله قال: كلا والله إنه لحديث رسول الله ﷺ حدثنيه قلت: بئس الجليس لي أنت منذ اليـوم تسـمعني أخالفـك، وقـد سمعته من رسول الله ﷺ فلا تنهاني؟ ثم قلت: ما هذا الغضب؟ فأقبلت عليه أسأله فإذا الرجل حذيفة[1].

وعنــدما كـانوا يطالبونــك بالحــديث عن كــل الفتن الــتي تعرفها، تبين لهم صعوبة ذلك على عقـولهم، وأنهم لا يطيقونـه، ومن أحاديثك في ذلـك قـول: (لـو حـدثتكم لافـترقتم على ثلاث فرق فرقة تقاتلني، وفرقة لا تنصرني، وفرقة تكـذبني، أمـا إني سأحدثكم ولا أقول قـال ﷺ.. أرأيتكم لـو حـدثتكم أنكم تأخـذون كتابكم فتحرقونه وتلقونه في الحشوش صدقتموني)

قــالوا: ســبحان اللــه ويكــون هــذا؟.. فقلت: أرأيتكم لــو حدثتكم أنكم تكسرون قبلتكم صدقتموني..

قــالوا: ســبحان اللــه ويكــون هــذا؟.. فقلت: أرأيتكم لــو حــدثتكم أن أمكم تخــرج في فرقــة من المســلمين وتقــاتلكم صدقتموني؟ قالوا: سبحان الله ويكون هذا[2].

وحدث الزبـير بن عـدي عنـك أنـك قلت لرجـل: مـا فعلت أمـك؟.. فقـال: قـد مـاتت، فقلت: أمـا إنـك سـتقاتلها، فعجب

1() رواه مسلم (2893) وأحمد (5 / 399) والحاكم (4 / 519)

2() رواه ابن أبي شيبة (7 / 479)

الرجل من ذلك حتى خرجت عائشة[1].

وكنت تقول لهم: (لو شئت لحدثتكم بألف كلمة تصـدقوني عليها وتتـابعوني وتنصـرونني، ولـو شـئت لحـدثتكم بـألف كلمـة تكـذبونني عليهـا وتجـانبونني وتسـبونني، وهن صـدق من اللـه ورسوله)[2]

لقد كانت كلماتك سيدي نـورا يمكن لمن يريـد أن يعيشـها أن يكتشـف كـل تلـك الأهـواء الـتي وضـعتها الفئـة الباغيـة في الدين، فحولته من دين اللـه إلى دين البشـر، ومن دين العدالـة والرحمة إلى دين الجور والظلم.

لقـد كنت تصـرخ في ذلـك العصـر محـذرا من الفتن، وأسبابها، على الرغم من أن العمـر لم يمتـد بـك، لـترى أوجهـا، ولكن مبادئها كانت تظهر أمامك.

وكنت تحذر من الاغترار بأولئك الانتهازيين الـذين يظهـرون الإيمان، ويبطنون الكفر، طلبا لتحقيق أهوائهم..

وكنت تخبرهم بـأن تحريـف الـدين لن يـأتي دفعـة واحـدة، وإنما يستعمل الشيطان كل كيده، ابتداء من أمـور بسـيطة قـد يستهين الناس بها، فقد روي أنك سئلت: قيـل يـا أبـا عبـد اللـه أكفـر بنـو إسـرائيل في يـوم واحـد؟.. فقلت: (لا ولكن عرضـت عليهم فتنة فأبوا أن يركبوهـا، فضـربوا عليهـا حـتى ركبوهـا، ثم عرضت عليهم أكـبر منهـا، فقـالوا: لا نـركب هـذه أبـدا فضـربوا عليها حتى ركبوها فانسـلخوا من دينهم كمـا ينسـلخ الرجـل من

1() رواه ابن أبي شيبة(7 / 535)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 275)

قميصه) [1]

لذلك كنت ترد بقـوة على أولئـك الـذين توهمـوا أن سـوق النفاق قـد كسـد منـذ تـوفي رسـول اللـه ﷺ، وأن النـاس كلهم صاروا بطرفة عين عدولا وصالحين، وكأن وفاة رسـول اللـه ﷺ هي السبب في صلاحهم، مع أن وفاة رسـول اللـه ﷺ هي الـتي أطلقت عقالهم، وحررتهم من ذلك الخوف الـذي كـان يعـتريهم من الفضيحة.

لقـد كنت تقـول لهم، ولنـا معهم: (المنـافقون اليـوم شـر منهم على عهد رسول الله ﷺ، كانوا يومئذ يكتمونـه وهم اليـوم يظهرونه) [2]

وكنت تحذر من تسلل المنافقين إلى الغزوات لتحويل الجهاد في سبيل الله إلى وسيلة للظلم والمغنم وتشويه الإسلام، فقال: (إنكم ستعانون في غزوكم بالمنافقين) [3]

ولذلك كنت مرجعا في التعرف على المنافقين، وقد حـدث زيد بن وهب قال: (مـات رجـل من المنـافقين فلم يصـل عليـه حذيفة.. فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم فقال له عمر: بالله منهم أنا قال: لا ولن أخبر به أحدا بعدك)[4]

1() شعب الإيمان(5 / 442)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 280)

3() سنن البيهقي الكبرى(9 / 36)

4() رواه ابن أبي شيبة(7 / 481)

وعن أبي البختري قال: (قال رجل: اللهم أهلك المنافقين فقال حذيفة: (لو هلكوا ما انتصفتم من عدوكم) [1]

بل كنت تعتبر ما آل إليه حال المسلمين ردة وكفرا، وليس مجرد نفاق، فقد روي عنك قولك: (ذهب النفاق فلا نفـاق، إنمـا هو الكفر بعد الإيمان)[2]

وحدث بعضهم عنـك، فقـال: كنـا مـع حذيفـة فأخـذ حصـى فوضـع بعضـه فـوق بعض ثم قـال لنـا: انظـروا مـا تـرون من الضوء؟ قلنا نرى شـيئا خفيـا قـال: واللـه لـتركبن الباطـل على الحق حتى لا ترون من الحق إلا ما ترون من هذا[3].

وحدث آخر عنك، فقـال: ليوشـكن أن يصـب عليكم الشـر من السماء حتى يبلغ الفيافي. قال: قيل: وما الفيافي يا أبا عبد الله؟ قال: الأرض القفر[4].

وكنت لا تستثني من ذلك أحـدا.. لا العلمـاء.. ولا الأمـراء.. لأنك تعلم أن كليهما تجار في سوق الفتن.. أمـا العلمـاء، فكنت تقول لهم بكل صراحة: (يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموه لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن أخذتم يمينا وشـمالا لقـد

1() رواه ابن أبي شيبة(7 / 481)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 280)

3() رواه ابن أبي شيبة (7 / 482)

4() ابن أبي شيبة (7 / 482)

ضللتم ضلالا بعيدا)[1]

وأما الأمراء، فكنت تقول عنهم: (ليكـونن عليكم أمـراء، أو أمير، لا يزن أحدهم عند الله يوم القيامة قشرة شعيرة)[2]

وهكـذا كنت تتـألم لمعـاني الـدين وقيمـه وحقائقـه، وهي تتساقط أمام عينيك، فقد كنت تقول واصـفا ومحـذرا: (أول مـا تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة) [3]

وكنت تقـول لهم: (أول مـا تفقـدون من دينكم الخشـوع، وآخـر مـا تفقـدون من دينكم الصـلاة، ولتنقضـن عـرى الإسـلام عروة عروة، وليصلين النساء وهن حيض، ولتسـلكن طريـق من كان قبلكم حذو القـذة بالقـذة وحـذو النعـل بالنعـل لا تخطئـون طريقهم) [4]

وعندما رآك بعضهم تكثر من الحديث عن النفاق والتحـذير منه سألك عن المنافق، فقلت: (الذي يصـف الإسـلام ولا يعمـل به)[5]

---

1 () البخاري (7282) وابن أبي شيبة (7 / 139)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 280)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 281)

4 () رواه الحاكم (4 / 516) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي

5 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 282)

وكنت تخـبرهم عن مصـدر علمـك بعلـوم الفتن والنفـاق، وأنها حرصك الشـديد على نقـاء الإسـلام وصـفائه، ولـذلك كنت تسأل رسول الله ﷺ عن الشر أكثر من سـؤالك لـه عن الخـير، لأن الشيطان قد يسرب من الشر ما يحبط كـل عمـل، ويفسـد كل خير، مثلما يفعل السم القليل مع الطعام الكثير.

لقد كنت تصيح فيهم قـائلا: (يـا أيهـا النـاس، ألا تسـألوني؟ فإن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، أفلا تسألون عن ميت الأحياء؟ فقال: إن اللـه تعـالى بعث محمدا ﷺ فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفـر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحـيي بـالحق من كـان ميتـا، ومـات بالباطـل من كـان حيـا، ثم ذهبت النبـوة فكـانت الخلافة على منهاج النبوة، ثم يكون ملكا عضوضـا، فمن النـاس من ينكر بقلبه ويده ولسـانه والحـق اسـتكمل، ومنهم من ينكـر بقلبه ولسانه كافا يده وشعبة من الحـق تـرك، ومنهم من ينكـر بقلبه كافا يده ولسـانه وشـعبتين من الحـق تـرك، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه فذلك ميت الأحياء)[1]

وكنت تتعجب من الـذين يسـكتون من التحـذير من أئمـة الفتن مع علمهم بهم، فتقول: (والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسـوا؟ واللـه مـا تـرك رسـول اللـه ﷺ من قائـد فتنـة إلى أن تنقضي الـدنيا يبلـغ من معـه ثلثمائـة فصـاعدا إلا قـد سـماه لنـا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته) [2]

---

[1] () رواه أحمد (5 / 404)

[2] () رواه أبو داود (4243)

وكنت تحدثهم عن دور قريش في الفتنة، فتقول: (والله لا تدع مضر عبدا لله مؤمنا إلا فتنوه أو قتلوه أو يضربهم الله والملائكة والمؤمنون حتى لا يمنعوا ذنب تلعة)، فقال لك بعضهم: أتقول هذا يا عبد الله وأنت رجل من مضر؟ فقلت: (لا أقول إلا ما قال رسول الله ﷺ)[1]

وتقول لهم: (لتضربن مضر عباد الله حتى لا يعبد لله اسم وليضربنهم المؤمنون حتى لا يمنعوا ذنب تلعة) [2]

وكنت تذكر لهم رؤوس الفتنة الذين لم يقتلوا مع ما ورد في الأمر بذلك، فقد حدث زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال: (ما بقي من أصحاب هذه الآية: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة: 12] إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد ﷺ تخبروننا فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال: (أولئك الفساق أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده) [3]

وعندما سئلت عن قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة: 12]، قلت: (لا عهد لهم.. ما قوتلوا بعد) [4]

1() رواه ابن أبي شيبة (7 / 482) وأحمد (5 / 395) والحاكم (4 / 517) والطبراني في الأوسط (6 / 345)

2() رواه أحمد (3 / 86)

3() رواه البخاري (4658)

4() الحاكم (2 / 362) وصححه ووافقه الذهبي

وكنت تحذرهم من ذلك الموقف السلبي منهم، والذي كان سببا في حصول الفتنة القادمة، وهو ذلك الموقف الذي لا يقـف مع الباطل، ولكنه يخذل الحـق، ثم يسـتعمله الباطـل بعـد ذلـك وسـيلة لضـرب الحـق، ثم يضـربه كمـا يضـرب الحـق، وكنت تحدثهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: (والذي نفسي بيده لتـأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن اللـه أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[1]

وكنت تصف لهم التاريخ الإسلامي بدقـة، وكأنـك تـراه رأي العين، وقد كان من أوصافك له ذلك الحديث الذي لا يمكن لأحد يريد أن يعرف القراءة النبوية لحركة التـاريخ أن يتجاهلـه، فقـد حدث بعضهم يذكر وصـف حذيفـة للفتن الأولى، فقـال: قـدمت الكوفة فدخلت المسجد فإذا فيه حلقـة كأنمـا قطعت رؤوسـهم يستمعون إلى حديث رجل، فقمت عليهم فقلت: من هذا؟ قيل: حذيفـة بن اليمـان، فـدنوت منـه فسـمعته يقـول: كـان النـاس يسـألون رسـول اللـه ﷺ عن الخـير، وكنت أسـأله عن الشـر، فعرفت أن الخير لم يسبقني، قلت: يـا رسـول اللـه: أبعـد هـذا الخير شر؟ قال: (يا حذيفة، تعلم كتاب الله، واتبع ما فيه) قالهـا ثلاثا.. قلت: يا رسول الله، هل بعد هذا الخير شـر؟ قـال: (فتنـة وشر.. وهدنة على دخن).. قلت: يا رسول الله، مـا الهدنـة على دخن؟ قال: (لا ترجع قلوب أقوام إلى ما كـانت عليـه)، ثم قـال رسول الله ﷺ: (ثم تكون فتنة عمياء صـماء، دعاتـه ضـلالة)، أو قال: (دعاته النار، فلأن تعض على جذل شجرة خير لـك من أن

[1] () الترمذي (2169) وحسنه وأحمد (5 / 388) والطيالسي (1 / 59)

تتبع أحدا منهم) [1]

وفي حـديث آخـر رحت تـذكر حركـة التـاريخ في مـداها الأوسع، فقلت: (كان الناس يسألون رسول اللـه ﷺ عن الخـير، وكنت أسـأله عن الشـر مخافـة أن يـدركني، فقلت: يـا رسـول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهـذا الخـير، فهـل بعـد هذا الخـير شـر؟ قـال: (نعم)، فقلت: هـل بعـد ذلـك الشـر من خير؟ فقال: (نعم، وفيه دخن)، فقلت: ومـا دخنـه؟ قـال: (قـوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغـير هـديي، تعـرف منهم وتنكـر)، فقلت: هـل بعـد ذلـك الخـير من شـر؟ قـال: (نعم، دعـاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليهـا قـذفوه فيهـا). فقلت: يـا رسـول اللـه: صـفهم لنـا، قـال: (نعم، هم قـوم من جلـدتنا يتكلمـون بألسنتنا). قلت: يا رسـول اللـه فمـا تـأمرني إن أدركـني ذلـك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (اعتزل تلـك الفـرق كلهـا، ولـو أن تعض على جذل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[2]

وكنت تذكر لهم أنـواع الفتن، وتحـذرهم من الوقـوع فيهـا، وتقـول لهم: (ثلاث فتن والرابعـة تسـوقهم إلى الـدجال: الـتي ترمي بالرضف، والتي ترمي بالنشف، والسوداء المظلمـة الـتي تموج كموج البحر، والرابعة تسوقهم إلى الدجال)[3]

وكنت تقول: (أتتكم الفتن ترمي بالنشـف، ثم أتتكم تـرمي

---

1 () رواه أبو داود (4246) وأحمد (5 / 386) وابن حبان (13 / 299)

2 () رواه البخاري (3606) ومسلم (1847) وابن ماجه (3979) والحاكم (4 / 197)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 273)

بالرضف، ثم أتتكم سوداء مظلمة)[1]

وكنت تذكر لهم أن هناك فتنا كثيرة لا تقل عن الدجال في انتظارهم، فعن أبي عمرو الشيباني قال: كنت عند حذيفة جالسا إذ جاء أعرابي حتى جثا بين يديه فقال: أخرج الدجال؟ فقال له حذيفة: (وما الدجال إن ما دون الدجال أخوف من الدجال إنما فتنته أربعون ليلة) [2]

وكنت تذكر لهم صفات المتعرضين للفتن، وسبب تعرضهم لهـا، فتقـول: (إن الفتنـة وكلت بثلاث: بالحـاد النحريـر الـذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف، وبالخطيب الـذي يـدعو إليهـا، وبالسيد، فأما هذان فتبطحهمـا لوجوههمـا، وأمـا السـيد فتبحثـه حتى تبلو ما عنده)[3]

وكنت تحـذرهم من الأمـراء والانصـياع لهم، فـأبوابهم هي أبواب الفتن، وتقول: (إياكم ومواقف الفتن) قيل: ومـا مواقـف الفتن يا أبا عبد الله؟ قال: (أبواب الأمـراء، يـدخل أحـدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه)[4]

وكنت تقــول لهم: (لا يمشــين رجــل منكم شــبرا إلى ذي سلطان ليذله فلا والله لا يـزال قـوم أذلـوا السـلطان أذلاء إلى

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 273)

2 () ابن أبي شيبة (7 / 493)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 274)

4 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 277)

يوم القيامة)[1]

وكنت تقول لهم: (اتقوا أبواب الأمراء فإنهـا مواقـف الفتن ألا أن الفتنة شبيهة مقبلة وتبين مدبرة)[2]

وكنت تعلم أن الإرهاب سيغزو هذه الأمة، وسيقتل النــاس لأجل معتقداتهم، ولـذلك كنت تحـذر من اسـتعمال السـيف في الفتنة، وتقول: (إن مما أتخـوف عليكم رجلا قـرأ القـرآن، حـتى إذا رئيت عليه بهجته، وكان رداء للإسلام أعزه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وخرج على جاره بالسـيف ورمـاه بالشـرك)، قـال: قلت: يـا رسـول اللـه أيهمـا أولى بالشـرك؟ المرمي أم الرامي؟ قال: (لا بل الرامي)[3]

وكنت تقول ناصحا: (إيـاكم والفتن، لا يشـخص إليهـا أحـد، فوالله ما شخص فيها أحد إلا نسفته كما ينسف السـيل الـدمن، إنها مشبهة مقبلة حتى يقول الجاهل: هذه تشبه، وتبين مــدبرة، فإذا رأيتموها فاجثموا في بيوتكم، وكســروا ســيوفكم، وقطعـوا أوتاركم)[4]

وتقول: (إن للفتنة وقفات وبغتات، فمن استطاع أن يموت

---

1 () ابن أبي شيبة(7 / 487)

2 () ابن أبي شيبة(7 / 528)

3 () معرفة الصحابة لأبي نعيم (2/ 690)

4 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 273)

في وقفاتها فليفعل)[1]

وتقول: (ليأتين على الناس زمـان لا ينجـو فيـه إلا من دعـا بدعاء كدعاء الغريق)[2]

وكنت تدعوهم إلى العودة إلى القرآن الكريم لتمييز الحـق من الباطل عندما يشتبهان بسـبب الفتن، فقـد سـألك بعضـهم، فقال: إن الفتنة وقعت، فحدثني ما سـمعته، قـال: (أولم يـأتكم اليقين، كتاب الله عز وجل؟)[3]

وأخبرتهم أنك سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هل بعد هذا الخير الذي نحن فيه من شر نحذره؟ قال لك: (يا حذيفة عليك بكتاب الله فتعلمه واتبع ما فيه خيرا لك)[4]

ولم تكن تكتفي ـ سيدي ــ بـالفتن العامـة، بـل كنت تـذكر الفتن الخاصة بكل إنسان، ذلك أنه لولا ذلك النوع من الفتن مـا حلت الفتن العامة، فمما لا نزال نحفظه من حكمك قولـك: (إن الفتنة تعرض على القلـوب، فـأي قلب أشـربها نكتت فيـه نكتـة سوداء، فإن أنكرها نكتت فيه نكتـة بيضـاء، فمن أحب منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر فإن كان يـرى حرامـا مـا كـان

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 274)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 274)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 274)

4 () رواه ابن حبان (1 / 323)

يراه حلالا، أو يرى حلالا ما كان يراه حراما، فقد أصـابته الفتنـة)[1]

وكنت تقول: (إذا أذنب العبـد نكت في قلبـه نكتـة سـوداء، فإن أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، حتى يصـير قلبـه كالشـاة الربداء)[2]

وكنت تقـول: (القلب بمنزلـة الكـف فـإذا أذنب ينقبض ثم يذنب فينقبض حتى يجتمع؛ فإذا اجتمع طبع عليه فإذا سمع خيرا دخل في أذنيه حتى يأتي قلبه فلا يجد منه مدخلا فذلك قوله عز وجـــل: ﴿كَلَّا بَـــلْ رَانَ عَلَى قُلُـــوبِهِمْ مَـــا كَـــانُوا يَكْسِـــبُونَ ﴾ [المطففين: 14])[3]

وكنت تقـول: (القلـوب أربعــة: قلب أغلــف، فــذلك قلب الكـافر، وقلب مصـفح، فـذلك قلب المنـافق، وقلب أجـرد فيـه سراج يزهر، فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل القرحة يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب)[4]

وكنت تقول: (والذي لا إله غـيره، إن الرجـل ليصـبح يبصـر

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 272)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 273)

3 () شعب الإيمان(4 / 441)

4 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 276)

ببصره، ويمسي ما ينظر بشفر)[1]

وكنت تـذكر لهم بـأن للفتن في المتعرضـين لهـا سـطوة كســـطوة الخمـــر، تمنعهم من البحث والتحقيـــق، وتجعلهم كالسـكارى يتصـرفون من غـير وعي، وقـد قلت في ذلـك: (مـا الخمر صرفا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة)[2]

وكنت تقول لهم: (إن أخوف ما أتخوف عليكم أن تؤثروا ما ترون على ما تعلمون وأن تضلوا وأنتم لا تشعرون) [3]

وقد سئلت حينها أي الفتنة أشد؟ فقلت: (أن يعرض عليـك الخير والشر لا تدري أيهما تتبع)[4]

وكنت تذكر لهم اختلال المـوازين أيـام الفتن، حيث يقـرب المنحرفون، ويطرد المتقون الصالحون، وممـا نقلتـه عن النـبي ﷺ في ذلك قولك: (حدثنا رسول الله ﷺ حـديثين رأيت أحـدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجـال ثم علموا من القـرآن ثم علمـوا من السـنة، وحـدثنا عن رفعهـا قال: ينام الرجل النومـة فتقبض الأمانـة من قلبـه فيظـل أثرهـا مثــل أثــر الــوكت ثم ينــام النومــة فتقبض فيبقى أثرهــا مثــل المجل ؛ كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتــبرا ؛ وليس

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 273)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 274)

3() ابن أبي شيبة(7 / 503)

4() ابن أبي شيبة(7 / 503)و الفتن للمروزي(37)

فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحـدهم يـؤدي الأمانـة فيقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ؛ وما في قلبه مثقال حبة خـردل من إيمـان.. ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسـلما رده علي الإسلام، وإن كان نصرانيا رده علي ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا.) [1]

وكنت تقول لهم: (لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع)[2]

وكنت تذكر لهم كيـف يسـتولي هـذا الصـنف على أراضـي المستضعفين وأمـوالهم، فقلت: (لكـأني بـراكب قـد أنـاخ بكم، فقـــال: الأرض أرضـــنا، والمـــال مالنـــا، فحـــال بين الأرامـــل والمساكين، وبين المال الذي أفاء الله على آبائهم)[3]

هذه سيدي بعض أحاديثك في الفتن.. وهي كافية لمن يريد أن يتخلص من كـل تلـك الشـوائب الـتي علقت بالـدين، والـتي اعتـبرت مـا سـمته [عهـد السـلف] عهـدا معصـوما، ولـو أنهم استمعوا لأحاديثك، لعرفوا أن ذلك الشيطان استعمل ذلك العهد كل قواه لتحريف الـدين، وتحويلـه من دين إلهي مملـوء بـالقيم الرفيعة إلى دين بشري مملوء بالخرافات والدجل والأساطير.

لكنك مع كل تلك الأحـاديث ــ سـيدي ــ كنت تـذكر لهم أن

---

1 () رواه البخاري (6497) واللفظ له ومسلم (143) وأحمد (5 / 383) وعبد الرزاق (11 / 157) والطيالسي (1 / 57) والترمذي (2179) وابن ماجه (4053)و الحميدي في مسنده (1 / 211) وابن حبان (15 / 164)والبيهقي في الكبرى (10 / 122)

2 () معرفة الصحابة لأبي نعيم (2/ 691)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 275)

الله تعالى لن يـترك الأمـة للمحـرفين فقـط، بـل إن الصـالحين المحافظين على العهود موجودون في كل الأزمنة، حتى يكونـوا ملاذا للنجاة، فقـد رويت عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال لـك: (يـا حذيفـة إن في كـل طائفـة من أمـتي قومـا شـعثا غـبرا، إيـاي يريدون، وإياي يتبعـون، وكتـاب اللـه يقيمـون، أولئـك مـني وأنـا منهم، وإن لم يروني) [1]

أما عن حياتك سيدي.. فقد كنت كسائر الصحابة المنتجبين تمارس كل أدوارك التي تطلب منك، وتحضر كـل المشـاهد[2]، حتى أنك قمت بسرية لوحدك، وقد كانت أخطر سرية، حصـلت في ذلك اليوم الذي وصفه الله تعالى بقولـه: ﴿ إِذْ جَـاءُوكُمْ مِنْ فَـوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُـوبُ الْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَـا (10) هُنَالِـكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: 10، 11]

وقد قصصت نبأ تلك السرية التي قمت بهـا لوحـدك جوابـا

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 64)

2 () قال في الطبقات الكبرى: لم يشهد حذيفـة بـدرا وشـهد أحـدا هـو وأبـوه وأخـوه صفوان بن اليمان، وقتل أبوه يومئذ. وشهد حذيفة الخندق وما بعد ذلك من المشـاهد مـع رسول الله ﷺ ، الطبقات الكبرى (7/ـ 230)، وقد ذكر حذيفة سـبب عـدم شـهوده بـدرا، فقال: (ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت وأبي حسيل، فأخذنا كفـار قـريش، فقـالوا إنكم تريدون محمدا ، فقلنا ما نريده، وما نريد إلا المدينة فأخذوا منـا عهـد اللـه وميثاقـه، لننصرفن إلى المدينـة، ولا نقاتـل معـه، فأتينـا رسـول اللـه(ص) فأخبرنـاه الخـبر، فقـال: انصـرفا نفي لهم بعهـدهم، ونسـتعين اللـه عليهم) المـزي، تهـذيب الكمـال في أسـماء الرجال، ج 5، ص 497.

لمن قال لك: (يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟)، فقلت: نعم يـا بن أخي، فقـال: فكيـف كنتم تصـنعون؟ فقلت: والله لقد كنـا نجهـد، فقـال: واللـه لـو أدركنـاه مـا تركنـاه على الأرض ولجعلناه على أعناقنا..

حينهـا رحت تقص عليـه ذلـك الموقـف الـذي حصـل لـك، فقلت: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مـع رسـول اللـه ﷺ بالخنـدق وصلى رسول الله ﷺ من الليل هويـا ثم التفت إلينـا فقـال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم يشترط لـه رسـول اللـه ﷺ إنه يرجع أدخله الله الجنة فما قام رجل، ثم صـلى رسـول اللـه ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع يشرط له رسول الله ﷺ الرجعـة أسـأل الله أن يكون رفيقي في الجنـة؛ فمـا قـام رجـل من القـوم مـع شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني. فقال: يـا حذيفة فاذهب فادخل في القوم فـانظر مـا يفعلـون ولا تحـدثن شيئا حتى تأتينا.. فذهبت فدخلت في القوم والريح، وجنـود اللـه تفعل ما تفعل لا تقر لهم قدر ولا نار ولا بناء، فقـام أبـو سـفيان بن حـرب فقـال: يـا معشـر قـريش لينظـر امـرؤ من جليسـه، فأخـذت بيـد الرجـل الـذي إلى جنـبي فقلت: من أنت قـال: أنـا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشـر قـريش إنكم واللـه ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع وأخلفتنا بنو قريظة بلغنـا منهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنـا نـار ولا يستمسـك لنـا بنـاء فـارتحلوا فـإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهـو معقـول فجلس عليـه ثم ضـربه فـوثب على ثلاث فمـا أطلـق عقالـه إلا وهـو قـائم، ولـولا عهـد رسـول اللـه ﷺ لا تحـدث شـيئا حـتى تـأتيني ثم شـئت لقتلتـه بسهم.. ثم رجعت إلى رسول اللـه ﷺ وهـو قـائم يصـلي؛ فلمـا

رآني أدخلـني إلى رحلـه وطـرح علي طـرف المـرط ثم ركـع وسجد، وإنه لفيه فلما سلم أخبرته الخبر[1].

وهكذا حصل لك في هذا الحديث، وباختيار رسـول اللـه ﷺ لـك، البشـارة العظيمـة، لا بالجنـة، وإنمـا بمرافقتـه فيهـا.. ولا بالمجان، وإنما نتيجة لعمـل عظيم قمت بـه، ثم اسـتمررت في القيام به إلى آخر لحظات حياتك.

فقد كنت وفيا لعهودك جميعا، تسـير سـيرة المنتجـبين من أصحاب محمد ﷺ في زهـدك وتواضـعك وإخلاصـك، وبعـدك عن التثاقل إلى الـدنيا وأهوائهـا، وقـد حـدث محمـد بن سـيرين عن حالك عندما وليت ولاية المدائن، فقال: كان عمر إذا بعث عاملا كتب في عهده أن اسـمعوا لـه وأطيعـوا مـا عـدل عليكم، فلمـا اسـتعمل حذيفـة على المـدائن كتب في عهـده أن اسـمعوا لـه وأطيعوا وأعطوه ما سألكم، فخـرج حذيفـة من عنـد عمـر على حمار موكف وعلى الحمار زاده، فلما قدم المدائن استقبله أهل الأرض والدهاقين وبيده رغيف وعـرق من لحم على حمـار على إكاف، فقرأ عهده إليهم، فقالوا: سلنا مـا شـئت، قـال: أسـألكم طعاما آكله، وعلف حماري هـذا مـا دمت فيكم، فأقـام فيهم مـا شاء الله، ثم كتب إليه عمر أن أقدم، فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق في مكان لا يـراه، فلمـا رآه عمـر على الحـال الذي خـرج من عنـده عليـه أتـاه فالتزمـه وقـال: أنت أخي وأنـا أخوك[2].

وعن ساعدة بن سعد بن حذيفة أن حذيفة كـان يقـول: مـا

1() رواه مسلم (1788) وابن حبان (16/67) ، وأحمد (5 / 392)

2() رواه ابن سعد، حياة الصحابة (3/ 349)

من يوم أقر لعيني ولا أحب لنفسـي من يـوم آتي أهلي فلا أجـد عندهم طعاما، ويقولون ما نقدر على قليـل ولا كثـير وذلـك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله أشـد حميـة للمـؤمن من الـدنيا من المـريض أهلـه الطعـام. واللـه تعـالى أشـد تعاهـدا للمؤمن بالبلاء من الوالد لولده بالخير) [1]

وقد ظللت على ذلك إلى آخر أيام حياتك، وقـد ذكـر بعض من حضر احتضارك، أنـك قلت في آخـر لحظـات حياتـك: (لـولا أني أرى أن هذا اليوم آخر يوم من الدنيا وأول يـوم من الآخـرة لم أتكلم به، اللهم إنـك تعلم أني كنت أحب الفقـر على الغـنى، وأحب الذلة على العز، وأحب المـوت على الحيـاة، حـبيب جـاء على فاقة، لا أفلح من ندم)، ثم مت بعدها[2].

وعن الحسن، قال: لما حضر حذيفة المـوت قـال: (حـبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها) [3]

وعن خالد بن الربيع العبسي قال: أتيناه وهو بالمدائن حتى دخلنا عليه جوف الليل، فقال لنا: (أي ساعة هذه؟) قلنا: جـوف الليل، أو آخر الليل، فقال: (أعوذ بالله من صباح إلى النـار)، ثم قال: (أجئتم معكم بأكفان؟) قلنا: نعم، قال: (فلا تغالوا بأكفاني، فإنه إن يكن لصاحبكم عند الله خير، فإنه يبدل بكسـوته كسـوة

1() رواه الطبراني، حياة الصحابة (2/ 584)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 282)

3() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 282)

خيرا منها، وإلا يسلب سلبا) [1]

وعن أبي مسعود، قال: لما أتي حذيفة بكفنه، وكان جديدا، قال: (ما تصنعون بهـذا؟ إن كـان صـاحبكم صـالحا ليبـدلن اللـه تعـالى بـه، وإن كـان غـير ذلـك ليـترامن بـه رجواهـا إلى يـوم القيامـة) [2]، وقـال: (مـا هـذا لي بكفن، إنمـا يكفيـني ريطتـان بيضاوان، ليس معهما قميص، فإني لا أتـرك إلا قليلا حـتى أبـدل خيرا منهما أو شرا منهما)[3]

هذه سيدي بعض رسائلك إلينا، ولا نزال نحفظهـا ونحتفـظ بها، ونعـرف من خلالهـا عظم تربيـة النـبي ﷺ لأصـحابه، وعظم العلـوم الـتي بثهـا لهم، ونـدرك معهـا كـذلك عظم الخـدع الـتي استطاع البغاة وأصحاب الـثروة المضـادة تشـويه التلمـذة على رسـول اللـه ﷺ، وتحويلهـا إلى معـنى أسـطوري لا علاقـة لـه بالقيم، ولا بالعمل.

2. عبد الله بن مسعود:

وهكـذا أنت يـا سـيدي.. يـا عبـد اللـه بن مسـعود.. يـا من شـرفك اللـه بـأن جعلـك من الصـحابة السـابقين.. والتلاميـذ الناجحين.. والرساليين المضحين.

لقد ذكرت قصة إسـلامك، والكرامـة الإلهيـة الـتي تحققت لرسول الله ﷺ لتعرفك به، فقلت: (كنت أرعى غنمـا لعقبـة بن

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 282)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 282)

3() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 283)

أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ، وأبـو بكـر فقـال لي يـا غلام هـل من لبن؟ قـال قلت: نعم ولكـني مـؤتمن. قـال: فهـل من شاة؟ فأتيته بشاة، فمسح ضـرعها، فـنزل لبن، فحلبـه في إنـاء فشرب وسقى أبا بكر، قـال: ثم قـال للضـرع اقلص فقلص، ثم أتيته بعـد هـذا، فقلت: يـا رسـول اللـه علمـني من هـذا القـول، فمسح رأسي، وقال: (يرحمك الله فإنك غليم معلم)[1]

وهكذا شرفك اللـه بـأن كنت من أوائـل من جهـر بـالقرآن الكريم، وقد قال المؤرخون يذكرون ذلك: أول من جهر بالقرآن بعـد رسـول اللَّه ﷺ بمكـة عبـد اللـه بن مسـعود، اجتمـع يومـا أصـحاب رسـول اللَّه ﷺ فقـالوا: واللَّه مـا سـمعت قـريش هـذا القرآن يجهر لها به قطّ، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبــد اللَّه بن مسعود: أنا. قـالوا: إنـا نخشـاهم عليـك، إنمـا نريـد رجلا لـه عشـيرة يمنعونـه من القـوم إذا أرادوه. قـال: دعـوني فـإن اللَّه سـيمنعني.. فغـدا ابن مسـعود حـتى أتى المقـام في الضـحى وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قـال: ﴿ بسـم اللـه الرحمن الرحيم الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 1، 2]، ثم اسـتقبلها يقرؤهـا وتـأمَّلوه يقولـون: مـاذا قـال ابن أمَّ عبـد؟ ثم قالوا: إنـه ليتلـو بعض مـا جـاء بـه محمـد. فقـاموا إليـه فجعلـوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ ما شـاء اللَّه أن يبلـغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا بوجهه فقالوا: هـذا الـذي خشـينا عليك. قال: ما كان أعداء اللَّه تعالى أهون عليّ منهم الآن ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا. قـالوا: لا حسـبك، قـد أسـمعتهم مـا

[1] رواه أحمد: 1/ 379، والبيهقي في دلائل النبوة، 6/ 84.

يكرهون[1].

ومنذ ذلك الحين الذي أثبت فيه صدقك وإخلاصك وتضحيتك، وأنت دائم الصحبة لرسول الله ﷺ حتى كان الناس يظنون قرابتك منه، وقد قال أبو موسى يحدث عنك: (قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا، وما نحسب ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت النبي ﷺ لكثرة دخولهم وخروجهم عليه) [2]، وقال: (والله لقد رأيت عبد الله وما أراه إلا عبد آل محمد ﷺ)

وقد قلت تحدث عن نفسك، وعلاقتك برسول الله ﷺ: لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93]، قال رسول الله ﷺ: (قيل لي أنت منهم) [3]

ولم تكن تلك الصحبة مجرد مخالطة عادية، وإنما كنت تتلمذ فيها تلمذة حقيقية على رسول الله ﷺ وعلى القرآن الذي يتنزل عليه، فلم تكن تغيب عنك آية ولا حديث، وقد شهد لك بذلك إمامك علي، فعندما قالوا له: حدثنا عن أصحاب محمد رسول الله ﷺ، قال: عن أيهم؟ قالوا: أخبرنا عن عبد الله بن مسعود، قال: (علم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى بذلك علما)[4]

---

[1] () سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 351)

[2] () رواه البخاري، 4384"، ومسلم "2460"

[3] () رواه مسلم "2459"، والترمذي "3053"

وهكذا شهد لك بـذلك المنتجبـون من صـحابة رسـول اللـه ﷺ، فعن أبي وائل قال: كنت مع حذيفة، فجاء ابن مسعود فقال حذيفة: إن أشبه الناس هديا ودلا وقضاء وخطبة برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع لا أدري ما يصـنع في أهلـه لعبد الله بن مسعود، ولقد علم المجتهدون من أصـحاب محمـد ﷺ أن عبد الله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة) [1]

وعندما سأله بعضهم قـائلا: أخبرنـا برجـل قـريب السـمت والدل برسول الله ﷺ حتى نلزمه، قـال: (مـا أعلم أحـدا أقـرب سمتا ولا هديا ولا دلا من رسول الله ﷺ حتى يواريـه جـدار بيتـه من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظـون من أصـحاب محمـد أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفة) [2]

وقـد كـان رسـول اللـه ﷺ يـبين لصـحابته قـدراتك حـتى يستفيدوا منهـا في خدمـة الإسـلام، وتبليـغ قيمـه، حـتى لا تتـاح الفرص للطلقاء واليهود وغيرهم، فعن أبي الدرداء قــال: خطب رسول الله ﷺ خطبة خفيفة فلما فرغ من خطبتـه قـال: (يـا أبـا بكر! قم فاخطب) فقام أبو بكر فخطب فقصر دون النبي ﷺ ثم قال: (يا عمر قم فاخطب)، فقام عمر فقصـر دون أبي بكـر ثم قال: (يا فلان قم فاخطب) فشقق القول، فقال له رسول اللــه ﷺ: (اسكت أو اجلس، فإن التشقيق من الشـيطان، وإن البيـان من السحر)، وقال: (يا ابن أم عبـد قم فـاخطب)، فقـام فحمـد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس إن الله عز وجل ربنا، وإن

4() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 129)

1() رواه البخاري، "6097"

2() رواه الترمذي "3708" ، والبخاري "3762"

الإسلام ديننــا، وإن القــرآن إمامنــا، وإن الــبيت قبلتنــا، وإن هــذا نبينا)، وأومــأ إلى النـبي ﷺ رضـينا مـا رضـي اللـه لنـا ورسـوله، وكرهنا ما كره الله لنا ورسوله، والسلام عليكم)، فقـال رسـول الله ﷺ: (أصـاب ابن أم عبـد، وصـدق، رضـيت بمـا رضـي اللـه لأمتي وابن أم عبد وكرهت ما كره الله لأمتي وابن أم عبد)[1]

لكنهم للأسف قصروا في الكثير من ذلك، وقد تأثرت بذلك التقصــير، عنــدما رحت تلــومهم على جعلهم زيــدا بن ثــابت الأنصاري على رأس اللجنة التي شكلت لجمـع القـرآن الكـريم، مع أنه كان يبلغ من العمر عند قدوم رسـول اللـه ﷺ المدينـة لا يتجاوز إحدى عشرة سنة، أي أنك أسلمت قبل مولده.

لذلك كنت تـذكر لهم أنـك عشـت مـع القـرآن، وكنت تتبـع نزول كل آياته في مكة والمدينة في الوقت الـذي لم يولـد فيـه أولئك الذين عهـد إليهم بتلـك المهمـة الخطـيرة، وقـد قلت في ذلك متأسفا: (لقد قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين ســورة، وزيد له ذؤابة يلعب مع الغلمان) [2]

وكنت تقول لهم: (والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت وأعلم فيما نزلت، ولـو أعلم أن أحـدا أعلم مني بكتاب الله تناله المطي لأتيته)

وكنت تقول لهم: (لقد قرأت على رسـول اللـه ﷺ سـبعين سورة، ولقد علم أصحاب محمـد أني أعلمهم بكتـاب اللـه، ولـو أعلم أحدا أعلم بكتـاب اللـه مـني لـرحلت إليـه)، قـال الـراوي: (فجلست في حلـق من أصـحاب محمـد ﷺ، فمـا سـمعت أحـدا

1() تاريخ دمشق لابن عساكر (33/ 121)

2() رواه أحمد 1 / 389، 405، 414، 442، وأبو نعيم في " الحلية " 1 / 125.

منهم يعيب عليه شيئا مما قال، ولا يرد عليه)[1]

وكنت تقول لهم: (عجبا للناس وتـركهم قـراءتي، وأخـذهم قراءة زيد، وقد أخذت من في رسـول اللـه ﷺ سـبعين سـورة، وزيد بن ثابت صاحب ذؤابة غلام يجيء ويذهب بالمدينة) [2]

بل إن رسول الله ﷺ هـو الـذي شـهد لـك بـذلك، وأنت لم تكن تردد سوى شهادة رسـول اللـه ﷺ فيـك، ففي الحـديث أن رسول الله ﷺ مـر عليـك، وأنت قـائم تصـلي، فـافتتحت سـورة النساء، فقـال ﷺ: (من أحب أن يقـرأ القـرآن غضـا كمـا أنـزل، فليقرأ قراءة ابن أم عبد)، ثم أخذت في الدعاء، فجعـل رسـول الله ﷺ يقول: (سل تعط)، فكان فيما سألت قولــك: (اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد)[3]، وهذه إحدى بشارات رسـول اللـه ﷺ لـك بالجنة، ولو أنك لا تُذكر في المبشرين بهـا، بسـبب عـدم كونـك من قريش.

وممـا يـروى في ذلـك الحـديث الـذي يمثـل قيمـة من قيم الإيمان التي عبث بها التحريف، فقد روي أنـك تسـلقت شـجرة تجتــني بعض ثمارهــا، وكنت دقيــق الســاقين، فجعلت الــريح تكفؤك، فضحك الحضور منك، ومن ساقيك، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (مم تضحكون؟)، قالوا: يا نبي الله، من دقـة سـاقيه، فقـال

---

1 () رواه مسلم (2462)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 125)

3 () رواه أحمد: 1 / 445، 454، والحاكم بنحوه 3 / 317 .

ﷺ: (والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد)[1]

ولهذا كان رسول الله ﷺ يستعمل كل الوسائل لتقريبك، وإزالة تلك النفرة عنك، والتي كان سببها تلك الأخلاق الجاهلية التي تفرق بين الناس على أساس أنسابهم وأجسامهم وغناهم وفقرهم.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يخبر عن حبه لقراءتك، حتى يجتمع الناس إليك بسببها، منشغلين عن جسمك ونسبك، وقد ذكرت بعض مشاهد ذلك، فقلت: (قال لي رسول الله ﷺ: (اقرأ علي القرآن)، قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: (إني أشتهي أن أسمعه من غيري)، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41]، فغمزني برجله، فإذا عيناه تذرفان)[2]

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ظللت وفيا لعهده، لم تغير ولم تبدل، بل كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتواجه النفاق، وتدعو إلى مواجهته، وتقول: (جاهدوا المنافقين بأيديكم فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا)

وكنت ـ بسبب ما تراه من تلاعب بالقيم القرآنية وتحريف لها وتقريب لليهود وغيرهم وإعطائهم الفرصة لتفسير القرآن بأساطيرهم وخرافاتهم ـ تدعو إلى العودة إلى القرآن الكريم، وتفعيله في جميع نواحي الحياة، وكنت تصف لهم قارئ القرآن

1() الحاكم (3/358، رقم 5385) وقال: صحيح الإسناد. والطبرانى (19/28، رقم 59)

2() رواه البخاري (4049)، ومسلم (800)

الكريم، فتقول: (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا النـاس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائــه إذا النــاس يضــحكون، وبصــمته إذا النــاس يخلطــون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامـل القـرآن أن يكـون باكيا محزونا حكيما حليما عليما سكيتا، ولا ينبغي لحامل القـرآن أن يكون جافيا، ولا غافلا، ولا صخابا، ولا صياحا، ولا حديدا) [1]

وكنت تقول لهم: (إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل، فإن أصفر الـبيوت من الخـير الـذي ليس فيه من كتاب الله شـيء، وإن الـبيت الـذي ليس فيـه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر لـه، وإن الشـيطان يخرج من البيت الذي تسمع فيه سورة البقرة) [2]

وكنت تقول: (إنما هذه القلوب أوعية، فاشـغلوها بـالقرآن، ولا تشغلوها بغيره) [3]

وهكـذا كنت تحـذر من الكسـل والفـراغ الـذي كـان أعظم فرصة للشيطان لبث قيمه التي يواجـه بهـا قيم الـدين الأصـيل، وقد كنت تقول هلم في ذلك ناصحا: (إني لأكره أن أرى الرجـل فارغا، لا في عمل الـدنيا، ولا في عمـل الآخـرة)، وتقـول: (إني لأمقت الرجل أن أراه، فارغا، ليس في شيء من عمـل الـدنيا، ولا عمل الآخرة)، وتقول: (لا ألفين أحـدكم جيفـة ليـل، قطـرب

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 130)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 131)

3() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 131)

نهار) [1]

وكنت تـدعو إلى التفاعـل مـع قيم الـدين، وعـدم الاكتفـاء بإعطاء الظواهر دون البواطن، وقـد كنت تقـول: (مـا دمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يفتح له) [2]

وتقول: (إن استطعت أن تكون أنت المحدث، وإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 104] فأرعها سمعك، فإنه خير يؤمر به، أو شر ينهى عنه) [3]

وكنت تحذر من تحويل الدين إلى مجموعة معارف وعلـوم لا علاقة لها بالحياة، وتقـول: (ليس العلم بكـثرة الروايـة، ولكن العلم الخشـية)، وتقـول: (تعلمـوا العلم، فـإذا علمتم فـاعملوا)، وتقول: (ويل لمن لا يعلم، ولو شاء الله لعلمه، وويـل لمن يعلم ثم لا يعمل) سبع مرات[4].

وكنت كأصحابك المنتجبين تدعو إلى عدم قصر الدين على الظواهر مع إهمال القلب والباطن، وقد روي أنه جـاء نـاس من الـدهاقين فتعجب النـاس من غلـظ رقـابهم وصـحتهم، فقلت: (إنكم تـرون الكـافر من أصـح النـاس جسـما، وأمرضـهم قلبـا، وتلقون المؤمن من أصـح النـاس قلبـا، وأمرضـهم جسـما، وايم

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 130)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 130)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 130)

4 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 131)

الله، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان) [1]

وكنت تقول: (من استطاع منكم أن يجعل كنزه حيث لا يأكله السوس، ولا تناله السراق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه)

وعندما سمعت بعضهم يقول: (هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر)، قلت له: (بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر)

وكنت تقول: (إذا أصبح أحدكم صائما فليترجل، وإذا تصدق بصدقة بيمينه فليخفها عن شماله، وإذا صلى صلاة أو صلى تطوعا فليصلها في داخله) [2]

وكانت لك المواعظ الكثيرة التي تدعو إلى عدم الاستغراق في الدنيا وشهواتها، والاهتمام بالتحضير للموت وما بعده، ومنها قولك: (ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم)، وقولك: (إنما الدنيا كالثغب، ذهب صفوه وبقي كدره)، وقولك: (ألا حبذا المكروهان: الموت والفقر، وأيم الله، إن هو إلا الغنى أو الفقر، وما أبالي بأيهما ابتليت، إن كان الغنى إن فيه للعطف، وإن كان الفقر إن فيه للصبر)، وقولك: (والله الذي لا إله غيره، ما يضر عبدا يصبح

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 135)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 136)

على الإسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا)[1]

وكانت مواعظك ـ سيدي ـ مملوءة بالحكم، وكيف لا تكـون كذلك وهي مشتقة من المعاني القرآنية والتربية النبويـة، ومنهـا قولك: (إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، الموت يأتي بغتة، فمن يزرع خـيرا يوشـك أن يحصـد بغتة، ومن يزرع شرا يوشك أن يحصد ندامـة، ولكـل زارع مثـل ما زرع، لا يسبق بطئ بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقـدر لـه، فمن أعطي خـيرا فاللـه تعـالى أعطـاه، ومن وقي شـرا فاللـه تعالى وقاه) [2]

ومنهـا قولـك: (إن أصـدق الحـديث كتـاب اللـه عـز وجـل، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملـل ملـة إبـراهيم، وأحسـن السـنن سـنة محمـد ﷺ، وخـير الهـدى هـدى الأنبيـاء، وأشـرف الحديث ذكر الله، وخير القصص القرآن، وخير الأمـور عواقبهـا، وشـر الأمـور محـدثاتها، ومـا قـل وكفى خـير ممـا كـثر وألهى، ونفس تنجيها خير من أمارة لا تحصيها، وشر العذيلة حين يحضر الموت، وشر الندامة ندامة القيامة، وشر الضـلالة الضـلالة بعـد الهدى، وخير الغنى غنى النفس، وخير الـزاد التقـوى، وخـير مـا ألقي في القلب اليقين، والـريب من الكفـر، وشـر العمى عمى القلب، والخمــر جمــاع كــل إثم، والنســاء حبالــة الشــيطان، والشباب شـعبة من الجنـون، والنـوح من عمـل الجاهليـة، ومن النـاس من لا يـأتي الجمعـة إلا دبـرا، ولا يـذكر اللـه إلا هجـرا، وأعظم الخطايا الكذب، وسباب المـؤمن فسـوق، وقتالـه كفـر، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يعف يعف الله عنـه، ومن يكظم

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 132)

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 133)

الغيظ يـأجره اللـه، ومن يغفـر يغفـر اللـه لـه، ومن يصـبر على الرزية يعقبه الله، وشـر المكاسـب كسـب الربـا، وشـر المأكـل مال اليتيم، والسعيد من وعـظ بغـيره، والشـقي من شـقي في بطن أمه، وإنما يكفي أحدكم مـا قنعت بـه نفسـه، وإنمـا يصـير إلى أربعة أذرع، والأمر إلى آخرة، وملاك العمـل خواتمـه، وشـر الروايا روايا الكذب، وأشرف الموت قتل الشهداء، ومن يعــرف البلاء يصبر عليه، ومن لا يعرف ينكر، ومن يستكبر يضـعه، ومن يتولى الـدنيا تعجـز عنـه، ومن يطـع الشـيطان يعص اللـه، ومن يعص الله يعذبه) [1]

ومنهـا قولـك:(مـا منكم إلا ضـيف ومالـه عاريـة، والضـيف مرتحل، والعارية مؤداة إلى أهلها) [2]

ومنها قولـك لمن سـألك أن تعلمـه كلمـات جوامـع نوافـع: (اعبد الله ولا تشرك به شـيئا، وزل مـع القـرآن حيث زال، ومن جـاءك بـالحق فاقبـل منـه، وإن كـان بعيـدا بغيضـا، ومن جـاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبا قريبا) [3]

ومنها قولك: (الحق ثقيل مري، والباطل خفيف وبي، ورب شهوة تورث حزنا طويلا)

ومنها قولك: (والله الذي لا إله إلا هو، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان)

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 139)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 133)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 134)

ومنها قولك: (إن للقلوب شهوة وإقبالا، وإن للقلوب فــترة وإدبارا، فاغتنموهـا عنـد شـهوتها وإقبالهـا، ودعوهـا عنـد فترتهـا وإدبارها)

ومنها قولك: (إياكم وحزائز القلوب، وما حز في قلبـك من شيء فدعه)

ومنها قولك: (يذهب الصالحون أسلافا، ويبقى أهـل الـريب من لا يعرفه معروفا ولا ينكر منكرا)

ومنهـا قولـك لمن طلب وصـيتك: (ليسـعك بيتـك، واكفـف لسانك، وابك على ذكر خطيئتك)

ومنها قولك: (لا يقلـدن أحـدكم دينـه رجلا، فـإن آمن آمن، وإن كفر كفـر، فـإن كنتم لا بـد مقتـدين فاقتـدوا بـالميت؛ فـإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة) [1]

ومنها قولك: (لا يكونن أحدكم إمعة)، قالوا: ومـا الإمعـة يـا أبا عبد الرحمن؟ قلت: (يقول: أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلوا ضللت، ألا ليوطنن أحدكم نفسه على إن كفر النــاس أن لا يكفر) [2]

ومنها قولك: (ثلاث أحلف عليهن، والرابعة لو حلفت عليهـا لبررت: (لا يجعل الله عز وجل من له سهم في الإسـلام كمن لا سهم له، ولا يتولى الله عبد في الدنيا فولاه غيره يـوم القيامـة، ولا يحب رجل قوما إلا جاء معهم، والرابعة التي لو حلفت عليهـا

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 138)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 138)

لـبررت، لا يسـتر اللـه على عبـد في الـدنيا إلا سـتر عليـه في الآخرة) [1]

ومنها قولك: (ما أحد من الناس يوم القيامة إلا يتمـنى أنـه كـان يأكـل في الـدنيا قوتـا، ومـا يضـر أحـدكم على مـا أصـبح وأمسـى من الـدنيا إلا أن تكـون في النفس حـزازة، ولأن يعض أحدكم على جمرة حتى تطفأ خير من أن يقول لأمر قضاه اللـه ليت هذا لم يكن) [2]

ومنها قولك: (من أراد الدنيا أضر بالآخرة، ومن أراد الآخرة أضر بالدنيا، يا قوم فأضروا بالفاني للباقي) [3]

ومنها قولك: (من راءى في الدنيا راء الله به يوم القيامـة، ومن يسمع في الدنيا يسمع الله به يـوم القيامـة، ومن يتطـاول تعظما يضعه الله، ومن يتواضع تخشعا يرفعه الله) [4]

وكنت تنتقـد ذلـك الواقـع الشـديد الـذي آل إليـه حـال المسـلمين بسـبب مظـاهر الـثراء الـتي دخلت عليهم، والـتي جعلتهم ينسون تلك القيم التي دعاهم إليهـا دينهم، وكنت تقـول في ذلك: (لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحـل بذروته حتى يكون الفقـر أحب إليـه من الغـنى، والتواضـع أحب

---

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 138)

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 138)

3 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 138)

4 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 138)

إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء) [1]

ومنها قولك لمن قال: (أين الزاهدون في الدنيا، الراغبون في الآخرة؟): (أولئك أصحاب الجابية، اشترط خمسمائة من المسلمين أن لا يرجعوا حتى يقتلوا، فحلقوا رءوسهم ولقوا العدو فقتلوا إلا مخبر عنهم)، ثم قلت: أنتم أكثر صياما، وأكثر صلاة، وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرا منكم، قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: (هم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة)

وكنت تحدثهم عن قول رسول الله ﷺ: (كيف أنتم إذا التبستكم فتنة، فتتخذ سنة، يربو منها الصغير ويهرم فيها الكبير، وإذا ترك منها شيء قيل: تركت سنة؟(، قالوا: متى ذلك يا رسول الله؟ قال: (إذا كثر قراؤكم، وقلت علماؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الله)

وكنت تحدث عن نفسك، وحفاظك على قيم الدين في هذه الجوانب، وتقول: (والذي لا إله غيره ما أصبح عند آل عبد الله ما يرجون أن يعطيهم الله به خيرا، أو يدفع عنهم به سوءا، إلا أن الله قد علم أن عبد الله لا يشرك به شيئا) [2]

وكنت مع ذلك كله ممتلئا بالعبودية والتواضع لله، ولذلك كنت تقول: (لو وقفت بين الجنة والنار، فقيل لي: اختر نخيرك من أيهما تكون أحب إليك، أو تكون رمادا؟ لأحببت أن أكون رمادا)،وعندما قال بعضهم أمامك: ما أحب أن أكون من

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 132)

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 132)

أصحاب اليمين، أكـون من المقـربين أحب إلي، قلت لـه: (لكن هنـاك رجـل ود لـو أنـه إذا مـات لم يبعث)، ثم بينت سـر ذلـك، فقلت: (لو تعلمون علمي لحثوتم التراب على رأسي)[1]

وقـــد ظللت على هـــذا المنهـــاج تـــؤدي دورك في نصـــح المسـلمين، ونشـر قيم النبـوة بينهم إلى أن توفـاك اللـه على صدقك وإخلاصـك، وقـد قلت للخليفـة الـذي جـاء يعـودك، حين سـألك: مـا تشـتكي؟ قلت: ذنـوبي، قـال: فمـا تشـتهي؟ قلت: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطـبيب؟ قلت: الطـبيب أمرضـني، قال: ألا آمر لك بعطائك؟ وكنت قـد تركـه سـنتين: لا حاجـة لي فيه، قـال: يكـون لبناتـك من بعـدك، قلت: أتخشـى على بنـاتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا) [2]

وقد شرفك الله قبل وفاتك بزيـارة أخيـك أبي ذر الغفـاري في الربذة، وصلاتك عليه، وتأثرك لحاله، واقتدائك بـه فيـه، ولم تلبث بعده إلا قليلا، ثم التحقت به.

وقد شاء الله أن يختم لك بقـريب ممـا ختم لـه، فقـد روى البلاذري عن أبي مخنـف في إسـناده قـال: (لمـا قـدم الوليـد الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضـه مـالا وقـد كانت الولاة تفعل ذلك ثم ترد مـا تأخـذ، فأقرضـه عبـد اللـه مـا سأله، ثم إنـه اقتضـاه إيـاه، فكتب الوليـد في ذلـك إلى عثمـان فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسـعود: إنمـا أنت خـازن لنـا فلا

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 132)

[2] () البداية والنهاية (7/ 183)

تعرض للوليد فيما أخذ من المال، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين فأما إذ كنت خازنا لكم فلا حاجة لي في ذلك، وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال)[1]

وروى عن أبي مخنف وعوانة أن (عبد الله بن مسعود حين ألقى مفاتيح بيت المال إلى الوليد بن عقبة قال: من غير غير الله ما به ومن بدل أسخط الله عليه، وما أرى صاحبكم إلا وقد غير وبدل، أيعزل مثل سعد ابن أبي وقاص ويولى الوليد؟)، وكان يتكلم بكلام لا يدعه وهو: (إن أصدق القول كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدث بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)، فكتب الوليد إلى عثمان بذلك وقال: (إنه يعيبك ويطعن عليك)، فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه، وشيعه أهل الكوفة، فأوصاهم بتقوى الله ولزوم القرآن، فقالوا له: (جزيت خيرا، فلقد علمت جاهلنا وثبت عالمنا وأقرأتنا القرآن وفقهتنا في الدين، فنعم أخو الإسلام أنت ونعم الخليل)، ثم ودعوه وانصرفوا وقدم ابن مسعود المدينة وعثمان يخطب على منبر رسول الله ﷺ فلما رآه قال: (ألا أنه قدمت عليكم دويبة سوء من تمش على طعامه يقيء ويسلح)، فقال ابن مسعود: (لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان)، ونادت عائشة: (أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ، ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد إخراجا عنيفا، وضرب به عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأرض، ويقال بل احتمله يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدق ضلعه، فقال

[1] () أنساب الأشراف للبلاذري (5/ 518)

علي: (يا عثمان أتفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ بقـول الوليـد بن عقبـة؟)، فقـال: (مـا بقـول الوليـد فعلت هـذا، ولكن وجهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة فقال له ابن مسعود: إن دم عثمـان حلال)، فقـال علي: (أحلت من زبيـد على غـير ثقـة).. وقـام علي بـأمر ابن مسـعود حـتى أتى بـه منزلـه، فأقـام ابن مسعود بالمدينة لا يأذن له عثمـان في الخـروج منهـا إلى ناحيـة من النواحي، وأراد حين برئ الغـزو فمنعـه من ذلـك، وقـال لـه مروان: (إن ابن مسعود أفسد عليـك العـراق أفتريـد أن يفسـد عليك الشام؟)، فلم يبرح المدينة حتى توفي قبل مقتـل عثمـان بسنتين، وكان مقيما بالمدينة ثلاث سنين)[1]

وروى أنه (لما مرض ابن مسـعود مرضـه الـذي مـات فيـه أتاه عثمان عائـدا فقـال: مـا تشـتكي؟ قـال: ذنـوبي قـال: فمـا تشـتهي؟ قـال: رحمـة ربي، قـال: ألا أدعـو لـك طبيبـا؟ قـال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا آمر لك بعطائك؟ قال: منعتنيـه وأنـا محتاج إليه وتعطينيه وأنا مستغن عنه؟ قال: يكون لولدك، قال: رزقهم على الله قـال: اسـتغفر لي يـا أبـا عبـد الـرحمن، قـال: أسأل الله أن يأخـذ لي منـك بحقي. وأوصـى أن لا يصـلي عليـه عثمان، فدفن بالبقيع وعثمـان لا يعلم، فلمـا علم غضـب وقـال: سبقتموني به، فقال له عمار بن ياسر: (إنه أوصى أن لا تصــلي عليه)[2]

3. عبد الله بن عباس:

---

[1] () أنساب الأشراف للبلاذري (5/ 524)

[2] () أنساب الأشراف للبلاذري (5/ 524)

وهكذا أنت يا سيدي.. يا عبد الله بن عباس[3].. يا من شرفت بتلك التربية الخاصة لرسول الله ﷺ لك، بسبب قربك النسبي منه، فنلت من العلوم والحكمة ما لم يظفر به الكثير.

وكيف لا تنال ذلك، وقد دعا لك رسول الله ﷺ لما رآه من حسن خلقك، واتقاد ذهنك على الرغم من صغر سنك، وقد ذكرت سر ذلك الدعاء الشريف، فقلت: (صليت خلف رسول اللَّه ﷺ، فأخذ بيدي فجرّني حتى جعلني حذاءه، فلما أقبل على صلاته خنست، فلما انصرف قال لي: (ما شأنك؟) فقلت: يا رسول اللَّه، أو ينبغي لأحد أن يصلّي حذاءك، وأنت رسول اللَّه! فدعا لي أن يزيدني اللَّه علما وفهما) [2]

وفي حديث آخر قلت: (دعاني رسول اللَّه ﷺ فمسح على ناصيتي وقال: (اللَّهمّ علّمه الحكمة، وتأويل الكتاب) [3]

ولم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بالدعاء لك، وإنما كان يوجهك ويعلمك ويعظك، حتى مع صغر سنك، ومن تلك الوصايا التي أوصاك بها رسول الله ﷺ، والتي حفظتها مع صغرك الباكر، قولك: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال لي: (يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك

3() انظر ترجمته في: حلية الأولياء 1/ 314، 329، الرياض المستطابة 198، البداية والنهاية 8/ 295، معجم الثقات 299، التاريخ لابن معين 3/ 315، نكت الهميان 180، الصمت وآداب اللسان (فهرس) 66، تجريد أسماء الصحابة 1/ 320، تهذيب التهذيب 5/ 276.

2() رواه أحمد 1/ 266، 314. والطبراني في الكبير 10 10/ 320، والطبراني في الصغير 1/ 197. والبيهقي في دلائل النبوة 6/ 192، 193.

3() ابن ماجة في السنن 1/ 58 ، والطبراني في الكبير 10/ 293، 11/ 345- حلية الأولياء 1/ 315.

بشيء لم يكتبه الله لك، لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبـه اللـه عليـك، لم يقـدروا على ذلـك، جفت الأقلام، وطـويت الصـحف، فـإن اسـتطعت أن تعمـل للـه بالرضى في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفــرج مــع الكرب، وأن مع العسر يسرا، ولن يغلب عسر يسرين) [1]

وهكذا كان لـك بحكم قرابتـك من رسـول اللـه ﷺ تواصـل خاص به، جعلك تظفر بتربية خاصة، ومما رويته في ذلك قولك: (أمرني العباس قال: بت بآل رسول الله ﷺ ليلة، فانطلقت إلى المسجد، فصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة حتى لم يبـق في المسجد أحد غيره، قال: ثم مر بي، فقـال: «من هـذا؟» فقلت: عبد اللـه، قـال: «فمـه» قلت: أمـرني أبي أن أبيت بكم الليلـة، قال: «فـالحق» فلمـا دخـل، قـال: «افرشـوا لعبـد اللـه» قـال: فأتيت بوسادة من مسوح، قال: وتقدم إلي العباس أن لا تنـامن حتى تحفظ صلاته، قال: فقدم رسول الله ﷺ فنام حتى سمعت غطيطه، قال: ثم استوى على فراشه فرفع رأسـه إلى السـماء فقال: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مـرات، ثم تلا هـذه الآيـة من آخر سورة آل عمران حتى ختمها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـــلِ وَالنَّهَـــارِ لَآيَـــاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـــابِ﴾ [آل عمـران: 190]، ثم اسـتن بسـواكه، ثم توضـأ ثم دخـل مصـلاه فصلى ركعـتين ليسـتا بقصـيرتين ولا طويلـتين، فصـلى ثم أوتـر فلما قضى صلاته سمعته يقول: «اللهم اجعل في بصـري نـورا، واجعل في سمعي نـورا، واجعـل في لسـاني نـورا، واجعـل في قلبي نورا، واجعـل عن يميـني نـورا، واجعـل عن شـمالي نـورا، واجعل أمامي نورا، واجعل من خلفي نــورا، واجعــل من فــوقي

[1] رواه أحمد (1/293) (2669) وفي (1/303) (2763) والترمذي (2516)

نورا، واجعل من أسفل مني نورا، واجعل لي يـوم لقائـك نـورا، وأعظم لي نورا) [1]

ومما رويته من كرامات قربك من رسول الله ﷺ ذلك الدعاء الطويل الجميل الذي حفظته رغم صغر سنك، وهو ما يدل على اهتمامك البالغ بكل ما يفعله رسول الله ﷺ، وهو أعظم دلائل الصدق والإخلاص.

فقد حدثت عن نفسك، تحكي بكل دقة تفاصيل ما حصل: (بعثني العباس إلى رسول الله ﷺ فأتيته ممسيا وهو في بيت خالتي ميمونة، فقام رسول الله ﷺ يصلي من الليل، فلما صلى الركعتين قبل الفجر قال: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها ألفتي، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم أعطني إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز عند اللقاء، ونزل الشهداء وعيش السعداء، ومرافقة الأنبياء، والنصر على الأعداء، اللهم أنزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي، وضعف عملي، وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف عنه عملي، ولم تبلغه نيتي، أو أمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألك يا رب العالمين، اللهم اجعلنا هادين مهديين، غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك، وسلما لأوليائك، نحب بحبك الناس،

[1] () المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 617)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء وعليك الاستجابة، اللهم وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد أسألك الأمن في يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، والركع السجود والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد سبحان الذي تعطف العز، وقال به وسبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحان ذي العزة والبهاء، سبحان ذي القدرة والكرم، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا في سمعي ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، ونورا بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، اللهم زدني نورا، وأعطني نورا، واجعل لي نورا)[1]

وقد كانت لك بسبب هذا الفضل الإلهي أدوار علمية كبيرة في الأمة، فقد كانوا يرجعون إليك في الفتوى والتفسير والشورى في القضايا المختلفة.

ولو أن البغاة أساءوا إليك كثيرا بتلفيق الكثير من الأحاديث المكذوبة لك، مع أنك كنت من الذين لم يبدلوا ولم يغيروا، ولم يهرعوا إلى اليهود ولا إلى غيرهم ينهلون منهم العلم، وكيف تفعل ذلك، وأنت الذي كنت تقول مخاطبا المغيرين والمبدلين: (أيتها الأمّة المتحيّرة في دينها، أما والله لو قدّمتم من قدّم الله، وأخرّتم من آخر الله وجعلتم الوراثة والولاية حيث جعلها الله، ما عال سهم من فرائض الله، ولا عال وليّ الله، ولا

---

[1] () سنن الترمذي (5/ 357)، والمعجم الأوسط (4/ 95)

اختلف اثنان في حكم الله، فـذوقوا وبـال مـا فـرّطتم فيـه، بمـا قدّمت أيديكم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون)[1]

وكنت تشـتد على الـذين يسـتبدلون سـنة رسـول اللـه ﷺ بسنة أبي بكر وعمر، ويجادلونك بأفعالهما، فقـد روي أن عـروة بن الزبـير أتـاك، فقـال: يـا ابن عبـاس، طالمـا أضـللت النـاس، فقلت: ومـا ذاك يـا عريـة؟ قـال: الرجـل يخـرج محرمـا بحج أو عمرة، فإذا طاف، زعمت أنه قد حل، فقد كان أبــو بكـر وعمـر ينهيان عن ذلـك؟، فقلت: (أهمـا، ويحـك، آثـر عنـدك أم مـا في كتاب الله، وما سن رسول الله ﷺ في أصحابه وفي أمتـه؟)[2]، ثم قلت له: (بهذا ضللتم؟ أحدثكم عن رسول الله ﷺ وتحدثوني عن أبي بكر وعمر؟)

بـل إنـك اعتـبرت ذلـك أعظم خطـر على الـدين، فقلت: (والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، نحدثكم عن النـبيّ ﷺ وتحدثونا عن أبي بكر؟!)

وقد أقر ابن تيمية نفسه ـ مع مبالغاته الشديدة في حقهما ـ هذا الواقع الجديد الذي أسـس لـه البغـاة، فقـال: (كـان بعض الناس يناظر ابن عباس في المتعة فقال له: قال أبو بكر وعمر فقال ابن عباس: (يوشك أن تـنزل عليكم حجـارة من السـماء! أقول قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر؟)[3]

1() أمالي الشيخ المفيد / 27 و 152 ، بشارة المصطفى للطبري / 132

2() رواه أحمد (3121)، ورواه الطبراني في الأوسط (21)

3() مجموع الفتاوى، (20/ 215)

بل إنك كنت تنكر بأسف شديد عدم تطبيق وصــايا رســول الله ﷺ، أو عدم ترك الفرصة له ليكتب وصيته، ومما يــروى في ذلك ما رواه سعيد بن جبير عنك، قال: قال لي ابن عباس: يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى خضب دمعه الحصــا، فقلت: يا أبا عباس وما يوم الخميس؟ قال: يوم اشــتد برســول الله ﷺ وجعه قال: «ائتوني أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبــدا» قال: فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا: ما شـأنه أهجـر؟ استفهموه، فقال: «دعوني، فالـذي أنـا فيـه خـير ممـا تـدعوني إليه» قال: وأوصى عند موته بثلاث، فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مـا كنت أجـيزهم» قـال: فإما أن يكون سعيد سكت عن الثالثة عمدا، وإما أن يكون قالها فنسيتها[1].

وقال متحدثا عنـك: (عن ابن عبـاس، قـال: يـوم الخميس، وما يوم الخميس ثم نظرت إلى دموعه على خديـه تحـدر كأنهـا نظام اللؤلؤ، قال: قال رسول الله ﷺ: (ائتوني باللوح، والدواة - أو الكتف - أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعـده أبـدا) فقـالوا: رسـول الله ﷺ يهجر!)[2]

وهكذا تنكر تلك التغييرات التي بدأت تطرأ على الدين مبتعدة عن الهدي القرآني الممتلئ بالعدالة، ومن الأمثلة على ذلك وقوفك بشدة ضد العول في الميراث، لمخالفته القرآن الكريم، وقد فعلت ذلك على الرغم من مخالفة ذلك لفتوى عمر

---

1 () رواه عبد الرزاق (9992) ، والحميدي (526) ، وابن سعد 2/242، والبخاري (3053) و (3168) و (4431) ، ومسلم (1637)ـ (20) ، وأبـو داود (3029) ، والنسائي في "الكبرى" (5854) ، وأبو يعلى (2409) ، والبيهقي في "السنن" 9/207، وفي "الدلائل" 7/181، والبغوي (2755)

2 () رواه مسلم (1637) (21)

وقد حدث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسـعود قـال: دخلت أنـا وزفـر بن أوس بن الحـدثان على ابن عبـاس بعـدما ذهب بصـره، فتـذاكرنا فـرائض المـيراث، فقـال: (تـرون الـذي أحصى رمل عالج عددا، لم يحص في مال نصفا ونصفا وثلثا، إذا ذهب نصف ونصف، فأين موضع الثلث؟)، فقال له زفـر: يـا أبـا عباس، من أول من أعال الفرائض؟ قال: (عمـر بن الخطـاب)، قال: ولم؟ قال: (لما تدافعت عليه، وركب بعضـها بعضـا، قـال: والله ما أدري كيف أصنع بكم، والله ما أدري أيكم قدم الله، ولا أيكم أخر، قـال: ومـا أجـد في هـذا المـال شـيئا أحسـن من أن أقسمه عليكم بالحصص، ثم قال ابن عباس: (وايم الله، لو قدم من قدم الله، وأخر من أخر الله، ما عـالت فريضـة)، فقـال لـه زفر: وأيهم قدم وأيهم أخر؟ فقال: (كل فريضة لا تـزول إلا إلى فريضة فتلك التي قدم الله، وتلـك فريضـة: الـزوج لـه النصـف، فإن زال فإلى الربع لا ينقص منه، والمرأة لها الربع، فـإن زالت عنـه صـارت إلى الثمن، لا تنقص منـه، والأخـوات لهن الثلثـان، والواحدة لها النصف، فإن دخل عليهن البنات كان لهن مـا بقي، فهؤلاء الذين أخر الله، فلو أعطى من قدم اللـه فريضـة كاملـة ثم قسم ما يبقى بين من أخر الله بالحصص ما عالت فريضــة)، فقال له زفر: فما منعك أن تشير بهذا الرأي على عمر؟ فقـال: (هبته والله)، قال ابن إسحاق: فقال لي الزهري: وأيم الله، لولا أنه تقدمه إمام هدى كان أمره على الـورع مـا اختلـف على ابن عباس اثنان من أهل العلم) [1]

وهكذا كنت تصرح برأيك في كل الأحـوال على الـرغم من المعارضة الشـديدة الـتي كنت تلقاهـا من أولئـك الـذين عزلـوا الكتاب والسنة إلى آراء الرجال.

---

[1] () السنن الكبرى للبيهقي (6/ 414)

وقد كانت مواقفك أكثر شدة مع أولئك الذين راحوا يسألون اليهود عن دينهم، وعن تفسير القرآن الكريم، وقد حدث بعضهم عن بعض مواقفك في ذلك، فقال: (بينما كان ابن عباس جالسا ذات يوم من الأيام إذ أتاه رجل فقال: يا بن عباس إنّي سمعت العجب من كعب الأحبار يذكر في الشمس والقمر ـ وكان متكئاً فاحتفز ـ ثمّ قال: قال كعب الأحبار إنّه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في النار.. فطارت من ابن عباس شظية ووقعت أخرى غضباً، ثمّ قال: كذب كعب الأحبار، كذب كعب، كذب كعب ـ قالها ثلاثاً ـ بل هذه يهودية يريد إدخالها في الإسلام، والله أكرم وأجلّ من أن يعذّب أهل طاعته، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33]، يعني دؤوبهما في طاعته، فكيف يعذّب أهل طاعته، فكيف يعذّب عبدين أثنى عليهما أنّهما دائبان في طاعته، قاتل الله هذا الحبر وقبّح حديثه ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين العبدين المطيعين لله تعالى.. ثمّ استرجع مراراً، ثمّ أخذ عوداً من الأرض فجعل ينكت به في الأرض، وظل كذلك ما شاء الله) [1]

وكنت تقول لهم: (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيّه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدّثكم الله أنّ أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله وغيّروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن

1 () العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (4/ 1163)

مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قـط يسـألكم عن الـذي أنزل عليكم) [1]

وهكذا كنت ترد على كل التحريفات الـتي حـاول البغـاة أو غـيرهم إلصـاقها بالـدين، ولـذلك انتـدبك الإمـام علي لمحـاورة الخـوارج، وقـد حـدثت عن ذلـك، فقلت: لمـا اعـتزلت الخـوارج وأجمعـوا أن يخرجـوا على علي بن أبي طـالب أتيتـه يومـا قبـل الظهر، فقلت له: يا أمـير المؤمـنين، أبـرد بالصـلاة لعلي أدخـل على هؤلاء القوم فأكلمهم، فقال: إني أخاف عليـك، فقلت: كلا، وكنت حسـن الخلـق، لا أوذي أحـدا، فـأذن لي، فـدخلت عليهم، فلم أر قومـا أشـد منهم اجتهـادا جبـاههم قرحـة من السـجود، وأيـديهم كأنهـا نقـر الإبـل، وعليهم قمص مرحضـة مشـمرين، مشهمة وجـوههم من السـهر، فسـلمت عليهم، فقـالوا: مرحبـا بـابن عبـاس، مـا جـاء بـك؟ فقـال: أتيتكم من عنـد المهـاجرين والأنصار، ومن عند صـهر رسـول اللـه ﷺ، وعليهم نـزل القـرآن وهم أعلم بتأويلـــه منكم، فقـــالت طائفـــة منهم: لا تخاصـــموا قريشــا، فــإن اللــه تعــالى يقــول: ﴿بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ خَصِـمُونَ﴾ [الزخرف: 58]، فقال اثنان أو ثلاثة: لنكلمنه) [2]

وهنا رحت تـدعوهم إلى ذلـك مـا نقمـوه على الإمـام علي قائلا: (هاتوا ما نقمتم على صهر رسول اللـه ﷺ)، فقـالوا: ثلاثـا، أما إحـداهن: فإنـه حكم الرجـال في أمـر اللـه، وقـد قـال اللـه تعـالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعـام: 57]، فمـا شـأن الرجـال والحكم؟ فقلت: هذه واحدة، قـالوا: وإنـه قاتـل ولم يسـب ولم يغنم، فلئن كـانوا مؤمـنين مـا حـل لنـا قتـالهم وسـبيهم، قـالوا:

[1] () صحيح البخاري 3 / 181.

[2] () المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (5/ 124)

ومحى نفسه من أمـير المؤمـنين، فـإذا لم يكن أمـير المؤمـنين فإنه أمير الكافرين)

وبعد أن استمعت إليهم بكل هـدوء، رحت تـرد عليهم بكـل حكمة، وقـد بـدأت بمـا بـدأوا بـه، فـرددت على شـبهتهم الأولى بقولك: (أما قولكم: حكم الرجال في أمر اللـه، أنـا أقـرأ عليكم في كتاب اللـه مـا ينقض قـولكم، إن اللـه صـير من حكمـه إلى الرجـال في ربـع درهم ثمن أرنب، قـال تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَـهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَـزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائـدة: 95]، وفي المـرأة وزوجهـا، قـال تعـالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِـقَاقَ بَيْنِهِمَـا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَـا إِنْ يُرِيـدَا إِصْـلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِـيرًا﴾ [النسـاء: 35]، فنشـدتكم اللـه، هـل تعلمـون حكم الرجـال في إصـلاح ذات بينهم، وحقن دمـائهم أفضـل من حكمهم في أرنب وامـرأة، فأيهمـا تـرون أفضل؟) قالوا: بل هذه، قلت: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ثم رحت لشبهتهم الثانية تفندها قائلا: (وأمـا قـولكم: قاتـل ولم يسـب ولم يغنم، فتسـبون أمكم عائشـة، فـو اللـه إن قلتم ليسـت بأمنـا لقـد خـرجتم من الإسـلام، وإن قلتم لنسـبينها ونسـتحل منهـا مـا نسـتحل من غيرهـا خـرجتم من الإسـلام، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ثم رحت لشبهتهم الثالثة تفندها قائلا: (وأمـا قـولكم: محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن النبي ﷺ يوم الحديبيـة كـاتب أبـا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو، فقال: يا علي اكتب: هذا مـا صالح عليه محمد رسول الله، فقالوا: ما نعلم أنك رسـول اللـه، ولو نعلم ما قاتلناك، فقـال: امح يـا علي واكتب: هـذا مـا كـاتب عليه محمد بن عبد الله، فو الله لرسـول اللـه ﷺ خـير من علي

وقد محى نفسه)

وهكـذا رجـع بحـوارك الهـادئ الحكيم لهم ألفـان، وأقمت عليهم الحجة، وحين تمادوا في غيهم قام الإمام بقتالهم، بعد أن أصـبحوا خطـرا على المسـلمين، وكنت شـريكا لـه في ذلـك القتال، كما كنت شريكا له في كل حروبه.

وكان ذلك كافيا للمترددين في اتباعـك، وهم يعلمـون أنـك ترجمان القرآن، وأنك لا تقدم على أمر دون أن تعلم حكم اللــه فيه.. لكنهم عزلوك كما عزلوا عمارا، وكل من أخبر رسول الله ﷺ عن ثباتهم في الدين ووفائهم بعهودهم.

وهكذا كنت تمارس وظيفتك في الرد على كل التحريفـات التي حصلت في الدين، فما إن تسمع بطائفـة قـالت مقولـة إلا ورحت إليهـا تنبههـا وتحاورهـا وتـدعوها إلى اللـه بالحكمـة والموعظة الحسنة، وقـد حـدث وهب قـال: (طـاف ابن عبـاس بالبيت حين أصبح أسبوعاً، وكان قد رقّ بصره، فكان يتوكأ على العصـا، فلمّـا فـرغ من طوافـه انصـرف إلى الحطيم، فصـلى ركعتين، ثم نهض فنهضنا معه، ثم انطلق بنا إلى غـربي الكعبـة، فوقفنا على قوم بلغ ابن عباس أنّهم يخوضون في حديث القدر وغيره ممّا يختلـف النـاس فيـه، فلمّـا وقـف عليهم سـلّم عليهم فأجـابوه، فرحبّـوا بـه وأوسـعوا لـه، فكـره أن يجلس إليهم.. ثم قال: (يـا معشـر المتكلمين فيمـا لا يعـنيهم، ولا يُـردّ عليهم، ألم تعلموا أنّ لله عز وجل عباداً قد أسـكتتهم خشـيته من غـير عيّ ولا بكم، وإنّهم لهم الفصحاء النطقاء والنبلاء الأولياء والعـالمون بالله عز وجـل وبآياتـه، ولكنهم إذا ذكـروا عظمـة اللـه انقطعت ألسنتهم وكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاماً لله عز وجل وإعزازاً وإجلالاً، فإذا اسـتفاقوا من ذلـك اسـتبقوا إلى اللـه عـز وجل بالأعمال الزكيّة، يعدّون أنفسهم مع الظـالمين الخـاطئين،

وإنّهم لأنزاه أبرار، ومع المقصّـرين والمفـرّطين، وإنّهم لأكيـاس أقوياء، ولكنهم لا يرضون لله عز وجـل بالقليـل، ولا يسـتكثرون له الكثير، ولا يُدلّون عليه بالأعمال، متى ما لقيتهم فهم مهتمون مخوَّفون مروَّعون خائفون مشفقون وجلون، فأين أنتم منهم يـا معشر المبتدعين. اعلموا أنّ أعلم الناس بالقـدر أسـكتهم عنـه، وأنّ أجهل الناس بالقدر أنطقهم فيه)

وقد ذكـر وهب تـأثير موعظتـك فيهم، فقـال: (ثم انصـرف عنهم وتركهم، فبلغ ابن عباس أنّهم تفرّقوا عن مجلسـهم ذلـك، ثم لم يعودوا إليه حتى هلك ابن عباس) [1]

وقد روي طاووس بعض حوارك لهم، فقال: (كنت عند ابن عباس ومعنا رجل من القدرية، فقلت: إنّ أناساً يقولون لا قـدر، قال: أوفي القوم أحد منهم؟ قلت: لو كـان مـا كنت تصـنع بـه؟ قال: لو كان فيهم أحد منهم لأخذت برأسه، ثم قرأت عليـه آيـة كذا وكذا: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ فِي الْكِتَـابِ لَتُفْسِـدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 4]) [2]

ولم تكن تكتفي بحوارك مـع التحريفـات الدينيـة، بـل كنت تضم إليها ردودك على تلك التحريفات التي قام بهـا الانتهـازيون في سبيل تحقيق مآربهم السلطوية، والـتي حرفـوا بسـببها كـل قيم العدالة التي جاء بها الإسلام.

ومن الأمثلة على ذلك حوارك مع عمرو بن العاص بعــد أن سمعته يثني على معاوية وبني أمية، ويتناول بني هاشم، ويــذكر

1() المعرفة والتأريخ 1 / 524.

2() رواه الحاكم 2 / 360.

مشاهده بصفين ويوم التحكيم، حينها قمت بكل جرأة، وقلت: (يا عمرو إنّك بعتَ دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذهُ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذتَ منه دون ما أعطيته، وكلٌ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلمّا صارت مصر في يدك تتّبعك بالنقص عليك والتعقّب لأمرك، ثم بالعزل لك، حتى لو أنّ نفسك في يدك لأرسلتها، وذكرتَ يومك مع أبي موسى، فلا أراك فخرتَ إلا بالغدر، ولا منّيت إلاّ بالفجور والغش، وذكرت مشاهدك بصفين، فو الله ما ثقلتَ علينا يومئذ وطأتك، ولا نكأت فينا جرأتك، وإن كنت فيها لطويل اللسان وقصير السنان، آخر الحرب إذا أقبلت، وأوّلها إذا أدبرت، لك يدان، يد لا تقبضها عن شرّ، ويد لا تبسطها إلى خير، ووجهان، وجه مؤنس، ووجه موحش، ولعمري إنّ من باع دينه بدنيا غيره لحريً أن يطول حزنه على ما باع وأشترى. أما إنّ لك بياناً ولكن فيك خَطل، وإنّ لك رأياً ولكن فيك فشل، ولك قدر وفيك حسد.. وإنّ أصغر عيبك فيك لأعظم عيب في غيرك) [1]

وهكذا كنت في الوقت الذي أعلن فيه معاوية حربه للإمام علي، تبث ما تعرفه منها، وما سمعته من رسول الله ﷺ، ومن الأمثلة على ذلك قولك في بعض خطبك في ذلك الوقت: (لقد ساقنا قدر الله إلى ما قد ترون حتى كان فيما اضطرب من حبل هذه الأمّة، وانتشر من أمرها، أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام أعواناً على عليّ بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، وأوّل ذكر صلّى معه، بدري قد شهد مع رسول الله ﷺ كلّ مشاهده التي فيها الفضل، ومعاوية مشرك كان يعبد الأصنام، والذي ملك الملك

1() البيان والتبيان للجاحظ 2 / 239.

وحده، وبان به وكان أهله، لقد قاتل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ، وهو يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله، فما معاوية في هذه بأبرّ ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلكم.. **فعليكم بتقوى الله والجدّ والحزم والصبر، والله إنّا لنعلم إنّكم لعلى الحق، وأن القوم لعلى الباطل، فلا يكونُنّ أولى بالجدّ في باطلهم منكم في حقكم، أما والله إنّا لنعلم إنّ الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم) [1]**

وقلت في خطبة أخرى في الكوفة بعد ما كثر خوض الناس في أمر الحكمين: (أيّها الناس إنّ للحق أهلاً أصابوه بالتوفيق، والناس بين راضٍ به وراغبٍ عنه، وإنّما بعث عبد الله بن قيس ـ حكم أهل العراق ـ لهدى إلى ضلالة، وبعث عمرو بن العاص ـ حكم أهل الشام ـ لضلالة إلى الهدى، فلمّا التقيا رجع عبد الله عن هداه، وثبت عمرو على ضلالته، والله لئِن حُكّما بالكتاب لقد حكما عليه، وإن حُكّما بما اجتمعا عليه معاً ما اجتمعا على شيء، وإن كان حُكّما على ما سارا إليه، لقد سار عبد الله وإمامه عليّ، وسار عمرو وإمامه معاوية، فما بعد هذا من غيب ينتظر، ولكن سئموا الحرب، وأحبوا البقاء، ودفعوا البلاء، ورجا كلّ قوم صاحبهم) [2]

وهكذا ظللت على عهدك تذكر محاسنه، حتى في تلك الأيام التي أعلن فيها معاوية حربه التشويهية للإمام علي، والتي قتل بسببها الكثير، في تلك الأوقات كنت تقول، وأمام معاوية

1() وقعة صفين ، ص 359.

2() جمهرة خطب العرب 1 / 174.

نفسه: (كان أمير المؤمنين غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا دعوناه، وكان مع تقريبه إيانا وقربه منّا لا نبدأه بالكلام حتى يتبسم، فإذا هو تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، أما والله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومُه، وهو قابض على لحيته يبكي ويتململ تململ السليم، وهو يقول: يا دنيا إياي تغرّين؟ أمثلي تشوقين؟ لا حان حينك، بل زال زوالك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها. فعيشك حقير، وعمركِ قصير، وخطركِ يسير، آه آه من بُعد السفر ووحشة الطريق، وقلّة الزاد) [1]

وقلت في محل آخر تصفه: (صلوات الله على أبي الحسن عليّ، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، ومحل الحجى، وبحر الندى، وطود النهى، وعلماً للورى، ونوراً في ظلم الدّجى، وداعياً إلى المحجة العظمى، ومستمسكاً بالعروة الوثقى، وسامياً إلى الغاية القصوى، وعالماً بما في الصحف الأولى، وعاملاً ً بطاعة الملك الأعلى، وعارفاً بالتأويل والذكرى، ومتعلقاً بأسباب الهدى، وحائداً عن طرقات الردى، وسامياً إلى المجد والعلى، وقائماً بالدين والتقوى، وسيد من تقمص وارتدى بعد النبيّ المصطفى، وأفضل من صام وصلى، وأجل من ضحك وبكى، صاحب القبلتين، وهل يساويه مخلوق، كان أو يكون، كان والله للأُسد قاتلاً، وللبهم في الحرب خاتلاً، على مبغضيه لعنة الله ولعنة العبَاد إلى يوم التناد) [2]

1() المحاسن والمساوي 1 / 28.

2() الدرجات الرفيعة / 123.

ومن أوصافك لـه ذلـك الوصـف الطويـل الـذي قلت فيـه: (عليّ سـيّد المسـلمين، وإمـام المتّقين، ووارث علم الأوّلين والآخرين.. كان والله للقـرآن تاليـاً، وبـه عالمـاً عـاملاً، وللسـهو قالياً، وعن الفحشاء نائياً، وللشرك آبياً، وللمعروف فـاعلاً، وعن المنكـر ناهيـاً، وبدِينـه عارفـاً، ومِنَ اللـه خائفـاً، وعنَ الموبقـات صادفاً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، ومن دنياه سـالماً، وبعـدل البريّة قائماً، وعن المهلكات زاجراً، وبنور الله نـاظراً، ولشـهوته قـاهراً ؛ فـاق العـالمين علمـاً، وزهـداً، وورعـاً وكفافـاً، وقناعـة، وبراعـة، وعفافـاً، وحلمـاً، وكرمـاً، وجهـاداً، وهجـرة، وشـجاعة، وقرابة، وعبادة، وإخلاصاً ؛ وأقدمهم إيماناً، وسادهم زهداً وأمانة وبرّاً وحياطة.. كان والله حليف القرآن، ومـأوى الأنـام، ومـولى الأيتـام، ومنتهى الإحسـان، وملاذ الفقـراء والضـعفاء، ومعقـل الخائف.. كـان واللـه للخلـق حصـناً، وللنـاس عونـاً قويّـاً، وعلى الحـقّ صـابراً، وفي ذات اللـه مجاهـداً وفيـه محتسـباً، حتّى عـزّ الدِّين في الديار، وعُبِدَ اللـه في الأقطـار والضـواحي في الليـل والنهار، وجميع النواحي والقلاع والتلاع، والقفار والبقاع) [3]

إلى آخر أوصافك الطويلة التي لا نزال نقرؤها، ونقرأ معها كل قيم الوفاء والإخلاص والصـدق، ونـوقن معهـا اسـتجابة اللـه تعالى لدعاء نبيه ﷺ في حقكم، وأنكم حقيقـة ترجمـان للقـرآن، سواء الصامت، أو الناطق.

[3] () الديلمي في غرر الأخبار ودرر الآثار، ص 324 .

رسالة إلى أبي ذر الغفاري

سيدي أبا ذر الغفاري..

أيها الصحابي الجليل.. يا من تشرفت عيناك برؤية رسول الله ﷺ، وتشرفت أذناك بسماع كلماته وحكمه ووصاياه، وتشرف لسانك بالحكمة والدعوة والنصيحة والجهاد والصدق، وتشرف قلبك بمحبة حبيبك ﷺ والفناء فيه، وتشرف عقلك بالحقائق التي ملأت عليك كيانك، فقضيت حياتك كلها في بثها ونشرها والتضحية في سبيلها، ثم ختمتها بالشهادة في تلك الصحراء القاحلة، وأنت ممتلئ ألما لما صار إليه حال الإسلام.

بأي شيء أبدأ رسالتي لك، وأنا الذي عشقتك من صغري الباكر، عندما كنت أقرأ عن مواقفك التي تريد أن تحمي بها الإسلام من أن يتحول إلى كسروية وقيصرية وقارونية.. وأقرأ في نفس الوقت عن زهدك وورعك وتقواك.. وأقرأ عن شغفك بالبحث عن الحقائق، حتى أنك اهتديت إلى الإيمان بالله قبل أن ترى رسول الله ﷺ.. وأقرأ عن شجاعتك وبطولتك ومواجهتك للمشركين والمحرفين والمبدلين.

حتى أني احترت كما احتار الكثير في تصنيفك.. فإن ذكر الزهاد والعباد ذكرت معهم، وكنت في أولهم.. وإن ذكر المجاهدون والمحتسبون والثوار، فأنت لا تزال رمزا للمستضعفين الثائرين.. وإن ذكرت الحقائق ورجالها وأولياؤها، فأنت أحدهم، وكلهم يقتبسون منك، ويستفيدون.. وإن ذكر الصدق مع أئمة الأمة وورثتهم، فأنت أسوتهم وقدوتهم، وكل الأئمة تحدثوا عنك، وحضوا على حبك.

وكيف لا يفعلون ذلك، ورسول الله ﷺ نفسه دعانا إلى

حبك، فأنت أحد أركان الحب الأربعة التي ذكرها رسول الله ﷺ، فقـال: (أمـرني اللـه بحب أربعـة من أصـحابي، وأخـبرني أنـه يحبهم، علي منهم، وأبو ذر، وسلمان، والمقداد الكندي)

ما أعظم هذا الحديث.. وما أعظم هذه البشارة.. فأنت لم تبشر بالجنة فقط، ففي الجنـة أهـل اليمين، وغـيرهم من عامـة الناس.. لكنك بشرت بمحبة الله، وبشرت بأمر الله لرسولك ﷺ بحبك.. وبشرت فوق ذلك، لا بالجنـة، وإنمـا بشـوق الجنـة لـك، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (إن الجنـة تشـتاق إلى ثلاثـة: علي وعمار وأبي ذر) [1]

ومع ذلك لا نراك تذكر في المبشرين بالجنة، لأن المبـدلين والمغيرين أبوا أن يدخلوا في هؤلاء رجلا من غير قريش، وكـأن القرشية هي تأشيرة الدخول إلى الجنة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك الحديث، بل إن رسول اللـه ﷺ راح يعتـبرك لسـانا من ألسـنة الحـق، الـتي إن اختلفنـا عـدنا

[1] () الهيثمي في مجمع الزوائد 9 ـ 39

إليها[1].. لقــد قــال في حقــك: (مــا أقلت الغــبراء، ولا أظلت الخضراء، من رجل أصدق لهجة من أبي ذر) [2]

وهكــذا كــان حبيبــك الإمــام علي يثــني عليــك كــل حين، ويعتبرك من صحابة رسول اللــه ﷺ المنتجــبين الصــادقين، وقــد سئل عنك، فقــال: (وعى علمــا، شــحيحا حريصــا ؛ شــحيحا على دينه، حريصا على العلم، وكان يكثر السؤال، فيعطى ويمنع، أما أن قد ملئ له في وعائه حتى امتلأ)[3]

وذكر نصرتك للحق، وتضحيتك في سبيله، وإيثارك للمــوت في الصحراء على الموت في المدينة، فقال: (لم يبق اليوم أحد لا يبــالي في اللــه لومــة لائم غــير أبي ذر) ثم ضــرب بيــده إلى صدره[4].

---

1 () يمكن اعتبار حديث صدق أبي ذر وزهده من أظهر مصاديق التـواتر المعنـوي ، إذ أخرجه جملة الحفاظ على اختلاف ألفاظه كابن سـعد والترمـذي وابن ماجـة وأحمـد وابن أبي شيبة وابن جرير وأبي عمر وأبي نعيم والبغوي والحاكم وابن عساكر والطبراني وابن الجوزي وغـيرهم.. انظـر : الطبقـات 4 ـ 167 و 168 ، سـنن ابن ماجـة 1 ـ 68 ، مسـند أحمد 2 ـ 163 و 175 و 223 ، و 5 ـ 197 ، و 6 ـ 442 ، مستدرك الحـاكم 3 ـ 342 ، و 4 ـ 480 وقد صححه وأقره عليه الذهبي ، مصـابيح السـنة 2 ـ 228 ، صـفة الصـفوة 1 ـ 340 ، الاستيعاب 1 ـ 84 ، مجمـع الزوائـد 9 ـ 329 ، الإصـابة لابن حجـر 3 ـ 622 و 4 ـ 62 ، كنز العمال 6 ـ 169 و 8 ـ 15 ـ 17 ، وجملة كتب الحديث والرجال والتراجم..

2 () رواه الترمذي وابن ماجة (156)

3 () رواه الضياء في المختارة (2/ 123)

4 () رواه ابن سعد الطبقات الكبرى، (4/231)

ولما لك من هذه المنزلة الرفيعة في الدين، فقد شاء الله أن تبتلى كما ابتلي الأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل، وقد بشرك رسول الله ﷺ بذلك، وقد قلت تحدث عن نفسك: بينا أنا واقـف مـع رسـول اللـه ﷺ، فقـال لي: (يـا أبـا ذر أنت رجـل صـالح، وسيصيبك بلاء بعدي)، قلت: في اللـه؟ قـال: (في اللـه)، قلت: مرحبا بأمر الله[1].

بـل إنـه أخـبر عن هيئـة موتـك والجماعـة الـتي تتشـرف بالصلاة عليك، وأخـبر أنـك في حياتـك جميعـا، وبسـبب نصـرتك للحق، ستكون وحدك، فقال: (يـرحم اللـه أبـا ذر يمشـى وحـده ويموت وحده ويبعث وحده) [2]

1. معرفة الحق:

دعني ـ سيدي ـ قبل أن أذكر دورك في نصرة الحق، أذكـر معرفتك للحـق، وتربيـة اللـه وهدايتـه لـك إليـه، وأنت في تلـك الصـحراء القاحلـة، بين قـوم امتلأوا شـركا وضـلالا، لكنـك كنت المميز بينهم.. حيث رحت تبحث عن الله، وتصـلي لـه، قبـل أن تسمع برسول الله ﷺ.

لقـد حـدثوا عنـك أنـك كنت تقـول ــ لمن سـألك عن سـر اهتدائك للإسلام ـ: (يا ابن أخي قد صليت قبل أن ألقى، رسـول الله ﷺ ثلاث سنين)، فقال: لمن؟ قلت: (للـه عـز وجـل)، قـال: أين توجهت؟ قلت: (حيث وجهني الله عـز وجـل، أصـلي عشـاء حتى إذا كان من آخـر السـحر ألقيت كـأني خفـاء حـتى تعلـوني

---

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 162)

[2] () الحاكم (3/52، رقم 4373) وقال: صحيح الإسناد. وابن عساكر (66/216)

الشمس)[1]

وهذا هو معنى الاجتباء والهداية الخاصة التي خص الله بهـا من شرفهم بالاصطفاء من أصحاب رسـول اللـه ﷺ.. لـذلك مـا إن سمعت بالإسلام حـتى هـرعت إليـه، لم تـتردد، بـل كنت من السابقين على الرغم من بعد دارك، فقد كنت تقول: (كنت رابع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة وأنا الرابع) [2]

وحـدثت عن كيفيـة دخولـك للإسـلام، فقلت: (إن أول مـا دعاني إلى الإسلام أنا أصابتنا السـنة، فحملت أمي وأخي أنيسـا إلى أصهار لنا بأعلى نجد، فلما حللنا بهم أكرمونا، فمشى رجـل من الحي إلى خالي فقال: إن أنيسا يخالفك إلى أهلك فحـز في قلبه، فانصرفت من رعيـة إبلي فوجدتـه كئيبـا يبكي، فقلت: مـا بكاؤك يا خال؟ فأعلمني الخبر فقلت: حجـز اللـه من ذلـك، إنـا نعاف الفاحشة، وإن كان الزمان قد أخـل بنـا، فـاحتملت بـأخي وأمي حتى نزلنا بحضرة مكـة، فـأتيت مكـة وقـد بلغـني أن بهـا صـابئا، أو مجنونـا أو سـاحرا، فقلت: أين هـذا الـذي تزعمونـه؟ قالوا: ها هـو ذاك حيث تـرى، فـانقلبت إليـه، فواللـه مـا جـزت عنهم قيـد حجـر حـتى أكبـوا علي بكـل عظيم وحجـر ومـدر فضـرجوني بـدمي، فـأتيت الـبيت فـدخلت بين السـتور والبنـاء وصومت فيه ثلاثين يوما لا أكل ولا أشرب إلا من ماء زمزم) [3]

وبمجرد إسلامك، رحت تنهل المعارف الإيمانية من رسـول

1 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 157)

2 () المرجع السابق(1/ 157)

3 () المرجع السابق(1/ 157)

الله ﷺ، ولم يكن ذلك شديدا عليك، ولا صعبا، فقلبك كـان مثـل ذلك المصباح الذي يكاد ﴿ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَـارٌ نُـورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 35]

وقد كان لـذلك النـور النبـوي الـذي ملأ كيانـك كلـه تـأثيره المباشر فيك، حتى أنـك لم تسـتطع كتمـان مـا غمـر قلبـك من الحقائق، فرحت تطلب من رسول اللـه ﷺ أن تنفس عن قلبـك بـالجهر بـالحق في ذلـك الواقـع المملـوء بالطغيـان، لقـد قلت تحـدث عن نفسـك: (أقمت مـع رسـول اللـه ﷺ بمكـة فعلمـني الإسلام، وقرأت من القرآن شيئا فقلت: يا رسول الله إني أريـد أن أظهـر ديـني، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (إني أخـاف عليـك أن تقتل)، قلت: لا بد منه وإن قتلت، فسكت عني، فجئت وقـريش حلقا يتحدثون في المسجد فقلت: أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمدا رسول الله، فانتفضـت الخلـق فقـاموا فضـربوني، حـتى تركوني كأني نصب أحمر، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني، فأفقت فجئت إلى رسول الله ﷺ فرأى ما بي من الحال، فقال لي: ألم أنهك؟ فقلت: يا رسول الله كـانت حاجـة في نفسـي فقضـيتها، فأقمت مـع رسـول اللـه ﷺ فقـال: (الحـق بقومـك، فـإذا بلغـك ظهوري فأتني)[1]

وهكذا كنت أول رسول يكلف بهدايـة قومـه، لقـد ذكـر ابن عباس موقفك هـذا، وإعجـاب رسـول اللـه ﷺ، ودعوتـك بسـببه لهداية قومك، فقال: (دخل أبو ذر على رسول الله ﷺ فقال: يـا رسول الله مرني بما شئت، فقال: (ارجع إلى أهلك حتى يأتيـك خبري)، فقلت: والله ما كنت لأرجع حتى أصرخ بالإسلام، فخرج إلى المسجد فصاح بأعلى صوته فقال: أشهد أن لا إله إلا اللـه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فقال المشركون: صبأ الرجل،

[1] () المرجع السابق(1/ 158)

صبأ الرجل، فقاموا إليه فضربوه حتى سـقط، فمـر بـه العبـاس فقال: يا معشر قريش أنتم تجار وطريقكم على غفار، أتريـدون أن يقطع الطريق؟ فأكب عليه العباس فتفرقوا، فلما كان الغــد عاد إلى مثل قوله فقاموا إليه فضربوه، فمر بـه العبـاس فقـال لهم مثل ما قال، ثم أكب عليه)[1]

وقد كان من فضل الله عليك، وأنت في صحبة رسول الله ﷺ أن تتشرف بـأول سـلام في الإسـلام، فقـد قلت تحـدث عن نفسك: (انتهيت إلى النبي ﷺ حين قضى صـلاته فقلت: السـلام عليـك، فقـال: (وعليـك السـلام)، فكنت أول من حيـاه بتحيـة الإسلام[2]

وأخبرت عن تربية رسول الله ﷺ لك، وما أخذه عليــك من المواثيق، فقلت: (بايعني رسول الله ﷺ خمسا، وواثقني سـبعا، وأشـهد علي تسـعا، أن لا أخـاف في اللـه لومـة لائم. قـال أبـو المثنى: قال أبو ذر: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: (هل لــك إلى بيعة، ولك الجنة؟) قلت: نعم. وبسطت يدي، فقال رسـول اللـه ﷺ، وهـو يشـترط علي: (أن لا تسـأل النـاس شـيئا) قلت: نعم. قال: (ولا سوطك إن يسقط منك، حتى تنزل إليه فتأخذه) [3]

وذكــرت بعض عهـودك، فقلت: (أمــرني خليلي ﷺ بسـبع: (أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصـل الـرحم

1() المرجع السابق(1/ 158)

2() المرجع السابق(1/ 159)

3() رواه أحمد (21509)

وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحـدا شـيئا، وأمـرني أن أقـول بالحق وإن كان مـرا، وأمـرني أن لا أخـاف في اللـه لومـة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قـوة إلا باللـه، فـإنهن من كنز تحت العرش) [1]

وهكذا كنت كثير السـؤال لرسـول اللـه ﷺ لعلمـك بالـدور المناط بك بعد وفاته ﷺ، وقد قلت تحدث عن نفسك، وعلاقتـك برسول اللـه ﷺ: سـألت رسـول اللـه ﷺ عن كـل شـيء، حـتى سألته عن مس الحصا، فقال: (مسه مرة أو دع) [2]

ومن أسـئلتك المهمـة الـتي لا تـزال تمتلئ بهـا دواوين المحدثين ما حدثت بـه، فقلت: دخلت على رسـول اللـه ﷺ في المسجد، فقال رسول اللـه ﷺ: (إن للمسـجد تحيـة) قلت: ومـا تحيته، يا رسول الله؟ قال: (ركعتان تركعهما) [3]

وهكذا كنت تسـأله عن كـل مـا يعتلج في صـدرك من حب لمعرفة الحقائق المتعلقة بالكون والحيـاة وكـل شـيء من غـير من أن تقع فيما وقع فيه بعضهم حين كان يترك رسول اللــه ﷺ ويذهب ليسأل أهل الكتاب..

ومن أسئلتك في هذا قولك: يا رسول الله، هل أنـزل اللـه عليك شيئا مما كان في صحف إبـراهيم وموسـى؟.. فقـال لـك رسول الله ﷺ مباشرة بعد سؤالك له: يا أبا ذر، اقرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ

[1] () رواه أحمد (21415)

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 169)

[3] () رواه أحمد، 21546، وابن حبان (361)، والحاكم: 4166.

مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)﴾ [الأعلى: 14 - 19]) [1]

وسألته عن صحف موسى عليه السلام، فقال لك: (كانت عبرا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت، ثم يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب، عجبت لمن أيقن بالحساب، ثم لا يعمل) [2]

وسألته عن الأنبياء، وأيهم كان أولا، فقال: (آدم)، فقلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: (نعم نبي مكلم).. فقلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: (ثلاث مائة وبضعة عشر، جما غفيرا)، فقلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: (آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [3]

وسألته عن الصلاة، فقال: (خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر).. وسألته عن الصوم، فقال: (قرض مجزئ، وعند الله مزيد).. وسألته عن الصدقة، فقال: (أضعاف مضاعفة).. وسألته عن أفضلها، فقال: (جهد من مقل، أو سر إلى فقير) [4]

---

1 () المرجع السابق.

2 () المرجع السابق.

3 () المرجع السابق.

وهكذا سألته عن أي الأعمال أحب إلى الله، فقال: (إيمـان باللـه -عـز وجـل- وجهـاد في سـبيله).. فسـألته: أي المؤمـنين أكملهم إيمانا؟ فقال: (أحسـنهم خلقـا).. فسـألته: أي المؤمـنين أسلم؟ فقال: (من سلم الناس من لسانه ويده).. فسألته: فـأي الهجرة أفضل؟ فقال: (من هجر السيئات).. فسألته: فأي الليل أفضـل؟ فقـال: (جـوف الليـل الغـابر).. فسـألته: فـأي الصـلاة أفضل؟ فقال: (طول القنوت).. فسـألته: فمـا الصـيام؟ فقـال: (فرض مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة).. فسـألته: فـأي الجهـاد أفضل؛ قـال: (من عقـر جـواده وأهريـق دمـه).. فسـألته: فـأي الرقـاب أفضـل؟ فقـال: (أغلاهـا ثمنـا وأنفسـها عنـد أهلهـا).. فسألته: فأي الصدقة أفضل؟ فقـال: (جهـد من مقـل تسـر إلى فقير) [1]

وهكذا كان كلما ذكر لك معنى من المعاني، أو مسـألة من المسائل، رحت تطلب بكل هـدوء وأدب معرفتهـا، فعنـدما قـال لك: (يا أبا ذر، تعوذ بالله من شـر شـياطين الإنس والجن) قلت له: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: (نعم) [2]

وعندما قال لك: (اذكر اللـه ذكـرا خـاملا)، قلت يـا رسـول الله: وما الذكر الخامل؟ فقال: (الذكر الخفي) [3]

4() المرجع السابق.

1() المرجع السابق.

2() الأمالي للطوسي ص: 535.

3() المرجع السابق.

وعندما قال لك: (إن العبـد ليـذنب فيـدخل إلى اللـه بذنبـه ذلك الجنة)، قلت: وكيف ذلك، يا رسول الله؟ قال: (يكون ذلـك الذنب نصب عينه تائبا منه فارا إلى الله حتى يدخل الجنة) [1]

وعنــدما قــال لــك: (إذا دخــل النــور القلب انفتح القلب واستوسـع)، قلت: مـا علامـة ذلـك، بـأبي أنت وأمي يـا رسـول الله؟ قال: (الإنابـة إلى دار الخلـود، والتجـافي عن دار الغـرور، والاستعداد للموت قبل نزوله) [2]

وعنــدما قــال لــك: (أ تحب أن تــدخل الجنــة؟)، قلت: نعم فـداك أبي، فقـال: (فاقصـر من الأمـل، واجعـل المـوت نصـب عينك، واستح من الله حق الحياء)، فقلت: يا رسـول اللـه، كلنـا نستحي من اللـه.. قـال: (ليس كـذلك الحيـاء، ولكن الحيـاء من الله أن لا تنسـى المقـابر والبلى، والجـوف ومـا وعى، والـرأس وما حوى، فمن أراد كرامة الأجر فليـدع زينـة الـدنيا، فـإذا كنت كذلك أصبت ولاية الله) [3]

وعندما قـال لـك: (اسـتغن بغـنى اللـه)، قلت: ومـا هـو يـا رسول الله؟ قال: (غداء يوم، وعشاء ليلة، فمن قَنَـع بمـا رزقـه الله ـ يا أبا ذر ـ فهو أغنى الناس) [4]

---

1 () المرجع السابق.

2 () المرجع السابق.

3 () المرجع السابق.

4 () المرجع السابق.

وعنـدما قـال لـك: (من لم يـأت يـوم القيامـة بثلاث، فقـد خَسِر)، قلت: وما الثلاث فداك أبي وأمي يـا رسـول اللـه؟ قـال ﷺ: (ورع يحجــزه عمَّا حــرم اللــه عليــه، وحِلم يَـردّ بــه جَهــلَ السفيه، وخلق يداري به الناس) [1]

وعندما قـال لـك: (من أجـاب داعي اللـه تعـالى، وأحسَـنَ عِمارة مساجد الله، كان ثوابه من الله الجنـة)، قلت: بـأبي أنت وأمي يا رسول الله. كيف نعمر مساجد الله؟ فقال ﷺ: (لا تُرفع فيها الأصوات ولا يُخاض فيها بالباطل، ولا يشترى فيها ولا يبــاع، واتركِ اللغو ما دمت فيها، فان لم تفعل فلا تلومنَّ يـوم القيامـة إلا نفسك)، ثم سـألك: (أتعلم في أي شـيء أُنـزلت هـذه الآيـة: اصبروا وصَابِروا ورَبِطوا واتقوا اللــه لعلكم تفلحــون؟) قلت: لا، فداك أبي وأمي، فقال ﷺ: (في انتظار الصلاة خلف الصلاة) [2]

ثم قـال لـك: (يـا أبـا ذر: إسـباغ الوضـوء في المَكَـارِه من الكفارات، وكثرة الاختلاف إلى المساجد، فذلكم الرباط.. يقـول اللــه تبــارك وتعــالى: أن أحبَّ العبــاد إلي، المتحــابون بحلال، المتعلقة قلوبهم بالمساجد، والمستغفرون بالأسـحار، أولئـك إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبـة، ذكـرتُهم ! فصـرفتُ العقوبـة عنهم.. كُلّ جلوس في المسجد لَغو إلا ثلاثة، قراءة مُصلّ، أو ذكر اللــه، أو سائل عن علم) [3]

وعندما قال لك: (من ملك ما بين فخذيـه، ومـا بين لحييـه،

---

[1] () المرجع السابق.

[2] () المرجع السابق.

[3] () المرجع السابق.

دخل الجنـة) قلت: يـا رسـول اللـه فإنـا لنؤاخـذ بمـا ننطـق من ألسـنتنا؟ قـال: (وهـل يَكبّ النـاس على منـاخرهم في النـار إلا حصاد ألسنتهم، إنك لا تزال سالماً ما سكتَّ، فـاذا تكلمت يكتب لك أو عليك) [1]

وعنـدما قـال لـك: (مَن صَـمتَ نجـا. فعليـك بالصـدق، ولا تخـرجن من فمـك كذبـة أبـداً) قلت: يـا رسـول اللـه فمـا توبـة الرجل الذي يكذب متعمداً؟ قال: (الاستغفار، وصـلوات الخمس يغسل ذلك) [2]

وعندما قـال لـك: (سـباب المسـلم فُسـوق، وقِتالـه كفـر، وأكل لحمه من معاصي الله، وحرمة ماله كحرمة دمه) قلت: يا رسول الله. وما الغيبة؟ قال: ذِكـرك أخـاك بمـا يكـره. قلت: يـا رسول الله فمن كان فيه ذلك الذي ذكرته؟ قال: (اعلم انـك اذا ذكرته بما هو فيه، فقد اغتبته ! وإن ذكرتـه بمـا ليس فيـه، فقـد بهتَّه) [3]

وهكذا كانت أسئلتك كلهـا تبحث عن الحقـائق والقيم، ولم تكن من أولئـك المجـادلين الـذين يهتمـون بالتفاصـيل الـتي لا تغنيهم في دنيـاهم وأخـراهم، والـتي لجـأوا لطلب معرفتهـا من عــدوك اللــدود كعب الأحبــار، الــذي كــان ســببا في نفيــك واستشهادك في الصحراء.

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

ولم يكن رسـول اللـه ﷺ يكتفي بسـؤالك لـه، وإنمـا كـان يعلمك ويوصيك كل حين، لعلمه أنك ستبلغ تلك الوصـايا بقولـك وفعلك، وأنك ستضحي بكل شيء في سبيل تبليغها، وخاصة في تلك الفترة التي يبدأ فيهـا الشـيطان في إقامـة أسـواق التغيـير والتبديل.

ومن وصـايا رسـول اللـه ﷺ لـك.. والـتي تـدل على مـدى اهتمامه بك ـ وكيف لا يهتم بك، وقـد أمـره اللـه بحبـك؟ ــ تلـك الوصية الجامعـة الـتي طلبتهـا منـه ﷺ عنـدما رأيتـه جالسـا في المسـجد، وبجنبـه الإمـام علي، فـاغتنمت الفرصـة، وقلت: يـا رسول الله، بأبي أنت وأمي أوصـني بوصـية ينفعـني اللـه بهـا.. فأجابك رسول الله ﷺ بقوله: (نعم وأكرم بك يا أبا ذر، إنـك منـا أهل البيت، وإني موصيك بوصية إذا حفظتها فإنها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنك إن حفظتها كان لك بها كفلان)[1]

كانت تلك الكلمات نورا أضاء قلبك، فراح يستمع بكـل ذرة فيه إلى كلمات خليله ﷺ، ويسـتوعبها حرفـا حرفـا، ليبلغهـا بعـد ذلك للأمة، ويبلغ معها القيم الرفيعة، ودين الله الأصيل.

لقد قال لك رسول الله ﷺ، وهو يـدلك على معـراج الفـوز الروحاني: (يا أبا ذر، اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنـه عز وجل يراك، واعلم أن أول عبادته المعرفة به بأنه الأول قبل كل شيء فلا شيء قبله، والفرد فلا ثـاني معـه، والبـاقي لا إلى غاية، فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شــيء، وهو الله اللطيف الخبير، وهو على كل شيء قـدير، ثم الإيمـان بي والإقرار بأن الله عز وجل أرسلني إلى كافـة النـاس بشـيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منـيرا، ثم حب أهـل بيـتي

1() الأمالي للطوسي ص : 526.

الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهـيرا.. واعلم يـا أبـا ذر، أن الله تعالى جعل أهل بيتي كسفينة النجاة في قـوم نـوح، من ركبها نجا، ومن رغب عنها غرق، ومثل بـاب حطـة في بـني إسرائيل من دخلها كان آمنا) [1]

ثم قال لك: (يا أبا ذر، احفظ ما أوصيتك به تكن سعيدا في الدنيا والآخرة).. ثم راح يبث وصاياه إليك، لعلمه بأنك ستوصلها للأمة بعده.

ومن تلك الوصايا قوله لك، وهو يـدعوك إلى الحـرص على كل أنفاس العمر حتى لا تضيع هدرا: (يا أبـا ذر، نعمتـان مغبـون فيهما كثير من الناس الصحة، والفراغ.. يـا أبـا ذر، اغتنم خمسـا قبل خمس شبابك قبل هرمـك، وصـحتك قبـل سـقمك، وغنـاك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.. يا أبــا ذر، إياك والتسويف بأملك، فإنك بيومك ولست بما بعـده، فـإن يكن غد لك تكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غد لك لم تندم على ما فرطت في اليوم.. يا أبا ذر، كم من مستقبل يومـا لا يستكمله ومنتظر غدا لا يبلغه.. يا أبا ذر، لو نظرت إلى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره.. يا أبا ذر، كن في الـدنيا كأنـك غريبا وكعابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبـور.. يـا أبـا ذر، إذا أصـبحت فلا تحـدث نفسـك بالمسـاء، وإذا أمسـيت فلا تحـدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتـك قبـل موتك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا.. يا أبـا ذر، إيـاك أن تـدركك الصرعة عند الغرة فلا تمكن من الرجعة، ولا يحمدك من خلفت بما تركت، ولا يعذرك من تقدم عليه بما به اشتغلت.. يا أبــا ذر، ما رأيت كالنار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها)[2]

1() الأمالي للطوسي ص : 526.

ودعاك للشح بدينك لعلمه بالإغراءات التي ستتعرض لها، فقال: (يا أبا ذر، كن على عمرك أشح منك على درهمك ودينارك. يا أبا ذر، هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغيا، أو فقيرا منسيا، أو مرضا مضنيا، أو هرما مفندا، أو موتا محيرا أو الدجال فإنه شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر) [1]

ودعاك إلى حفظ علمك حتى لا يسرقه اللصوص والشياطين والأهواء، فقال: (يا أبا ذر، إن شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه، ومن طلب علما ليصرف به وجوه الناس إليه لم يجد ريح الجنة.. يا أبا ذر، إذا سئلت عن علم لا تعلمه فقل لا أعلمه. تنج من تبعته، ولا تفت الناس بما لا علم لك به تنج من عذاب يوم القيامة) [2]

ودعاك إلى أن تمثل الإسلام الأصيل بعملك قبل أن تمثله بقولك، فقال: (يا أبا ذر، يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار فيقولون ما أدخلكم النار، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم فيقولون إنا كنا نأمركم بالخير ولا نفعله) [3]

ودعاك إلى تجديد التوبة كل حين، فحق الله أعظم من أن يؤدى، فقال: (يا أبا ذر، إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله عز وجل أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن

2() الأمالي للطوسي ص: 527

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

أمسوا تـائبين وأصـبحوا تـائبين. يـا أبـا ذر، إنكم في ممـر الليـل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيرا يوشك أن يحصد رغبة، ومن يزرع شـرا يوشـك أن يحصد ندامة، ولكل زارع ما زرع) [1]

ودعـاك إلى تحقيـق العبوديـة للـه، والتسـليم لـه، وعـدم الحرص على ما لم يكتب لك، فقال: (يا أبا ذر، لا يسـبق بطي ء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له، ومن أعطى خـيرا فاللـه عز وجل أعطاه، ومن وقى شرا فإن الله وقاه) [2]

ودعاك إلى التمييز بين الصالحين وغـيرهم، فقـال: (يـا أبـا ذر، المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة) [3]

ودعاك إلى الحذر من الـذنوب، فهي المنفـذ الـذي ولج بـه الشيطان لهذه الأمة، حين دعاهـا إلى الإرجـاء، وغرهـا بالأمـاني الكاذبـة، فقـال: (يـا أبـا ذر، إن المـؤمن لـيرى ذنبـه كأنـه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مر على أنفه. يا أبا ذر، إن الله إذا أراد بعبد خيرا جعل الذنوب بين عينيه ممثلة. يا أبا ذر، لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظـر إلى من عصـيت. يـا أبـا ذر، إن نفس المـؤمن أشـد تقلبـا وخيفـة من العصفور حين يقذف بـه في شـرك. يـا أبـا ذر، من وافـق قولـه فعله فذاك الـذي أصـاب حظـه، ومن خـالف قولـه فعلـه فـذلك المرء إنما يوبخ نفسه. يا أبا ذر، إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب

[1] () المرجع السابق.

[2] () المرجع السابق.

[3] () المرجع السابق.

يصيبه. يا أبا ذر، إنك إذا طلبت شيئا من الآخرة واتبعته تيسر لك، وإذا رأيت شيئا من أمر الدنيا واتبعته عسر عليك، فإنك على حال خشيته) [1]

ودعاك إلى حفظ اللسان وتجنب آفاته، فقال: (يا أبا ذر، لا تنطق فيما لا يعنيك فإنك لست منه في شيء، واحرز لسانك كما تحرز رزقك) [2]

ودعاك إلى رفع همتك لتنال الدرجات العليا في الجنة، فقال: (يا أبا ذر، إن الله جل ثناؤه ليدخل قوما الجنة فيعطيهم حتى تنتهي أمانيهم، وفوقهم قوم في الدرجات العلى، فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون ربنا إخواننا كنا معهم في الدنيا، فبم فضلتهم علينا؟ فيقال هيهات، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمئون حين تروون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون) [3]

ودعاك إلى الاهتمام بالصلاة وتعظيمها ومحبتها، وعدم الاكتفاء بالأداء الشكلي لها، وضرب لك المثل عن نفسه ﷺ لترتفع همتك لما ارتفعت له همة حبيبك، فقال: (يا أبا ذر، إن الله تعالى جعل قرة عيني في الصلاة وحببها إلي كما حبب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء، فإن الجائع إذا أكل الطعام شبع، وإذا شرب الماء روي، وأنا لا أشبع من الصلاة) [4]

---

1 () الأمالي للطوسي ص: 528.

2 () المرجع السابق.

3 () المرجع السابق.

ودعاك إلى تعلم مقاصد الصلاة حتى تؤديها مراعيا لها، فقال: (يا أبا ذر، إنك ما دمت في الصلاة فإنك تقرع باب الملك، ومن يكثر قرع باب الملك يفتح. يا أبا ذر، ما من مؤمن يقوم إلى الصلاة إلا تناثر عليه البر ما بينه وبين العرش، ووكل به ملك ينادي يا ابن آدم، لو تعلم ما لك في صلاتك ومن تناجي ما سئمت ولا التفت.. يا أبا ذر، طوبى لأصحاب الألوية يوم القيامة، يحملونها فيسبقون الناس إلى الجنة، ألا وهم السابقون إلى المساجد بالأسحار وغيرها. يا أبا ذر، لا تجعل بيتك قبرا، واجعل فيه من صلاتك يضئ ء بها قبرك) [1]

ودعاك إلى الحرص على كل أعمال الخير، ومراعاة مراتبها، فقال: (يا أبا ذر، الصلاة عمود الدين واللسان أكبر، والصدقة تمحو الخطيئة واللسان أكبر) [2]

ودعاك إلى رفع همتك لتنال الدرجات العليا، فقال: (يا أبا ذر، الدرجة في الجنة فوق الدرجة كما بين السماء والأرض، وإن العبد ليرفع بصره فيلمع له نور يكاد يخطف بصره، فيفرح فيقول ما هذا فيقال هذا نور أخيك المؤمن. فيقول هذا أخي فلان، كنا نعمل جميعا في الدنيا، وقد فضل علي هكذا فيقال إنه كان أفضل منك عملا، ثم يجعل في قلبه الرضا حتى يرضى) [3]

4() المرجع السابق.

1() الأمالي للطوسي ص: 529.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

ودعـاك إلى الزهـد في الـدنيا، فلا ينـال الآخـرة ودرجاتهـا العليـا من حـرص على الـدنيا، فقـال: (يـا أبـا ذر، الـدنيا سـجن المؤمن وجنـة الكـافر، ومـا أصـبح فيهـا مـؤمن إلا وهـو حـزين، وكيف لا يحزن المؤمن وقد أوعده الله أنه وارد جهنم ولم يعـده أنه صادر عنها) [1]

ودعاك إلى البكـاء ليتطهـر قلبـك من كـل أدرانـه، ويصـبح صالحا للمعاني السامية، فقال: (يـا أبـا ذر، ومن أوتي من العلم ما لا يعمل به لحقيق أن يكون أوتي علما لا ينفعه الله عز وجـل به، لأن الله جل ثناؤه نعت العلماء فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُـونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُـولًا (108) وَيَخِـرُّونَ لِلْأَذْقَـانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: 107 ـ 109] يا أبا ذر، من اسـتطاع أن يبكي قلبـه فليبـك، ومن لم يسـتطع فليشـعر قلبـه الحـزن، وليتبـاك.. يـا أبـا ذر، إن القلب القاسـي بعيـد من اللـه ولكن لا تشعرون) [2]

ودعـاك إلى الإخلاص والصـدق مـع اللـه، والبعـد عن كـل مظـاهر الشـرك الخفي، فقـال: (يـا أبـا ذر، مـا من خطيب إلا عرضت عليه خطبته يوم القيامة وما أراد بها. يا أبا ذر، إن صلاة النافلـة في السـر تفضـل على العلانيـة كفضـل الفريضـة على النافلة. يا أبا ذر، ما يتقـرب العبـد إلى اللـه بشـي ء أفضـل من السجود) [3]

---

1 () المرجع السابق.

2 () الأمالي للطوسي ص: 530.

3 () المرجع السابق.

ودعاك إلى الخوف والرجاء، حتى لا تيأس من رحمة اللــه، ولا تأمن من ذنوبك، فقال: (يـا أبـا ذر، يقـول اللـه عـز وجـل: لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإذا أمنــني أخفتــه يوم القيامة، وإذا خافني أمنتــه يــوم القيامــة.. يـا أبـا ذر، لـو أن رجلا كان له مثل عمل سبعين نبيا لاحتقــره وخشــي أن لا ينجــو من شر يوم القيامة.. يا أبا ذر، إن العبد لتعرض عليه ذنوبه يــوم القيامة فيقول: أما إني قد كنت منك مشفقا، فيغفر لـه.. يـا أبـا ذر، إن الرجل ليعمل الحسنة فيتكـل عليهـا، ويعمـل المحقـرات فيأتي الله عز وجل وهو من الأشقياء، وإن الرجل ليعمل السيئة فيفرق منها فيأتي الله عز وجل آمنا يوم القيامة) [1]

ودعاك إلى اليقظة والعزيمة والحرص على العمل الصالح، والتي تفتح لك جميـع أبـواب الإرادة، فقـال لـك: (يـا أبـا ذر، إن الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد المـوت، والعـاجز من اتبـع نفسه وهواها، وتمنى على الله عز وجل الأمـاني. يـا أبـا ذر، إن أول شيء يرفع من هذه الأمــة الأمانــة والخشــوع حــتى لا تكـاد ترى خاشعا) [2]

ثم حذرك من الدنيا، وفتنها، فقال: (يا أبا ذر، والــذي نفس محمد بيده لو أن الدنيا كـانت تعـدل عنـد اللـه عـز وجـل جنـاح بعوضة ما سقى الكافر والفاجر منها شربة من ماء.. يــا أبــا ذر، إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا مـا ابتغى بـه وجـه اللـه عـز وجل.. يا أبا ذر، ما من شيء أبغض إلى اللــه من الــدنيا، خلقهـا ثم أعــرض عنهـا فلم ينظــر إليهـا، ولا ينظــر إليهـا حــتى تقــوم الســاعة، ومـا من شـيء أحب إلى اللـه تعـالى من الإيمـان بـه

[1] () المرجع السابق.

[2] () المرجع السابق.

وترك ما أمر أن يترك.. يا أبا ذر، إن الله تعــالى أوحى إلى أخي عيسى عليه السلام: يا عيسى، لا تحب الدنيا فإني لست أحبهـا، وأحب الآخرة فإنها دار المعاد.. يا أبا ذر، إن جبريل عليه السلام أتاني بخزائن الدنيا، فقال: يا محمـد إن هـذه خـزائن الأرض ولا تنقصك من حظـك عنـد ربـك تعـالى، فقلت: حبيـبي جبرئيـل، لا حاجة لي فيها، إذا شبعت شكرت ربي، وإذا جعت سألته)[1]

ودعاك إلى الزهد، فقال: (يا أبا ذر، إذا أراد الله بعبد خــيرا فقهه في الدين، وزهده في الدنيا، وبصره بعيوب نفسه.. يـا أبـا ذر، ما زهد عبد في الدنيا إلا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصره عيوب الـدنيا وداءهـا ودواءهـا، وأخرجـه منهـا سالما إلى دار السلام.. يـا أبـا ذر، إذا رأيت أخـاك قـد زهـد في الدنيا فاستمع منه، فإنه يلقي إليك الحكمة) [2]

فقلت: يـا رسـول اللـه، من أزهـد النـاس، فقـال: (من لم ينس المقابر والبلى، وترك ما يفنى لما يبقى، ومن لم يعـد غـدا من أيامه، وعد نفسه في الموتى)

ثم قـال لـك رسـول اللـه ﷺ يـدعوك إلى التأسـي بـه في زهده: (يا أبا ذر، إن الله تعالى لم يوح إلي أن أجمع المال، لكن أوحى إلي أن ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَـكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجـر: 98، 99].. يـا أبـا ذر، إني ألبس الغليظ، وأجلس على الأرض، وأركب الحمار بغـير سـرج، وأردف خلفي، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[3]

---

[1] () الأمالي للطوسي ص: 531.

[2] () المرجع السابق.

ودعاك إلى الحذر من كـل الآفـات الـتي تبعـدك عن ربـك، فقال: (يا أبـا ذر، حب المـال والشـرف مـذهب لـدين الرجـل)، فقلت: يــا رســول اللــه، الخــائفون الخاضــعون المتواضــعون الذاكرون الله كثيرا يستبقون الناس إلى الجنة، قـال: (لا، ولكن فقـراء المؤمـنين، فـإنهم يـأتون يـوم القيامـة فيتخطـون رقـاب الناس، فيقول لهم خزنة الجنة كما أنتم حتى تحاسبوا. فيقولون بم نحاسب فو الله ما ملكنا حتى نجور ونعـدل، ولا أفيض علينـا فنقبض ونبسط، ولكنا عبدنا ربنا حتى أتانا اليقين.. يا أبـا ذر، إن الدنيا مشغلة للقلب والبدن، فإن الله عز وجل يسأل أهل الدنيا عما نعموا في حلالها، فكيف بما نعموا في حرامها يا أبا ذر، إني قـد سـألت اللـه عـز وجـل أن يجعـل رزق من أحبـني الكفـاف، ويعطي من أبغضني المال والبنين) [1]

ودعـاك إلى التأسـي بالزهـاد والصـالحين، لا بأهـل الـدنيا، فقـال: (يـا أبـا ذر، طـوبى للزاهـدين في الـدنيا، الراغـبين في الآخرة، الذين اتخذوا أرض الله بساطا، وترابهـا فراشـا، وماءهـا طيبا، واتخذوا الكتاب شعارا، والدعاء لله دثـارا، وقرضـوا الـدنيا قرضا.. يا أبا ذر، إن حرث الآخرة العمل الصـالح، وحـرث الـدنيا المال والبنون.. يا أبا ذر، إن رب يتبارك اسـمه أخـبرني، فقـال: وعزتي وجلالي، ما أدرك العابدون درك البكاء عندي شيئا، وإني لأبني لهم في الرفيق الأعلى قصرا لا يشاركهم فيه أحد) [2]

وحذرك من أن يصرفك الدعاء عن العمـل، فقـال: (يـا أبـا

3() الأمالي للطوسي ص: 532.

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

ذر: يكفي من الدعاء مع البر، ما يكفي الطعام من الملح.. يا أبا ذر: مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر) [1]

ثم بين لك دور العمل الصالح في حفظك وحفظ كل من يرتبط بك، فقال: (يا أبا ذر: إن الله تعالى يُصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، ويحفظه الله في دويرته والدور حوله ما دام فيهم) [2]

ودعاك إلى الالتزام بقيم الدين وشرائعه، من غير أن تنظر في موافقة الناس لك، قناعة بعلم الله ورؤيته، فقال: (يا أبا ذر: إن ربك عز وجل يباهي الملائكة بثلاثة نفر. رجل يصبح في أرض قفر فيؤذِّن ثم يقيم ثم يصلي، فيقول ربك عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي يصلي ولا يراه أحد غيري، فينزل سبعون ألف ملك يُصلُّون وراءه ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم. ورجل قام من الليل فصلى وحده، فسجد ونام وهو ساجد. فيقول الله انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده ساجد. ورجل في زَحف، فيفرّ أصحابه ويثبت هو يقاتل حتى يقتل) [3]

ودعاك إلى احترام الكائنات من حولك، وأخبرك عن حياتها، وعن علاقتك بها، وعلاقتها بك، فقال: (يا أبا ذر: ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له بها. وما من منزل ينزله قوم، إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

يلعنهم.. يا أبا ذر: ما من صباح ولا رواح إلا وبقـاع الأرض تنـادي بعضها بعضا: يا جارة، هل مرّ بك اليوم ذاكر لله تعـالى، أو عبـد وضع جبهته عليك ساجداً لله تعـالى، فمن قائلـة: لا. ومن قائلـة نعم. فاذا قالت نعم: اهتزت وابتهجت وتـرى أن لهـا فضـلا على جارتها) [1]

وأخبرك عن آثار الذنوب، ومحقها للبركات، فقـال: (يـا أبـا ذر: إن الله لما خلق الأرض، وخلق ما فيهـا من الشـجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة، فلم تـزل الأرض والشـجر كـذلك. حـتى تكلم فجـرة بـني آدم بالكلمـة العظيمة قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [البقرة: 116]، فلما قالوا، اقشعرت الأرض، وذهبت منفعـة الأشـجار.. يـا أبـا ذر: إن الأرض لتبكي على المؤمن اذا مات أربعين صباحاً) [2]

وأخبرك عن علاقة الملائكة بك، وصحبتهم لـك، فقـال: (يـا أبا ذر: اذا كان العبد في أرض قي ـ يعني قفر ـ فتوضأ، أو تيمم، ثم أذَّن وأقام وصلى، أمر الله عز وجل الملائكـة فصـفوا خلفـه صـفاً لا يـرى طرفـاه، يركعـون بركوعـه، ويسـجدون بسـجوده، ويؤمِّنون على دعائه.. يـا أبـا ذر: من أقـام ولم يـؤذِّن، لم يصـل معه إلا ملكاه اللذان معه) [3]

وهكذا لقنك الكثير من درر الحكمة، فقـال: (يـا أبـا ذر: مـا عَمِلَ، من لم يحفظ لسانه.. يـا أبـا ذر: مـا مِن شـابّ يـدَع لـذة

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

الدنيا ولهوها، وأهرَمَ شبابه في طاعة الله، إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صِدِّيقاً.. يا أبا ذر: الذاكر في الغافلين كالمقاتل في الفارّين) [1]

وعلمك آداب الصحبة وشروطها، فقال: (يا أبا ذر: الجليس الصالح، خير من الوحدة. والوحدة خير من جليس السوء. وإملاء الخير، خير من السكوت، والسكوت خير من إملاء الشر.. يا أبا ذر: لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي، ولا تأكل طعام الفاسقين.. يا أبا ذر: أطعم طعامك من تحبه في الله، وكل طعام من يحبك في الله) [2]

وعلمك علوم اللسان وآفاته، فقال: (يا أبا ذر: إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله أمرؤ وليعلم ما يقول.. يا أبا ذر: اترك فضول الكلام، وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك.. يا أبا ذر: كفى بالمرء كذباً أن يتحدث بكل ما يسمع.. يا أبا ذر: ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان) [3]

وعلمك علوم العلاقات الاجتماعية والعامة، فقال: (يا أبا ذر: إن من إجلال الله، إكرام ذي الشَيبَة المسلم، وإكرام حملة القرآن العاملين به، وإكرام السلطان المقسط.. يا أبا ذر: لا تكن عيَّاباً ولا مدّاحاً ولا طعَّاناً، ولا محاربا.. يا أبا ذر: لا يزال العبد يزداد من الله بُعداً ما سِيئ خُلُقُهُ.. يا أبا ذر: الكلمة الطيبة

---

1 () المرجع السابق.

2 () المرجع السابق.

3 () المرجع السابق.

صدقة. وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة)[1]

وعلمـك كيفيـة تقـديس المسـاجد، وتعظيم شـعائر اللـه، فقال: (يا أبا ذر: إن الله يعطيك ـ ما دمت جالساً في المسجد ـ بكل نَفَس تتنفس فيه درجة في الجنة، وتصلي عليـك الملائكـة. ويُكتب لك بكل نفس تتنفس فيه عشر حسـنات، وتُمحى عنـك عشر سيئات) [2]

وحدثك عن قيمة التقوى، وكونها من أرفـع القيم الإيمانيـة، فقال: (كن بالعمل بالتقوى، أشدَّ منـك اهتمامـا بالعمـل لغـيره، فانه لا يقلّ عمل بالتقوى، وكيف يقلّ ما يُتقبل، لقـول اللـه عـز وجل: إنما يتقبل الله مِنَ المتَّقين.. يا أبا ذر: لا يكون الرجل من المتقين، حتى يحاسِبَ نفسه أشـد مِن محاسـبة الشَّـريك فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشـربه، ومن أين ملبسـه، أمِن حـلّ أم من حرام؟.. يا أبا ذر: من لم يبالِ من أين اكتسب المال، لم يبالِ اللـه من أين أدخلـه النـار.. يـا أبـا ذر: أحبُّكم إلى اللـه عـز وجل، أكثركم ذكراً له، وأكرمكم عند اللـه أتقـاكم، وأنجـاكم من عذاب الله، أشدّكم خوفاً له.. يا أبا ذر: إن المتقين الذين يتقون اللــه من الشــيء الــذي لا يُتَّقى منــه خوفــاً من الــدخول في الشبهة) [3]

وعلمك علوم الورع وأصوله وفروعه، فقال: (يا أبا ذر: من أطاع الله عـز وجـل فقـد ذكـر اللـهَ، وان قلَّت صـلاته وصِـيامه،

---

1 () المرجع السابق.

2 () المرجع السابق.

3 () المرجع السابق.

وتلاوة القرآن.. يا أبا ذر: أصل الدين الورع، ورأسُهُ الطَّاعة.. يـا أبا ذر: كن ورِعاً تكن أعبد الناس، وخير دينكم الورَعُ.. يا أبـا ذر: فضل العِلم خير من فضلِ العِبادةِ، واعلم أنكم لـو صـليتم حـتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، مـا نفعكم ذلـك إلا بِوَرَعٍ.. يا أبا ذر: إن أهل الورع والزهد في الدنيا، هم أولياء اللـه حقاً) [1]

وعلمك علوم التوكل على الله والثقة فيـه، فقـال: (يـا أبـا ذر: إن سـرَّك أن تكـون أقـوى النـاس، فتوكـل على اللـه، وان سرّك أن تكون أكـرم النـاس فـاتق اللـه. وإن سـرّك أن تكـون أغنى الناس، فكن بما في يد الله عز وجـل أوثـق منـك بمـا في يدك.. يا أبـا ذر: لـو أن النـاس كلَّهم أخـذوا بهـذه الآيـة لكفتهم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَـلْ لَـهُ مَخْرَجًـا (2) وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْـرِهِ قَـدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 2، 3]) [2]

ودعاك إلى إيثار الله في كـل شـؤونك، فقـال: (يـا أبـا ذر: يقول الله تعالى: لا يؤثر عبدي هواي على هـواه إلاّ جَعلتُ غِنـاه في نفسـه وهمومـه في آخرتـه، وضـمِنَت السـموات والأرض رزقه، وكففت عليه ضيعته، وكنت له من وراء تجارة كل تـاجر.. يـا أبـا ذر: لـو أن ابن آدم فـرَّ من رزقـه كمـا يفـرّ من المـوت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت) [3]

---

[1] () المرجع السابق.

[2] () المرجع السابق.

[3] () المرجع السابق.

ودعاك إلى اللجوء إلى الله في كل حالاتك، فقـال: (يـا أبـا ذر: ألا أعلِّمك كلمات ينفعك الله عز وجل بهنّ؟)، فقلت: بلى يا رسول الله.. فقـال ﷺ: (احفـظ اللـه تجـده أمامـك. تعـرَّف إلى الله تعالى في الرخاء، يَعرِفك في الشِّـدّة، واذا سـألت، فاسـأل الله، واذا استغنيت، فاستغنِ بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو أن الخَلق كلهم جهدوا أن ينفعـوك بشـيء لم يكتبه الله لك، ما قدِروا عليه، فـان اسـتطعت أن تعمـل للـهِ تعالى بالرضا واليقين، فافعل، فان لم تستطع فاصـبِر، فـإنَّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وانّ النصر مـع الصـبر، والفـرج مع الكرب، وان مع العسر يسراً) [1]

وحـذرك من الكـذب وعواقبـه، فقـال: (إنّ الرجـل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، فيكتب له بها رضـوانه إلى يـوم القيامة. وان الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بهـا، فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض.. يا أبـا ذر: ويـل للـذي يتحدث فيكذب ليضحِكَ به القوم، ويل له. ويل له. ويل له) [2]

وحـذرك من الغيبـة وعواقبهـا، وبين لـك مـا يقابلهـا من الأعمال، فقال: (يـا أبـا ذر: من ذَبَّ عن أخيـه المسـلم المـؤمنِ الغيبة، كان حقَّاً على اللهِ جل ثناؤه أن يعتقـه من النـار.. يـا أبـا ذر: من اغتيب عنده أخوه المسلم، وهو يستطيع نصره فَنَصـره، نصره الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وإن خذله وهـو يسـتطيع نصره، خذله الله في الدنيا والآخرة) [3]

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

وحـذرك من النميمـة وعواقبهـا، وبين لـك مـا يقابلهـا من الأعمال، فقال: (يا أبا ذر: صاحب النميمة لا يستريح من عـذاب الله عز وجل في الآخرة.. يا أبا ذر: من كان ذا وجهين ولسانيين في الـدنيا، فهـو ذو لسـانيين في النـار.. يـا أبـا ذر: المجلس بالأمانـة، وإفشـاؤك سـرَّ أخيـك خيانـة، فـاجتنب ذلـك، واجتنب مجلس العشيرة) [1]

وحـذرك من القطيعـة وعواقبهـا، وبين لـك مـا يقابلهـا من الأعمال، فقال: (يا أبا ذر: تَعرض أعمال أهل الدنيا على الله عزَّ وجل من الجمعة إلى الجمعة، وفي كل يـوم الاثـنين والخميس، فيغفر لكل عبد مؤمن، إلا عبـداً كـانت بينـه وبين أخيـه شـحناء، فيقول: اتركوا أعمـال هـذين حـتى يصـطلحا.. يـا أبـا ذر: إيـاك، وهجران أخيك، فان العمل لا يُتَقبَّل مع الهجران، فان كنت لا بـد فاعلا فلا هجرة أكثر من ثلاثة أيام كملا. فمن مات فيها مهـاجراً لأخيه، كانت النار أولى به) [2]

وحذرك من الكبر الذي هو السبب الأكبر في كـل قطيعـة، فقال: (يا أبـا ذر: من أحبَّ أن يَمثـلَ لـه الرجـال قيامـاً، فليتبـوأ مقعده من النار.. يا أبا ذر: من مـات وفي قلبـه مثقـال ذرة من كبر، لم يجد رائحة الجنة إلا أن يتوب قبل ذلك) [3]

2. العمل بالحق:

---

1 () المرجع السابق.

2 () المرجع السابق.

3 () المرجع السابق.

لقد كانت كـل تلـك المعـاني النبيلـة الـتي تضـمنتها وصـايا رسول الله ﷺ لك نبراسـا يضـيء حياتـك جميعـا، حيث تمثلتهـا، فصرت أسوة للمؤمنين، وقدوة للصالحين، ممتلئـا بكـل معـاني الإيمان والأخلاق الرفيعة، والشجاعة النادرة، والتضحية الفذة.

وفي الوقت الذي غرق فيه الكثير في طوفان الـدنيا الـذي فتح لهم، كنت في قمة الزهد والورع والتقوى، لأن تلك الوصـايا النبوية كانت هي البرهان والنور الذي ملأ عليك كيانك، فحجـزك من الغرق في ذلك الطوفان..

ولــذلك كنت تقــول بثقــة عظيمــة، وفــرح عظيم، للــذين اغتالتهم الدنيا، فبدلوا كثـيرا: (إني لأقـربكم مجلسـا من رسـول الله ﷺ يوم القيامة، وذلـك أني سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: (إن أقربكم مني مجلسا يوم القيامة من خـرج من الـدنيا كهيئـة مـا تركتـه فيهـا)، وإنـه واللـه مـا منكم من أحـد إلا وقـد تشـبث بشيء منها غيري) (1)

وأنت لا تقصد من ذلك ـ سيدي ـ الفخـر ولا الخيلاء، وإنمـا كنت تقصـد دلالتهم على الحـق، مخافـة أن يبـدلوه.. وقـد فعـل الكثير منهم ذلك عندما جاءتهم الدنيا ببهرجها وزخارفها، ولــذلك كنت تصرخ فيهم كل حين بالدعوة للحق والهدى وعدم تحريــف الدين.

لقد روى المؤرخون أن حبيب بن مسـلمة، بعث إليـك حين كان أميرا للشام، بثلاثمائـة دينـار، عنـدما رأى حاجتـك وفاقتـك، فرددتها إليه، وأنت تقول لرسوله: (ارجع بها إليه، أما وجد أحــدا أغر بالله منـا؟ مـا لنـا إلا ظـل نتـوارى بـه، وثلـة من غنم تـروح علينــا، ومــولاة لنــا تصــدقت علينــا بخــدمتها، ثم إني لأتخــوف

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 161)

الفضل) [1]

وبعث لك آخر بمثلها، فرددتها، وقلت: (ما وجد عبدا لله تعالى هو أهون عليه مني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من سأل وله أربعون فقد ألحف)، ولآل أبي ذر أربعون درهما، وأربعون شاة، وماهنان) [2]

لقد كنت تعلم أن كل التحريفات التي حصلت للدين سببها أهواء الدنيا، والتكالب على شهواتها، ولذلك كنت تدعو إلى الزهد بلسانك وفعالك، وقد قلت لمن نصحك أن تتخذ الضيعات التي اتخذها غيرك: (وما أصنع بأن أكون أميرا؟ وإنما يكفيني كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز من قمح) [3]

وكنت تقول لهم: (كان قوتي على عهد رسول الله ﷺ صاعا، فلا أزيد عليه حتى ألقى الله عز وجل) [4]

ورآك بعضهم في منفاك بصحراء الربذة في ظلة سوداء، ومعك زوجتك الوفية، وعندما رأى كبر سنها نصحك بأن تتزوج، فقلت له: (لأن أتزوج امرأة تضعني أحب إلي من امرأة ترفعني) [5]

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

4() المرجع السابق.

وجاءك رجل، فعرض عليك نفقة، فقلت: (عندنا أعنز نحلبها، وحمر تنقل، ومحررة تخدمنا، وفضل عباءة عن كسوتنا، وإني أخاف أن أحاسب على الفضل) [1]

وهكذا قضيت حياتك على العهد الذي عاهدت به رسول الله ﷺ، لم تغير ولم تبدل، ولم تسلبك الدنيا، ولم تغرك الأهواء.

وكانت عبوديتك الأكبر ـ سيدي ـ ما عبر عنه الإمام الصادق بقوله: (كان أكثر عبادة أبي ذر (رحمه الله) خصلتين: التفكر والاعتبار) [2]

3. نصرة الحق:

وقد كان ذلك الحال الذي كنت عليه من الزهد والورع والتقوى أقوى لسان واعظ، عرفت به أجيال الأمة الصحبة الحقيقية لرسول الله ﷺ، والتي حاول الطلقاء والمبدلون تشويهها، ليشوهوا معها نور النبوة.

بل قد ورد في الحديث ما هو أكبر من ذلك، فقد شبه رسول الله ﷺ صيحاتك بالحق، وزهدك في الدنيا بعيسى عليه السلام، فقال: (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، شبيه عيسى ابن مريم)، فقال عمر: يا

5() المرجع السابق.

1() المرجع السابق.

2() الخصال: ١ / 42 ح 33.

رسول الله، أفنعرف ذلك له؟. قال: (نعم، فاعرفوه)[1]

وفي حديث آخر: (أبو ذر يمشـي في الأرض بزهـد عيسـى ابن مريم)[2]

وهكـذا مثلمـا صـاح المسـيح في أصـحاب الـثروة من المتاجرين بالـدين، رحت تصـيح في المغـيرين والمبـدلين قـائلا: (أوصـاني خليلي ﷺ بسـت: حب المسـاكين، وأن أنظـر إلى من هو تحتي، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أقول الحق وإن كان مرا، وأن لا تأخذني في الله لومة لائم) [3]

وكنت تذكرهم بالإسلام الإلهي المحمدي الأصيل الذي يثور على الاستكبار والاستبداد وطغيان الثروة، وينصر المستضعفين.

وكنت تحذر بشدة من تسلل القارونيـة إلى الإسـلام.. تلـك التي أهلكت الأمم السابقة، وحولت دينهم إلى رأسمالية بشـعة، وإقطاعية ظالمة..

فـإن جـادلوك في ذلـك ذكـرت لهم أن هـذا الموقـف من القارونية ليس من عندك، وإنمـا هـو من وصـايا رسـول اللـه ﷺ لك.. لقد كنت تقول لهم: (إن خليلي ﷺ عهد إلي أنه أيمـا ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه في سـبيل الله عز وجل) [4]

---

[1] () الترمذي 2 ـ 221..

[2] () الاستيعاب 1 ـ 83 ، وأسد الغابة 5 ـ 188 ، والإصابة 4 ـ 164..

[3] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 159)

لقد كـانت أحاديثـك في هـذا مفتاحـا يمـيز الإسـلام الإلهي المحمدي من كـل ذلـك الـران الـذي طغـا عليـه، والـذي جعلـه يتحـول إلى دين ملـوك وجبـابرة وأثريـاء، وليس دين البسـطاء والزهاد والمتواضعين.

وبما أنك كنت تتألم لذلك الواقع الجديد الذي آل إليه حــال المسلمين، فقد كنت تصيح في كـل مكـان، وأمـام كـل النـاس، تدعوهم إلى العودة إلى الإسلام الأصيل، وتستعمل في ذلك كل ما علمك رسول الله ﷺ من الحكمة والموعظة الحسنة.

لقد كنت تقول لهم: (والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم، ولا تقاررتم على فرشكم، والله لوددت أن الله عز وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل ثمرها)[1]

وكنت تقول: (هل ترى الناس ما أكثرهم، مـا فيهم خـير إلا تقي أو تائب) [2]

وروى بعضهم أنك وقفت عند الكعبة، ورحت تقول: (يا أيها الناس أنـا جنـدب الغفـاري، هلمـوا إلى الأخ الناصـح الشـفيق)، وحين اجتمـع النـاس إليـك قلت لهم: أرأيتم لـو أن أحـدكم أراد سفرا، أليس يتخـذ من الـزاد مـا يصـلحه ويبلغـه؟.. قـالوا: بلى، فقلت: فسفر طريق القيامة أبعـد مـا تريـدون، فخـذوا منـه مـا يصلحكم، قالوا: وما يصلحنا؟ فقلت: (حجوا حجة لعظام الأمور، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور، صلوا ركعتين في سـواد

4() المرجع السابق(1/ 162)

1() المرجع السابق(1/ 164)

2() المرجع السابق.

الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين: مجلسا في طلب الآخرة، ومجلسا في طلب الحلال، والثالث يضرك ولا ينفعك، لا تريده. اجعل المال درهمين: درهما تنفقه على عيالك من حله، ودرهما تقدمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك، لا تريده)، ثم رحت تنادي بأعلى صوتك: (يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا) [1]

وكنت تحض كل حين أولئك الذين أغرقتهم الدنيا في مستنقعاتها قائلا: (يولدون للموت، ويعمرون للخراب، ويحرصون على ما يفنى، ويتركون ما يبقى، ألا حبذا المكروهان: الموت والفقر) [2]

وكنت تحذرهم من كنز الأموال، وتقول لهم: (في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها، وأنت ذميم. فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن، فإن الله عز وجل يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، ألا وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أقدمه لنفسي) [3]

وكنت تقول لهم: (ليأتين عليكم زمان يغبط الرجل فيه

---

[1] () المرجع السابق.

[2] () المرجع السابق(1/ 163)

[3] () المرجع السابق.

بخفة الحاذ كما يغبط اليوم فيكم أبو عشرة) [1]

وتقول لهم: (ذو الدرهمين أشد حسابا من ذي الدرهم) [2]

وقد ذكر الإمام الباقر بعض خطبك في الناس، ومنها قولك: (يا مبتغى العلم، لا يشغلك أهل ولا مال عن نفسك.. أنت يوم تفارقهم كضيف بتَّ فيهم ثم غدوت إلى غيرهم. الدنيا والآخرة كمنزل تحولت منه إلى غيره. وما بين البعث والموت، إلا كنومة نمتها، ثم استيقظت منها.. يا جاهل العلم تعلّم، فانَّ قلباً ليس فيه شرف العلم، كالبيت الخراب الذي لا عامرَ له) [3]

ومنها قولك: (يا باغي العلم، قدّم لمقامك بين يدي الله، فانك مرتهن بعملك، كما تدين تُدان.. يا باغي العلم، صلِّ قبل أن لا تقدر على ليل ولا نهار تصلي فيه ! إنما مَثلُ الصلاة لصاحبها، كمثل رجل دخل على ذي سلطان فأنصتَ له حتى فرغ من حاجته. وكذا المرء المسلم بإذن الله عزَّ وجلّ، ما دام في الصلاة، لم يزل الله عز وجل ينظر إليه حتى يفرغ من صلاته.. يا باغي العلم، تصدّق من قبلِ أن لا تُعطى شيئا، ولا جميعه، إنما مَثل الصدقة لصاحبها، مَثلُ رجل طلبه قوم بدم، فقال لهم. لا تقتلوني، اضربوا لي أجلا أسعى في رجالكم ! كذلك المرء المسلم بإذن الله، كلما تصدق بصدقة، حلَّ بها عقدة من رقبته، حتى يتوفى الله عز وجل أقواماً وهو عنهم

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

3() تنبيه الخواطر 2 / 274.

راض، ومن رضي الله عز وجل عنه، فقد أمن من النار.. يا باغي العلم، إن هذا اللسان مفتاح خير، ومفتاح شر، فاختم على فمك كما تختم على ذَهبك وعلى وَرِقِك.. يا باغي العلم، إن هذه الأمثال ضربها الله عز وجل للناس، وما يعقلها إلا العالمون)[1]

وقد كانت تلك الصيحات التي تدعو فيها الفقراء والمستضعفين إلى المطالبة بحقوقهم، والثورة على المتكبرين الكانزين للأموال سببا في حقدهم عليك، حتى أنهم هددوك بكل ما يهدد به المتكبرون المستضعفين، وقد ذكرت ذلك، فقلت: (إن بني أمية تهددني بالفقر والقتل، ولبطن الأرض أحب إلي من ظهرها، وللفقر أحب إلي من الغنى)، فسألك بعضهم عن سر تلك التهديدات، وقال لك: يا أبا ذر ما لك إذا جلست إلى قوم قاموا وتركوك؟ فقلت له: (إني أنهاهم عن الكنوز)[2]

وقد ذكر المؤرخون الروايات الكثيرة التي تذكر أسباب تلك التهديدات التي تعرضت لها، ومنها أن رجلا أتاك فقال: إن مصدقي عثمان ازدادوا علينا، أنغيب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا؟ فقال: (لا، قف مالك، وقل ما كان لكم من حق فخذوه، وما كان باطلا فذروه، فما تعدوا عليك جعل في ميزانك يوم القيامة)[3]

وحين قلت هذا، سمعك بعض القرشيين الذين أرادو تحول

1 () تنبيه الخواطر ـ 2 / 316.

2 () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 163)

3 () المرجع السابق(1/ 160)

الإسلام إلى دين لقريش وليس دينا لله تعالى: (أمـا نهـاك أمـير المؤمنين عن الفتيا؟)، فقلت لـه بكـل قـوة: (أرقيب أنت علي؟ فوالذي نفسي بيده لو وضـعتم الصمصـامة ههنـا، ثم ظننت أني منفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تحـتزوا لأنفـذتها) [1]

ورووا أنك دخلت مجلسا، فوجـدتهم يقتسـمون مـالا لبعض الأثرياء، وكان في المجلس عدوك اليهودي اللدود كعب الأحبار، والعجب أنهم بـدل أن يسـألوك، وأنت صـاحب رسـول اللـه ﷺ، وتلميذه، راحوا يسألون كعبا، فقالوا: مـا تقـول فيمن جمـع هـذا المـال فكـان يتصـدق منـه ويعطي في السـبل ويفعـل ويفعـل؟ فقال كعب: إني لأرجو له خيرا، حينها غضبت من ذلك التحريـف والتلاعب، ورفعت العصا على كعب، وأنت تقول: (وما يدريك يـا ابن اليهودية؟ ليودن صاحب هـذا المـال يـوم القيامـة لـو كـانت عقارب تلسع السويداء من قلبه)[2]

وروى الأحنـف بن قيس بعض مواقفـك في نصـرة الحـق، وشدتهم عليك، فقال: جلست إلى ملإ من قـريش، فجـاء رجـل خشن الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسـلم، ثم قـال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نـار جهنم، ثم يوضـع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمـة ثديـه، يـتزلزل، ثم ولى، فجلس إلى سارية، وتبعته وجلست إليه وأنـا لا أدري من هـو؟ فقلت لـه: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت، قال: إنهم لا يعقلـون شـيئا، قال لي خليلي، قال: قلت: من خليلك؟ قال النبي ﷺ: (يا أبـا ذر

[1] () المرجع السابق.

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 160)

أتبصر أحدا؟) قـال: فنظـرت إلى الشـمس مـا بقي من النهـار، وأنا أرى أن رسول اللـه ﷺ يرسـلني في حاجـة لـه، قلت: نعم، قال: (ما أحب أن لي مثل أحد ذهبا، أنفقه كله، إلا ثلاثـة دنـانير) وإن هؤلاء لا يعقلون، إنمـا يجمعـون الـدنيا، لا واللـه، لا أسـألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين، حتى ألقى الله)[1]

وعندما قال لك: (ما لـك ولإخوتـك من قـريش، لا تعـتريهم وتصيب منهم)، قلت له بكل قوة: (لا، وربك، لا أسألهم عن دنيا، ولا أستفتيهم عن دين، حتى ألحق بالله ورسوله) [2]

وعنـدما كـانوا يسـألونك عن مصـدر تلـك الأحـاديث الـتي تتحـدث بهـا، والـتي راح المسـتكبرون والمسـتبدون يوهمـون الناس أنها بدعـة منـك، كنت تقـول لهم: (مـا قلت إلا شـيئا قـد سمعته من نبيهم ﷺ)[3]

وهكذا كنت تستعمل معهم كـل أسـاليب الـدعوة بالحكمـة والموعظة الحسنة، حتى وصـل بـك الحـرص عليهم، والألم من تلـك التحريفـات الـتي وقعت في الـدين بسـبب التكـالب على الــدنيا، أن رحت تــذكرهم بالجاهليــة وأخلاقهــا، فقلت لهم في بعض خطبك: (أمّا بعد، فإنّا كنّا في جاهليّتنا، قبل أن ينزل علينــا الكتــاب، ويبعث فينــا الرســول، ونحن نــوفي بالعهــد، ونصــدق الحديث، ونحسن الجوار، ونقري الضيف، ونواسي الفقير. فلمّــا

1() رواه البخاري، 1407 ، 1408.

2() رواه مسلم: 34 - (992)

3() رواه مسلم: 34 - (992)

بعث الله تعالى فينا رسول الله، وأنزل علينا كتابه، كانت تلك الأخلاق يرضاها الله ورسوله، وكان أحقّ بها أهل الإسلام، وأولى أن يحفظوها، فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا.. ثمّ إن الولاة، قد أحدثوا أعمالاً قِباحاً لا نعرفها. من سنَّة تطفى ! وبدعة تحيى ! وقائل بحق مكذَّب، وأثرة لغير تقى، وأمين ـ مُستأثر عليه ـ من الصالحين) [1]

4. موتة الحق:

وهكذا كانت ثورتك على المستكبرين، ونصرتك للمستضعفين، وخشيتك من تحول الإسلام إلى القارونية البشعة، والرأسمالية الوقحة سببا في ذلك البلاء الذي ابتليت به، والذي أخبرك رسول الله ﷺ عنه، بل عن تفاصيله.. وكنت موقنا بذلك، فرحا به.

لقد قال رسول الله ﷺ يشير إليك: (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين) [2]، وقد شاء الله أن تكون ذلك الرجل.

فبعد أن استعملوا كل وسائل الإغراء لكفك عن تلك الأحاديث التي تدعو إلى الثورة على تشويه الدين وتحريفه وتحويله إلى القارونية والفرعونية أمروا بنفيك إلى صحراء الربذة، فخرجت إليها راضيا مطمئنا، لعلمك أن رسالتك قد وصلته، وأنه إن لم يفهمها ذلك الجيل، فستفهمها الأجيال التالية.

1() أعيان الشيعة: ١٦ / ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

2() رواه ابن حبان والضياء وأحمد وابن سعد (كنز العمال 668 / 11)

لقد حدث بعضهم عنك يذكر سـبب نفيـك، فقـال: (مـررت بالرَّبَذَة، فإذا أنا بأبي ذَرّ فقلت له: ما أنزلك منزلـك هـذا؟ قـال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه﴾ [التوبة: 34]، قال معاويـة: نزلت في أهـل الكتـاب. فقلت: نـزلت فينـا وفيهم. فكـان بيـني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمـان يشـكوني، فكتب إلي عثمـان: أن اقدم المدينـة، فقـدمتها فكـثر علي النـاس، حـتى كـأنهم لم يـروني قبـل ذلـك، فـذكرت ذلـك لعثمـان، فقـال لي: إن شـئت تنحيت، فكنت قريبـا، فـذاك الـذي أنزلـني هـذا المـنزل[1] ولـو أمروا علي حبشيا لسمعت وأطعت)[2]

وقال ابن كثير يذكر سبب نفيك، ويبرره: (وكان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه، تحريم ادخـار مـا زاد على نفقـة العيـال، وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلـظ في خلافـه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالنـاس في هـذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمـان وأن يأخـذه إليـه، فاسـتقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات رضـي اللـه عنه في خلافة عثمان)[3]

---

[1] () وهذه الرواية التي يتوهم البعض أنها تنفي نفيه إلى الربذة لا يصـح أن يفهم منهـا ذلك، فالكثير من الروايات تفسر هذا المعنى، وتبين بصراحة كونه منفيـا، وخـرج مكرهـا، وربما يكون عبر بذلك في هذه الرواية لتسامحه وسلامه، أو ربما يكون الراوي رواها عنه بالمعنى، وإلا فكيف يترك ما كلف به من الدعوة ويفر بنفسه.

[2] () رواه البخاري (2/133)

[3] () البداية والنهاية: 4 / 157، 158.

وهكذا قال ابن العربي الذي ناصر كل النواصب، وبرر كــل جرائمهم، فقد راح ـ بنوع من اللباقــة ــ يــبين خطــأك في نفس الوقت الذي ينتصر فيه للطلقاء وكعب الأحبار، لقــد قــال دفاعــا عنهم: (وأما نفيُه أبا ذرّ إلى الرَّبذة فلم يفعل، كان أبو ذر زاهدا، وكان يقرّع عمال عثمان، ويتلو عليهم ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّــةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَــا فِي سَــبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّــرْهُمْ بِعَــذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبــة: 34]، ويــراهم يتســعون في المــراكب والملابس حين وجــدوا، فينكــر ذلــك عليهم، ويريــد تفريــق جميــع ذلــك من بين أيديهم، وهو غير لازم. قال ابن عمر وغيره من الصحابة: إن مــا أديت زكاته فليس بكنز فوقع بين أبي ذر ومعاويــة كلام بالشــام فخــرج إلى المدينــة، فــاجتمع إليــه النــاس، فجعــل يســلك تلــك الطرق، فقال له عثمان: لو اعتزلتَ. معناه: إنك على مــذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطاً وللعزلة مثلها ومن كــان على طريقــة أبي ذرّ فحالــه يقتضــي أن ينفــرد بنفســه، أو يخالط ويسلِّم لكــل أحــد حالــه ممــا ليس بحــرام في الشــريعة، فخرج إلى الرّبذة زاهــداً فاضــلا، وتــرك جلــة فضــلاء، وكــل على خــير وبركــة وفضــل، وحــال أبي ذر أفضــل، ولا تمكن لجميــع الخلق، فلو كانوا عليها لهلكوا فسبحان مرتب المنازل) [4]

أما ابن تيمية ـ شيخ الإسـلام الأمـوي ــ فقـد راح يسـتعمل كل الحيل لتخطئتك، غافلا عن تلك البشارات النبوية التي تخــبر بصـدقك، وأنـك أصـدق من الجميـع، لكنـه راح يكـذبك، ويصـحح أقوال الجميع، ويصحح كل ذلك البـذخ والـترف الـذي حـول بلاد المسلمين إلى أرض للجباة، لا للهداة.

لقد قال عنـك: (..وأمـا قولـه: إنـه نفى أبـا ذر إلى الربـذة وضربه ضربا وجيعا، مع أن النـبي ﷺ قـال في حقـه: (مـا أقلت

4 () العواصم من القواصم لابن العربي تقديم و تعليق: محب الدين الخطيب طبعة الأوقاف السعودية. ص 73.

الغبراء ولا أظلت الخضـراء على ذي لهجـة أصـدق من أبي ذر)، وقال: (إن الله أوحى إلي أنه يحب أربعة من أصـحابي وأمـرني بحبهم. فقيل لـه: من هم يـا رسـول اللـه؟ قـال: علي سـيدهم، وسلمان، والمقداد، وأبو ذر)، فالجواب: أنّ أبا ذر سـكن الرّبـذة ومات بها لسبب ما كان يقع بينه وبين النـاس، فـإن أبـا ذر كـان رجلا صالحا زاهـداً، وكـان من مذهبـه أن الزّهـد واجب، وأن مـا أمسكه الإنسان فاضلا عن حاجته فهو كـنز يكـوى بـه في النـار، واحتج على ذلك بمـا لا حجـة فيـه من الكتـاب والسـنة.. وجعـل الكنز ما يفضل عن الحاجة.. ولما توفي عبد الـرحمن بن عـوف وخلـف مـالا، جعـل أبـو ذر ذلـك من الكـنز الـذي يعـاقب عليـه، وعثمـان ينـاظره في ذلـك، حـتى دخـل كعب ووافـق عثمـان، فضربه أبـو ذر، وكـان قـد وقـع بينـه وبين معاويـة بالشـام بهـذا السبب.. وكان أبو ذر يريد أن يوجب على النـاس مـا لم يـوجب الله عليهم، ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه، مع أنه مجتهـد في ذلك، مثاب على طاعته كسائر المجتهدين من أمثاله.. وكان عمر يقوم رعيته تقويما تاما، فلا يعتـدي لا الأغنيـاء ولا الفقـراء. فلما كان في خلافة عثمان توسـع الأغنيـاء في الـدنيا، حـتى زاد كثير منهم على قدر المباح في المقدار والنـوع، وتوسـع أبـو ذر في الإنكار حتى نهـاهم عن المباحـات. وهـذا من أسـباب الفتن بين الطـائفتين.. فكـان اعـتزال أبي ذر لهـذا السـبب، ولم يكن لعثمان مع أبي ذر غرض من الأغراض)[1]

وقـد نسـخت هـذه الكلمـات ــ سـيدي ــ كـل مـا ورد في فضلك، وكل ما نطق به رسول الله ﷺ في حقك.. فصرت كلما ذكرت لهم اسـمك، تجهمت وجـوههم، واسـودت قلـوبهم، وراح صغيرهم وكبيرهم يخطئك، ويكذب رسول اللـه ﷺ في الشـهادة

[1] () منهاج السنّة النبوية 6/271.

لك بالصدق.

وهكــذا أصــبح هــؤلاء هم الهــداة والــدعاة، والممثلــون الرسميون للـدين، يتحكمـون في أمـور الأمـة، ويقربـون اليهـود وتلاميذ اليهود، والطلقاء وأبناء الطلقاء، ويخطئـون الـذين شـهد لهم رسول الله ﷺ بالصدق والإخلاص والإيمان والثبات.

ولا تـزال إلى الآن مظلوميتـك سـيدي.. فكلهم يـدافع عن معاويــة وكعب الأحبــار، وكــل من أخرجــوك، ويعتــبرون الحــق معهم، ويعتبرونــك الضــال في تلــك الــدعوة، ولا عجب في أن يتحول الدين بعدك إلى قارونية وكسروية وقيصرية.

لقد كان من المشيعين لـك عنـد خروجـك حبيبـك وخليلـك الإمام علي الذي شهد لك بالصدق والوفاء للنبوة لآخـر لحظـة.. لقد قال لك مودعا: (يا أبا ذر إنك غضبت للـه فـارج من غضـبت له، إن القـوم خـافوك على دنيـاهم وخفتهم على دينـك، فـاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليـه، فمـا أحـوجهم إلى مـا منعتهم ومـا أغنـاك عمـا منعـوك وسـتعلم من الرابح غدا والأكـثر حسـدا، ولـو أن السـماوات والأرضـين كانتـا على عبد رتقـا ثم اتقى اللـه لجعـل اللـه لـه منهمـا مخرجـا، ولا يؤنسـك إلا الحــق ولا يوحشــك إلا الباطــل، فلــو قبلت دنيــاهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك)[1]

ثم قال لمن كان معـه في توديعـك: ودعـوا عمكم.. وقـال لعقيل: ودع أخاك.. فقال عقيل يخاطبك: ما عسى أن نقـول يـا أبا ذر، وأنت تعلم أنا نحبك، وأنت تحبنا، فاتق الله، فـإن التقـوى نجاة، واصبر فـإن الصـبر كـرم، وأعلم أن اسـتثقالك الصـبر من الجزع، واستبطاءك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع.

[1] () كشف الغمة: ج 2، ص 346.

ثم قال لك الحسن: يا عماه، لـولا أنـه لا ينبغي للمـودع أن يسكت، وللمشيع أن ينصرف، لقصـر الكلام وإن طـال الأسـف، وقد أتى القوم إليك ما تـرى، فضـع عنـك الـدنيا بتـذكر فراغهـا، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حـتى تلقى نبيـك ﷺ وهو عنك راض.

ثم قال لك الحسين: يا عماه، إن الله تعالى قـادر أن يغـير ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، فما أغناك عما منعوك، وأحوجهم إلى ما منعتهم، فأسال الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فـإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقـدم رزقـاً، والجـزع لا يؤخر أجلاً.

ثم قال عمار مغضباً: لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك. أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولـو رضـيت أعمـالهم لأحبـوك، ومـا منـع النـاس أن يقولـوا بقولـك إلا الرضـا بالـدنيا، والجـزع من المـوت، مـالوا إلى مـا سـلطان جمـاعتهم عليـه، والملـك لمن غلب، فوهبـوا لهم دينهم، ومنحهم القـوم دنيـاهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين!

حينها لم تجد إلا أن تبكي، ثم تقـول مخاطبـا لهم: (رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتكم ذكرت بكم رسـول اللـه ﷺ، ما لي بالمدينة سكن ولا شـجن غـيركم، إني ثقلت على عثمـان بالحجاز، كما ثقلت على معاوية بالشـام، وكـره أن أجـاور أخـاه وابن خاله بالمصرين، فأفسد الناس عليهمـا، فسـيرني إلى بلـد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله.. والله ما أريد إلا الله صـاحباً، وما أخشى مع الله وحشة) [1]

1 () بحار الأنوار ج22 ص441 ـ 413 و 435 ـ 437 وروضة الكافي ص206 و 208 ومنهاج البراعة ج8 ص249 وج16 ص302

هكذا فعل إمامك علي والمحافظون على هدي النبوة، أما غيرهم، فبدل أن يصطفوا ليودعوك، ويطلبوا دعواتك، وأنت صاحب رسول الله ﷺ الوفي، راحوا يسخرون منك.. لقد قال لك بعضهم، وهو ينظر إليك شامتا: (لولا أنك رجل سوء ما أخرجت من المدينة)، فرددت عليه بكل هدوء: (بين يدي عقبة كؤود إن نجوت منها لا يضرني ما قلت، وأن أقع فيها فأنا شر مما تقول)[2]

وقد شاء الله أن تكون الربذة هي مقر جسدك، لتبقى شاهدا على الظلم الذي لحق بك، كما لحق بالصالحين قبلك وبعدك.. لقد حدثت زوجتك عن تلك الموتة الشريفة التي متها، والتي أخبر رسول الله ﷺ عنها، فقالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكي أنه لا يدلي بتكفينك، وليس لي ثوب من ثيابي يسعك كفنا، وليس لك ثوب يسعك كفنا، قال: فلا تبكي؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر، أنا فيهم: (ليموتن منكم رجل بفلاة من الأرض، فتشهده عصابة من المؤمنين)، وليس من أولئك النفر رجل إلا وقد مات في قرية وجماعة من المسلمين، وأنا الذي أموت بفلاة، والله ما كذبت ولا كذبت، فانظري الطريق، فقالت: أنّى وقد انقطع الحاج.. فكنت أشتد إلى كثيب أقوم عليه أنظر ثم أرجع إليه فأمرضه)

وبينما هي كذلك (إذا بنفر تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم على رحالهم، فألاحت بثوبها، فأقبلوا حتى وقفوا عليها قالوا: ما لك؟ قالت: أمرؤ من المسلمين تكفنونه يموت، قالوا: من هو؟ قالت: أبو ذر، فغدوه بإبلهم ووضعوا السياط في نحورها يستبقون إليه، حتى جاءوه)

[2] () الإمتاع والمؤانسة: 2/ 128.

وعندما جاءوك رحت تبشرهم قائلا: (أبشروا.. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفـر أنـا فيهم: (ليمـوتن منكم رجـل بفلاة من الأرض، تشهده عصابة من المؤمـنين)، وليس منهم أحـد إلا وقـد هلـك في قريـة وجماعـة، وأنـا الـذي أمـوت بـالفلاة. أنتم تسمعون إنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنـا لي أو لامـرأتي لم أكفن إلا في ثـوب لي أو لهـا، أنتم تسـمعون إني أنشـدكم اللـه والإسلام أن لا يكفنني رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا أو بريدا)

حينها احتار القـوم، فلم يكن أحـد منهم بتلـك الأوصـاف إلا فتى من الأنصار، فقد قال لك: (يا عم أنا أكفنك، لم أصـب ممـا ذكرت شيئا، أكفنك في ردائي هـذا الـذي علي، وفي ثـوبين في عيبتي من غزل أمي حاكتهما لي)[1]

مـا عسـاي أقـول لـك في آخـر هـذه الرسـالة سـوى أن أبشـرك، بـأن كلماتـك لم تضـع، ولن تضـيع، والـدين الـذي كنت تدعو إليه هو الآن ينتشر بين النـاس، ليقضـي على ذلـك الـدين الذي أسسه معاوية وكعب الأحبار وغيرهما ممن بدل وحرف..

أما تلك المنطقة التي شرفتها بمكوثك فيهـا حين كنت في الشام، منطقة (جبـل عامـل)، فهي الآن، ومنـذ وطئتهـا قـدماك تحتفظ بذكراك، وتنسب كل فضل حصل لهـا إليـك، وهي اليـوم في الواجهــة تــدافع عن الــدين ضــد الاســتكبار والاســتبداد والتحريف.. فأبشر، فما كان للـه دام واتصـل، ومـا كـان لغـيره انقطع وانفصل.

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 170)

رسالة إلى عمار بن ياسر

سيدي عمار بن ياسر..

أيها الصحابي الجليل الذي شرفه الله بجعلـه رمـزا للحـق، وراية للهدى، وعلما للصالحين، ومثابة للمتقين..

ذلك الذي من عرفه فقـد عـرف قيم الـدين الأصـيل، ومن جهله، وضل عنه وسلك سبيل أعدائـه، عـاش حياتـه مـع البغـاة والمحرفين.

أيها التقي النقي الذي ملئ بالإيمان من مفـرق رأسـه إلى أخمص قدميه.. يا من عاش في ظلال النبوة، وهام في جمالهـا، وبقي وفيا لها، ولورثتها إلى أن قدم دمه في سبيلها.

أيها الذي نـزلت فيـه من شـهادات التزكيـة بالإيمـان مـا لا نزال نقرؤه في القرآن، فقد قـال اللـه تعـالى فيـك: ﴿مَنْ كَفَـرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِـهِ إِلَّا مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـانِ وَلَكِنْ مَنْ شَـرَحَ بِـالْكُفْرِ صَـدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَـبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106]

وهي شـهادة لـك بطمأنينـة القلب بالإيمـان، وليس مجـرد الاكتفاء به.. فالطمأنينة أرقى مراتب الهداية.. وهي شـهادة لـك بأنك من المعذبين في الله، والسابقين للإيمان، والصادقين فيه.

أنت ـ سيدي ـ من وردت فيك شهادات التزكية من رسـول اللـه ﷺ.. والـتي اتفقت عليهـا جميـع دواوين المحـدثين، ومن الطوائف أجمعين، حتى تكون علما للهداية، من ضل عنـك ضـل عنها، ومن اهتدى إليك وعرف قدرك اهتدى إليها.

لقد أخبر رسول الله ﷺ أنك صرت جسما للإيمان، منذ امتلأت به، فقد قال عنك: (ملئ عمار إيمانا إلى مشاشه)[1]، أي أن الإيمان اختلط بلحمك ودمك وعظمك، وامتزج بسائر أجزائك امتزاجا لا يقبل التفرقة [2].

ولذلك صرت محرما على النار، وهل يمكن للنار أن تحرق الإيمان؟.. لقد قال رسول الله ﷺ مخبرا عنك: (دم عمار ولحمه ؛ حرام على النار أن تأكله أو تمسه)[3]

بل إن رسول الله ﷺ دعا لك بألا تمسك النار في الدنيا، لتصير في هذه الدنيا مثل الخليل عليه السلام، مثلما كان أخوك أبو ذر شبيها بالمسيح عليه السلام، ومثلما كان أخوك وإمامك علي شبيها بهارون عليه السلام.. لقد حدث بعضهم عنك، فقال: (عذب المشركون عمارا بالنار، فكان النبي ﷺ يمر به فيمر يده على رأسه ويقول: (يا نار كوني بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم، تقتلك الفئة الباغية)[4]

ولذلك شرفت بأن تبشر بالجنة، لا وحدك فقط، وإنما مع أسرتك الطيبة التي مثلت الشهادة بأسمى معانيها.. لقد قال جابر بن عبد الله محدثا عنك: (مر رسول الله ﷺ بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: (أبشروا آل عمار، وآل ياسر، فإن موعدكم

[1] () رواه النسائي (5007)

[2] () فيض القدير، (6/ 4)

[3] () رواه البزار (3/ 51) ، وابن عساكر (12/ 314/ 1)

[4] () سير أعلام النبلاء (3/ 247)

الجنة) [1]

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بما هو أعظم من تلك البشـارة، حيث أخـبر أن الجنـة نفسـها تشـتاق إليـك، فقـال: (إن الجنـة تشـتاق إلى ثلاثـة: علي وعمـار وأبي ذر) [2]، وكيـف لا تشـتاق الجنة إليك، وأنت علم الإيمان، ونور الإيمان، وقبلة الإيمان.

وهكذا كان ﷺ يذكر كل حين أولئك الذين لا يعرفون قدرك بكونك من المبشـرين بالجنـة، مـع أن المحـرفين والمبـدلين لم يضعوك بينهم.. ففي الحديث أنه وقع بينك وبين خالد بن الوليـد كلام، فقلت: (لقد هممت ألا أكلمك أبدا)، فبلـغ ذلـك النـبي ﷺ، فقال: (يا خالد، مالك ولعمار؟ رجـل من أهـل الجنـة، قـد شـهد بدرا) [3]

وكـان ﷺ لا يكتفي بـذلك، وإنمـا يخـبر عن دورك في هـذه الأمة، فيقول: (إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم.. فاهتدوا بهـدي عمار) [4]

وأخبر عن سـر ذلـك، وهـو كونـك من المخلَصـين الـذين لا يقربهم الشيطان، ولا يستطيع أن يدنو منهم، فعن علقمة، قال: (قدمت الشـام، فقلت: من هـا هنـا؟، قـالوا أبـو الـدرداء، قـال:

1() رواه الحاكم (5666)، وقال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي.

2() الهيثمي في مجمع الزوائد 9 ـ 39

3() الاستيعاب في معرفة الأصحاب (2/ 430)

4() رواه الترمذي (3799)

أفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ؟)[1]، وهو يعنيك بذلك.

ولهذا أخبر ﷺ أنك في الوقت الذي يقع فيه الخلاف، ويتناحر فيه الهدى مع الضلالة، وأصحاب الطريق المستقيم مع أصحاب الطرق المعوجة، ستكون أنت العلم والمنارة التي تميز أصحاب الدين الأصيل من الدين المحرف، ودعاة الهدى عن دعاة الضلالة، فقال: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله، ويدعونه إلى النار)[2]

وقد روي هذا الحديث بطرق متواترة كثيرة[3]، ومن جميع

1() رواه البخاري (3287)

2() رواه أحمد [5/ 306]، والبخاري (2812)، ومسلم [9/ 226]، [70/ 71/ 2915]، والنسائي في الكبرى [5/ 156]، كتاب الخصائص: حديث [8548]، وابن سعد [3/ 191] وغيرهم

3() فقد رواه مسلم وابن عساكر وابن أبي شيبة عن أم سلمة، والإمام أحمد وابن عساكر والطبراني في الكبير، وأبو يعلى، والخطيب عن عثمان، والإمام أحمد وابن سعد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني في الكبير والحاكم عن عمرو بن العاص، وابن عساكر وابن أبي شيبة وأبو يعلى وأبو عوانة والطبراني في الكبير عن أبي رافع، وأبو يعلى وابن سعد في كتاب الموالاة والطبراني في الكبير والدار قطني في الأفراد عن عمار بن ياسر وابن عساكر عن ابن عباس وعن حذيفة وعن أبي هريرة وعن جابر بن عبد الله وعن جابر بن سمرة وعن أنس عن أبي أمامة وعن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه وعن عمرو بن العاص، وابن أبي شيبة، والإمام احمد وابن سعد والبغوي وأبو نعيم والطبراني في الكبير، والحاكم عن عمرو بن حرام، والإمام احمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير وابن عساكر عن ابن عمرو وأبو يعلى والطبراني في الكبير عن معاوية بن عتبة، والطبراني عن أبي رافع والطبراني عن أبي أيوب، والطبراني في

محدثي الأمة، فلا يجادل فيه إلا مشاغب يتلاعب بالدين ليرضـي الأهواء التي سنتها الفئة الباغية.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يرد كل من يخـبره بموتـك، بـأن ذلك غير صحيح، لأن الله تعالى كتب لموتك أن يكون فاصلا بين الحق والباطل، وفي جميع الأزمنة إلى يوم القيامة.

بـل كنت أنت كـذلك موقنـا بـذلك، فقـد كـانت الأمـراض تعتريك، ويخاف أهلك والمقربون منك أن يختطفـك المـوت من بين أيديهم، وخاصة مع كبر سنك، فقـد كنت تربـا لرسـول اللـه ﷺ، وعمرت بعده طويلا.. لكنك كنت تبشرهم بأنك لن تموت إلا على يدي الفئة الباغية.. فعن بعض أهلك قـالت: اشـتكى عمـار بن ياسر شكوى ثقـل منهـا، فغشـي عليـه، فأفـاق، ونحن نبكي حولـه قـال: مـا يبكيكم؟ أتحسـبون أني أمـوت على فراشـي، أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ أنه تقتلني الفئة الباغية، وأن آخــر زادي مذقة من لبن)[1]

وهكذا شهد لك الله ورسوله بالإيمان والتقوى وكل خصـال الصـلاح، ولـذلك كـان الإمـام علي ــ كلمـا دخلت عليـه ــ قـال: (مرحبا بالطيب المطيب، سمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: عمـار

الكبير، والباوردي وابن قانع، والدار قطني في الأفراد عن أبي البشير بن عمـرو عن زيـاد بن الجرد، والبزار برجال الصحيح عن أبي سعيد الخدري، وأبـو يعلى برجـال الصـحيح عن أبي هريرة والطبراني برجال ثقات عن عبد الله بن عمـرو وأبيـه عمـرو ومعاويـة والـبزار عن أبي مسعود، وحذيفة والطبراني بإسناد حسن. انظر: معجزات حسية (ص: 240)

[1] () مسند أبى يعلى ج 3 ص 189 حديث 1614.

ملئ إيمانا إلى مشاشه) [1]

وهكذا لا يجرؤ أحد على المساس بفضلك، أو تكذيب ما ورد في حقك، حتى البغاة الذين يبغضونك، لم يستطيعوا أن يمسحوا تلك التعاليم التي وردت بشأنك، وإن كانوا يؤولونها بكل صنوف التأويل، ويفرون منها بكل أنواع الفرار.

لقد قال بعض المحدثين يلخص ما ورد فيك من الآثار: (عمار بن ياسر أبو اليقظان، الممتلئ من الإيمان، والمطمئن بالإيقان، والمتثبت حين المحنة والافتتان، والصابر على المذلة والهوان، من السابقين الأولين، سبق إلى قتال الطغاة زمن النبي ﷺ، وبقي إلى طعان البغاة مع الوصي، كان له من النبي ﷺ إذا استأذن البشاشة والترحيب، والبشارة بالتطييب، كان لزينة الدنيا واضعا، ولنخوة النفس قامعا، ولأنصار الدين رافعا، ولإمام الهدى تابعا، كان من أهل بدر، وبعثه عمر على الكوفة أميرا، وكتب إليهم أنه من النجباء من أصحاب محمد ﷺ، كان أحد الأربعة الذين تشتاق إليهم الجنة، لم يزل يدأب لها ويحن إليها إلى أن لقي الأحبة محمدا وصحبه) [2]

ائذن لي سيدي بعد هذا أن أذكر لقومي الأسرار التي بوأتك كل هذه المناصب الجليلة، والمفاخر المنيفة.. وقد رأيت أنها تكمن في سر واحد هو [الطمأنينة]

بذلك وصفك ربك.. فأنت مطمئن بالإيمان، ومطمئن للحقيقة، لا تتردد في قبولها، ولا في الإذعان لها، بل تضحي بكل شيء في سبيلها.

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 139)

2() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 139)

وقـد جعلـك ذلـك تتعـرض لأنـواع كثـيرة من البلاء، لا من المشركين وحدهم، أولئك الـذين عـذبوك، وعـذبوا أهلـك، وإنمـا ممن يزعمون أنهم مؤمنون، وأنهم من هذه الأمـة، فلـذلك كمـا ضربت في الجاهلية ضـربت في الإسـلام، بـل إن مـا عجـز عن فعله المشركون من قتلك قدر عليه من يدعون الإيمان.

ولذلك شرفك الله بالمواجهة مع الفريقين.. مع المشركين الذين حاربوا التنزيل.. أو مع المسلمين الذين مارسـوا التأويـل، كما عبرت عن ذلك بقولك ـ بعد أن رأيت راية عمرو بن العـاص ـ: (والله إن هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأشـدهن)، ثم قال:

نحن ضربناكم ... فاليوم نضربكم

ضربا يزيل الهام ... ويذهل الخليل عن

أو يرجع الحق إلى سبيله

وقـد أخـبر حذيفـة بن اليمـان عن دورك في تلـك الحـرب، حيث جاءه نفر يسألون عن الفتنة وكيفية التعامل معهـا، وقـالوا له: يا أبا عبد اللـه، إن رسـول اللـه ﷺ اسـتجار من أن تصـطلم أمته، فأجير من ذلك، واستجار من أن يذوق بعضـها بـأس بعض فمنع من ذلك، فقال حذيفة: إنى سمعت رسول اللـه ﷺ يقـول: (إن ابن سمية لم يخير بين أمرين قط إلا اختار أرشدهما ـ يعنى عمارا فالزموا ـ سمته)[1]

لقد قال ذلك، وهو لم يحضر تلك الفتنة، ولكن رسول اللـه ﷺ أخبره عنها كما أخبر الأمة جميعا، حتى تأخذ حـذرها من كيـد الشيطان.

1() وقعة صفين (ص: 342)

1. المواجهة التنزيلية:

أما مواجهتك التنزيلية للمشركين، فقد بدأت من أيام إسلامك الأولى.. أو بدأت منذ بدأ الإسلام، فقد كنت من السابقين الأولين، وكنت تقول لأولئك الذين قربوا الطلقاء، وعزلوا السابقين: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان) [1]

وعن عبد الله بن مسعود، قال: (كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس)[2]

وهكذا كنت من الذين شُرفوا بأن يدخلوا الإسلام، لا وحدهم، وإنما مع أسرهم أيضا، فأبوك ياسر، وأمك سمية، من كبار أبطال الإسلام، وكلاهما أول شهدائه.. فأبوك أول الشهداء من الرجال، وأمك أول الشهداء من النساء.. وقد كنت أنت أيضا أول الشهداء الأحياء؛ فقد كانوا مزمعين على قتلك لولا أن الله شاء أن يؤخر ذلك، حتى تصبح شهادتك علما على الهداية، كما كانت شهادة والديك علامة على السبق للإيمان، والتضحية في سبيله.

لقد كان رسول الله ﷺ يمر عليك وأنت مع أبيك وأمك

1() رواه البخاري (3660)

2() رواه ابن ماجة (150)

تعذبان في الله، فيقول: (صبرا آل ياسر فـإن موعـدكم الجنـة)، ويقول: (اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت) [1]

لقد كنتم حينها أعظم النماذج عن الإيمان، وقد مثلتم حينها عمليا تلك الآيات الكريمة التي كانت تتنزل على رسول الله ﷺ، والتي يقول الله تعـالى فيهـا: ﴿قُتِـلَ أَصْـحَابُ الْأُخْـدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُـودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَـا قُعُـودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَـا يَفْعَلُـونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: 4 - 8]

فقد كان المشركون يستعملون النـار لتعـذيبكم.. حينهـا لم تترددوا في الإيمـان، من غـير أن تطلبـوا تلـك المعجـزات الـتي طلبتهـا قـريش حـتى تـؤمن.. ومـع ذلـك ظلت على إصـرارها وعنادها حتى رأت رايات النصـر قادمـة لفتح مكـة، حينهـا ادعى من يعذبوكم أن الإيمان قـد خالـط قلـوبهم.. كمـا ذكـرت ذلـك، فقلت: (والله ما أسلم القـوم ولكن استسـلموا وأسـروا الكفـر حتى وجدوا عليه أعوانا) [2]

حينهـا نسـيتم، أو نسـيكم أكـثر الأمـة منشـغلين بأولئـك المجرمين الذين كانوا يعذبونكم.. والذين تحولوا في طرفة عين من أعداء الله إلى أولياء الله من غير عمل عملوه، مـع أن اللـه تعالى قال فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِـرُونَ (9) وَسَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لَا

[1] سير أعلام النبلاء (3/ 247)

[2] وقعة صفين (ص 213)، تاريخ الطبري: 3/ 82)

يُؤْمِنُونَ [يس: 7 - 10]

لكنـك ــ سـيدي الكـريم ــ ولأمـر أراده اللـه، وفي تلـك اللحظات التي غشي عليك فيها بسـبب العـذاب الشـديد، رحت تنطق بما يحبون، وتتألم لذلك.. وقد لقيك حينها رسـول اللـه ﷺ وأنت تبكي؛ فجعـل يمسـح، عن عينيـك ويقـول: (أخـذك الكفـار فغطوك في النار، فقلت كذا وكذا، فإن عادوا فقل لهم ذلك)[1]

وقبلهـا جئت رسـول اللـه ﷺ متألمـا حزينـا، فقـال: (مـا وراءك؟)، فقلت: شر يا رسول الله! والله مـا تـركت حـتى نلت منـك وذكـرت آلهتهم بخـير، فقـال ﷺ: (فكيـف تجـد قلبـك؟)، فقلت: مطمئن بالإيمان، فقال: (فإن عادوا فعد)[2]

حينهـا تـنزلت تلـك الآيـات الكريمـة تشـهد لـك بالإيمـان، وتعطي الرخصة لمن حصل لهم ما حصل لك بأن يتقوا لـدينهم، لا حفظا لذواتهم، وإنما ليحفظوا الرسالة الـتي يحملونهـا.. لقـد قـال اللـه تعـالى: مَنْ كَفَـرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْـدِ إِيمَانِـهِ إِلَّا مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـانِ وَلَكِنْ مَنْ شَـرَحَ بِـالْكُفْرِ صَـدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [النحل: 106]

وكانت تلك الآية الكريمة التي لا تُقرأ إلا وتُذكر معها أعظم شهادة لك بالدرجات الرفيعة من الإيمان.. فالطمأنينة هي الـتي طلبها إبراهيم عليه السلام حين طلب رؤية كيفية إحياء الموتى، كمـا قـال تعـالى: قَـالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [البقـرة: 260]

1() سنن البيهقي الكبرى (8/ 209)

2() تفسير الطبري (14/ 122)

وهكذا ظلت تلك الطمأنينة الإيمانية مصاحبة لك في جميع أحوالك، ولذلك كنت تبذل أضعاف طاقتك حتى تستطيع أن تعطي تلك الطمأنينة حقها، وقد روي في الحديث عن أبي سعيد قال: (كنا ننقل لبن المسجد لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين، فمر به النبي ﷺ، ومسح عن رأسه الغبار، وقال: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله، ويدعونه إلى النار) [1]

وكنت حينها، وأنت في ذلك الموقف فرحا جذلان تنشد قائلا:

لا يستوي من يعمر ... يظل فيها راكعاً

ومن تراه عانداً ... عن الغبار لا

وهذان البيتان يلخصان فهمك للدين الإلهي المحمدي الأصيل الذي لا يستوي فيه السابقون مع المتأخرين، والصادقون مع المبدلين، والموفون مع الناكثين.

ولذلك كنت ترى الدين في التسليم المطلق لله ورسوله، فبمجرد أن جاء الأمر بالهجرة إلى الحبشة، رحت تنفذ أمر رسول الله ﷺ.. وبذلك كنت من أهل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 41، 42] [2]

---

1 () رواه البخاري (2812)

2 () فعن عن عمر بن الحكم، قال: كان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول وكذا صهيب، وفيهم نزلت {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

وكـانت تلـك الطمأنينـة هي السـبب في ثباتـك في كـل المعارك التي خضتها مع رسول الله ﷺ لتحمي الإيمان من تلـك الجيوش التي ألبتها قريش أو غيرها عليك، وقد قال عبد الله بن جعفـر عنـك: (شـهد عمـار بن ياسـر بـدرا، وأحـدا، والخنـدق، والمشـاهد كلهـا مـع رسـول اللـه ﷺ)[1]، ولهـذا كنت تـذكر في حروبك على الباغين الناكثين جهادك لنفس الرايات في حروبـك مع المعتدين الظالمين.

ولهـذا كـان الإمـام علي يرسـل المـترددين إليـك، حـتى تخبرهم بالحقيقة المرة التي سببت تلـك الحـروب، والـتي كـان ظاهرهـا للإمـام علي، ولكن باطنهـا كـان امتـدادا لبـدر وأحـد والأحزاب.. فالمحارَب في الجميع هو رسول اللـه ﷺ، والإسـلام النقي الخـالص الـذي أرادت قـريش أن تسـرقه، بعـد أن لم تستطع الوقوف في وجهه.

وقد روى المؤرخون عن أسماء بن حكيم الغزاوي قال: كنا بصفين مع علي تحت راية عمار بن ياسر ارتفـاع الضـحى، وقـد استظللنا برداءٍ أحمر. إذ أقبل رجل يستقري الصف حـتى انتهى إلينا فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عمار. قال: أبـو اليقظان؟ قال: نعم قال: إن لي إليك حاجة، أفأنطق بها سراً أو علانيةً؟ قال: اختر لنفسك أيهما شئت، قال لا، بل علانيـةً، قـال:

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: 41، 42]، سير أعلام النبلاء، (3/ 247)

1() المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 434)

فانطق)[1]

حينها راح يبث إليك شكواه وشبهته، فقال: (إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن فيه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى ليلتي هذه، فإني رأيت في منامي منادياً تقدم فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ونادى بالصلاة، ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاةً واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه فبت بليلةٍ لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له، فقال هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا. قال: فألقه فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه، فجئتك لذلك)

حينها خاطبته بتلك الطمأنينة التي وصفك الله بها، وبكل ثقة، وقلت له: (تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، فما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن!)

ثم قلت له: (أشهدت بدراً وأحداً ويوم حنين، أو شهدها أبٌ لك فيخبرك عنها؟)، فقال: لا، فقلت له: فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدرٍ ويوم أحد ويوم حنين، وأن مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا ــ مفارقاً للذي

[1] () انظر: وقعة صفين (ص: 321)، لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة 212، وهو من المراجع المهمة في هذا لقربه الزمني من تاريخ صفين.

نحن عليه كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته)

ولكونك كنت واثقا من الخطر الذي تحمله راية معاوية، ودورها في تحريف الدين أجيالا طويلة لما انتهى إليك من إخبار رسول الله ﷺ لك ولصفوة أصحابه، قلت له: (والله لدماؤهم جميعاً أحلُّ من دم عصفور ؛ أفترى دم عصفور حراماً؟)

قال الرجل: لا، بل حلالٌ.. فقلت له: (فإنهم حلال كذلك)، ثم رحت تستوثق منه، وقلت: (أتراني بينت لك؟) قال: قد بينت لي، فقلت: (فاختر أي ذلك أحببت !؟)

وعندما انصرف الرجل، رحت تدعوه، وتقول له وللمجتمعين معك بكل ثقة وطمأنينة: (أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا: لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا، والله ما هم من الحق على ما يقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر، لعرفت أنا على حق وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سلماً سالماً أبداً حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنه على الحق وأن قتلاهم في الجنة وموتاهم، ولا تنصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة، وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحياؤهم على الباطل)[1]

وهكذا كنت في مواقفك رمزا للبطولة والشجاعة، لا تحيد، ولا تفر، ولا تتردد، ولا تصيبك أدران الشبهات، وكيف يحصل لك ذلك، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الإيمان خالط لحمك وعظمك، فلم يعد للشيطان عليك سبيل.

[1] وقعة صفين ، ص 322.

لقد حدث ابن عمر عنك، وعن بعض بطولاتك، فقال: (رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: (يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر، أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر هلم إلي، وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب، وهو يقاتل أشد القتال)[1]

هكذا كنت دائما لا تلتفت لما يصيبك من جراحات، لأنك تعلم المصير الذي ستصير إليه، وتعرف الإله الذي تعبده، والنبي الذي تتبعه، والصراط الذي نذرت نفسك لتسير فيه، وأنت تحمل راية الدلالة عليه.

ولذلك لم تكن تتردد أبدا في أي مواجهة، ومع أي عدو، حتى لو لم تكن تعرفه، ما دام يعادي الله ورسوله، وقد حدثت عن نفسك، فقلت: (قاتلت مع رسول الله ﷺ الجن والإنس)، فقالوا: كيف ذلك؟.. فقلت: كنا مع النبي ﷺ فنزلنا منزلا فأخذت قربتي ودلوي لأستقي، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه سيأتيك على الماء آت يمنعك منه، فلما كنت على رأس البئر إذا برجل أسود كأنه مرس فقال: والله لا تستقي اليوم منها فأخذني وأخذته فصرعته ثم أخذت حجرا فكسرت وجهه وأنفه ثم ملأت قربتي وأتيت رسول الله ﷺ فقال: هل أتاك على الماء أحد؟ قلت: نعم فقصصت عليه القصة فقال: أتدري من هو؟ قلت: لا، قال: ذاك الشيطان)[2]

وقد كنت إلى جانب ذلك مملوءا بكل القيم التي جاء الإسلام للدعوة إليها.. فقد كنت عابدا زاهدا تقيا صاحب خلق

---

[1] () المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 434)

[2] () سير أعلام النبلاء (3/ 248)

رفيع، وصاحب روح مبادرة لكل عمل صالح، وقد حدث الحكم بن عتيبة قال: (قدم رسول الله ﷺ المدينة أول ما قدمها، فقال عمار بن ياسر: (ما لرسول الله ﷺ بد من أن نجعل له مكانا إذا استيقظ من قائلته، استظل فيه، وصلى فيه)، فجمع عمار حجارة، فسوى مسجد قباء، فهو أول مسجد بني، وعمار بناه) [1]

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: (أول من بنى مسجدا فصلى فيه عمار بن ياسر) [2]

وبذلك تكون من أهل قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: 108]، وبذلك تكون من أهل كل هذه المكارم من التقوى والطهارة، وبشهادة الله تعالى.

وهكذا تحقق فيك بعض قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5]، وذلك حين وليت الكوفة، ولفترة قصيرة، لكن أهلها المشاغبين منهم، لم يرتضوا سيرة الزهاد الأتقياء، فراحوا يشكونك إلى الخليفة، قائلين: إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة، ولا يدري على ما استعملته.

وكان الأولى بالخليفة ألا يلتفت لهم، لكنه استجاب لطلبهم، ولما رأى الألم في وجهك، سألك: أساءك العزل؟

---

1 () المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 434)

2 () المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 434)

فقلت: ما سرني حين استعملت، ولقد ساءني حين عزلت، فقال لك: (قد علمت ما أنت بصاحب عمل، ولكني تأولت قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5]) [1]

ولست أدري إن لم تكن أنت صاحب العمل، فمن صاحبه؟.. وهل صاحبه إلا الصادق المخلص الذي يسير في رعيته بمنهج الأنبياء؟

لكن للأسف استجاب الخليفة للمستبدين، وراح يولي بدلك من سار فيهم بسيرة الفراعنة.. وقد روى المؤرخون أن المغيرة بن شعبة عندما رأى مواقف أهل الكوفة قال للخليفة: (أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المسدد فإن سداده لنفسه وقوته للمسلمين)[2]، فولاه عليهم، وكان من شأنه ما ذكره التاريخ من أن كان أول من دعا معاوية لتولية ابنه يزيد حتى يحافظ على منصبه.

2. المواجهة التأويلية:

لقد كان لذلك الموقف الذي وقفه الخلفاء الأوائل في الاستهانة بتعيين الولاة والعمال آثارها السلبية الخطيرة على المجتمع الإسلامي، ذلك أن أكثرهم لم يكن من السابقين الأولين الذين تمثلوا الإسلام، وضحوا في سبيله، وطالت صحبتهم لرسول الله ﷺ، وتمثلت فيهم الصحبة الحقيقية له، وإنما كان أكثرهم من جنس معاوية والمغيرة وغيرهما.

1() الكامل في التاريخ (2/ 413)

2() الكامل في التاريخ (2/ 413)

وقد استطاع هؤلاء أن يؤسسوا لانحرافات كثيرة طال أمدها، حولت من دين المستضعفين والبسطاء والعدالة الاجتماعية إلى دين أقرب إلى الكسروية والقيصرية والرأسمالية البشعة.

ولذلك نهضت تؤدي واجبك في المعركة التأويلية بعد أن أديت واجبك في المعركة التنزيلية.. وقد استعملت كل الوسائل المتاحة لذلك..

وكان الأصل في الأمة أن تسير خلفك، ذلك أن رسول الله ﷺ اعتبرك مفرقا بين المحقين والمبطلين، وبين الفئة الباغية والفئة الشرعية.. لكنهم لم يفعلوا، وتوهموا أن تلك المقولات مجرد مديح فارغ مثل مدائح الشعراء للملوك، ولم يعلموا أنها حقائق مطلقة، وأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فكل ما يقوله عن الله.

لا يمكنني هنا ـ سيدي ـ أن أذكر كل ما فعلته في ذلك، فأنت تعلم الواقع الذي نعيشه، والحال التي وصلنا إليها، فقد اعتبروا الحديث في تصحيح الدين هدما له، ولم يعلموا أن الدين حقائق إلهية، وليس رجالا يُعبدون من دون الله.

ولذلك سأكتفي بتلك النصائح التي نصحت بها الخليفة الثالث، مثلما فعل أخوك أبو ذر والمقداد والكثير من الصحابة، وذلك بعد أن رأيت تسلط الأمويين في عهده على مقاليد الحكم، وتلاعبهم بأموال الأمة، وانتشار كل الظواهر المسيئة للدين.

في ذلك الحين اجتمع كبار الصحابة المنتجبين، ودرسوا الواقع الذي آل إليه حال المسلمين، وخشية على تحريف الدين، كتبوا رسالة، وأمروك بأخذها للخليفة، لعلمهم باحترامه

لك، وسماعه ما ورد فيك من الأحاديث التي تـبين كونـك فارقـا بين الحــق والباطـل، ولعلمهم بقوتـك في قـول الحــق، وعـدم تزحزحك عنه.

وقد ذكر المؤرخون ما ورد في تلك الرسـالة الـتي طـالبتم فيها بتصحيح الأوضاع، حتى لا تحدث الفتنة، ويضج النـاس، ومن المنكرات التي أنكرتموهـا في تلـك الرسـالة (مـا كـان من هبـة الخليفة خمس إفريقية لمروان وفيـه حـق اللـه ورسـوله ومنهم ذوو القـربى واليتـامى والمسـاكين.. ومـا كـان من تطاولـه في البنيـان حـتى عـدوا سـبع دور بناهـا بالمدينـة.. وبنيـان مـروان القصور بذي خشـب وعمـارة الأمـوال بهـا من الخمس الـواجب لله ولرسوله.. وما كان من إفشائه العمـل والولايـات في أهلـه وبــني عمــه من بــني أميــة أحــداث وغلمــة لا صــحبة لهم من الرسول ﷺ ولا تجربة لهم بالأمور.. وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم.. وتعطيله إقامة الحد عليــه.. وتــأخيره ذلــك عنــه.. وتركــه المهــاجرين والأنصــار لا يســتعملهم على شــيء، ولا يستشــيرهم، واســتغنى برأيــه عن رأيهم.. وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة.. وما كــان من إدراره القطـائع والأرزاق والأعطيـات على أقـوام بالمدينـة ليست لهم صحبة من النبي ﷺ ثم لا يغزون ولا يذبون.. وما كان من مجاوزتــه الخــيزران إلى الســوط وأنــه أول من ضــرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفـتين قبلـه بالـدرة والخيزران) [1]

وعنـدما دخلت إلى الخليفـة، وكـان عنـده مـروان، ودفعت إليه الكتاب قرأه، ثم قـال لـك: أنت كتبت هـذا الكتـاب، فقلت:

[1] () الإمامة والسياسة (1/ 31)

نعم، فقال: ومن كان معك، قلت: كـان معي نفـر تفرقـوا فرقـا منـك، قـال: من هم، فقلت: لا أخـبرك بهم، قـال: فلم اجـترأت علي من بينهم؟

لم تجد ما تقول حينها، ذلك أن الخليفة كان يعلم بأحـاديث رسول الله ﷺ في حقك، وكان يعلم قبل ذلك بوجـوب النصـيحة لأولياء الأمور.. حينها تكلم مروان، فقال: يـا أمـير المؤمـنين إن هذا العبد الأسود ـ يعنيك ـ قد جرأ عليك الناس، وإنـك إن قتلتـه نكلت به من وراءه[1].

كان الخليفة في ذلك الحين مطواعا لمروان، لكنـه خالفـه في قتلـك، بـل اكتفى بقولـه: اضـربوه.. فضـربوك حـتى فتقـوا بطنـك، وغشـي عليـك، ثم جـروك وطرحـوك على بـاب الـدار فأمرت أم سلمة زوج النبي ﷺ لما حصل لك، وتذكرت هجرتـك معها ومع زوجها أبي سلمة إلى الحبشـة، ومـا حصـل لـك قبلهـا من الضرب من طرف المشركين، وتألمت كما تـألم الصـادقون من تحول الإسلام إلى أيدي من لا يراعي حرماته.

حينهـا قـام حبيبـك الإمـام علي، وراح يـدافع عنـك، لكنهم قابلوه بمثل ما قابلوك به، غير مـراعين حرمتـه، ولا قرابتـه من رسول الله ﷺ.. لقد قال له حينها الخليفة: (والله يا أبـا الحسـن ما أدري أشـتهي موتـك أم أشـتهي حياتـك، فواللـه لئن مت مـا أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأني لا أجد منك خلفا، ولئن بقيت لا أعدم طاغيا يتخذك سلما وعضدا ويعدك كهفا وملجـأ لا يمنعـني منه إلا مكانه منك ومكانك منه، فأنا منك كالابن العاق من أبيـه، إن مات فجعه، وإن عاش عقه، فإما سلم فنسالم، وإمـا حـرب فنحارب، فلا تجعلني بين السماء والأرض، فإنك والله إن قتلتني

1() الإمامة والسياسة (1/ 31)

لا تجد مني خلفا، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفا، ولن يلي أمر هذه الأمة بادئ فتنة)[1]

لم يجد الإمام علي أمام هذا الوضع الخطير الذي آلت إليه الأمة إلا أن يقول: (إن فيما تكلمت به لجوابا، ولكني عن جوابك مشغول بوجعي، فأنا أقول كما قال العبد الصالح ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18])

حينها قال مروان ـ عدوك اللدود ـ: (إنا والله إذا لنكسرن رماحنا، ولنقطعن سيوفنا، ولا يكون في هذا الأمر خير لمن بعدنا)

وقد حصل الوعيد الذي توعد به مروان، الذي كان في ذلك الحين يمارس أدوار الخليفة، وهبت رياح الفتنة الكبرى، وحصل ما نزل بالأمم السابقة، والتي ذكرها الله تعالى فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: 17]

فبعد مقتل الخليفة، وبيعتك وأكثر الصحابة السابقين للإمام علي، راح أولئك الأمويون وغيرهم من الانتهازيين الذين انتفعوا بالوضع السابق، يقومون بالثورة المسلحة، وحينها بدأت الفتنة بظهور الفئة الباغية، والتي كانت تنتظرك لتميزها عن

[1] () الإمامة والسياسة (1/ 31)

الفئة المحقة.

لقد اختلف الناس حينها ثلاث فرق.. فرقة انغمست في أهواء الدنيا التي وفرها طغاة بني أمية.. وفرقة جعلها الورع البارد تقعد عن أداء واجبها في نصرة الحق بحجة العزلة والحياد.. وفرقة تذكرت كل وصايا رسول الله ﷺ، ودعوته للوقوف مع الحق، فلذلك راحت تنصره بكل قوة.. وكنت أنت على رأس تلك الفرقة.

لقد ذكر المحدثون والمؤرخون أدوارك الكبيرة في التحذير من أئمة الفئة الباغية، فقد كنت تقول مخاطبا الجماهير ممن عاش في زمانك، أو جاء بعدك، حتى لا يستسلموا لتلك التحريفات التي حرفوا بها الدين: (يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، فلما أراد الله أن ينصر دينه وينصر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم، وهو والله فيما يُرى راهب غير راغب، وقبض رسول الله ﷺ وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم! ألا وإنه معاوية فالعنوه لعنه الله، وقاتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله ويظاهر أعداء الله)[1]

وكنت تقول لهم: (اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرض لك منه لفعلته)[2]

1() وقعة صفين (ص 213)، تاريخ الطبري: 3/ 82.

2() تاريخ الطبري: ج 3 / ص 96.

وقد حدث عبد الله بن سلمة عنك، قال: كنا عند عمار بصفين وعنده شاعر ينشده هجاء في معاوية وعمرو؛ وعمار يقول له: الصق بالعجوزين، فقال له رجل: أيقال الشعر عندكم ويسب أصحاب رسول الله ﷺ ويسب أصحاب بدر؟! فقال: (إن شئت فاسمع، وإن شئت فاذهب، فإن معاوية وعمراً قعدا بسبيل الله يصدان عنه، فالله سابهما وكل مسلم، وإنه لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: (قولوا لهم كما يقولون لكم فإن كنا لنعلمه الإماء بالمدينة)[1]

ولم تكن تكتفي بالكلمات، بل كنت تحمل سيفك الذي قاتلت به في معركة التنزيل، لتقاتل به من جديد في معركة التأويل، ذلك أنك كنت تعلم أن معركة التأويل أخطر من معركة التنزيل.

لقد حدث عبد الله بن سلمة عنك قال: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً آدم طوالاً أخذ الحربة بيده ويده ترعد فقال: (والذي نفسي بيده لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة)[2]

وقد كان دورك في المعركة مع المؤولة قويا وواضحا،

1() أنساب الأشراف: 1/ 328.

2() قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج 7 / ص 175): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن سلمة وهو ثقة، وقال البوصيري في كتابه: (إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة) (ج 8 / ص 5): رواه أبوداود الطيالسي وأبو يعلى وأحمد بن حنبل بسند صحيح.

فأنت المطمئن بالإيمان الذي لا يتردد، ولا يتلكأ عن كل واجب ينهض إليه.

لقد وصف المؤرخون بكل دقة بعض ما حصل في ذلك الوقت.. وكيفية وقوفك مع الحق، والفئة الممثلة له، وذكروا أن الإمام علي لما أراد المسير إلى أهل الشام، حيث يقع مركز الفئة الباغية، دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار يحيي سنة الشورى فيهم، فحمد الله وأثنى عليه وقال: (أما بعد فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا، وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم) [1]

حينها قام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد يا أمير المؤمنين فأنا بالقوم جد خبير، هم لك ولأشياعك أعداء، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجاهدوك لا يبقون جهدا، مشاحة على الدنيا، وضنا بما في أيديهم منها، وليس لهم إربة غيرها إلا ما يخدعون به الجهال من الطلب بدم عثمان بن عفان، كذبوا ليسوا بدمه يثأرون، ولكن الدنيا يطلبون.. فسر بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، وإن أبو إلا الشقاق فذلك الظن بهم.. والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى، ولا يسمع إذا أمر) [2]

بعدها قمت أنت بطولك الفارع، وصوتك المجلجل، فذكرت الله بما هو أهله، وحمدته، ثم قلت: (يا أمير المؤمنين، إن

1() وقعة صفين (ص: 92)

2() وقعة صفين (ص: 92)

استطعت ألا تقيم يوما واحدا فافعل، اشخص بنا قبل استعار نار الفجـرة، واجتمـاع رأيهم على الصـدود والفرقـة، وادعهم إلى رشدهم وحظهم. فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم، والجد في جهادهم، لقربة عند اللـه، وهـو كرامـة منه) [1]

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة، فحمد الله وأثنى عليـه ثم قال: (يا أمير المؤمنين، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعـرد، فواللـه لجهادهم أحب إلى من جهـاد الـترك والـروم، لإدهـانهم في دين اللــه، واســتذلاهم أوليــاء اللــه من أصــحاب محمــد ﷺ، من المهاجرين والأنصار والتـابعين بإحسـان.. إذا غضـبوا على رجـل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه، وفيئنا لهم في أنفســهم حلال، ونحن لهم ـ فيما يزعمون رقيق) [2]

ثم قام سهل بن حنيف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (يـا أمير المؤمـنين، نحن سـلم لمن سـالمت، وحـرب لمن حـاربت، ورأينا رأيك ونحن كف يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهـذا الأمـر في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخـبرهم بمـا صـنع اللـه لهم في ذلك من الفضل، فإن أهل البلد هم النـاس، فـإن اسـتقاموا لك استقام لك الذى تريـد وتطلب، وأمـا نحن فليس عليـك منـا خلاف، متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك) [3]

بعد تلك المشورة التي أحيـا بهـا الإمـام علي السـنة الـتي

---

[1] () وقعة صفين (ص: 93)

[2] () وقعة صفين (ص: 93)

[3] () وقعة صفين (ص: 94)

أميتت، قام خطيبا على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قــال: (سـيروا إلى أعـداء اللـه.. سـيروا إلى أعـداء السـنن والقـرآن، سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار) [1]

في ذلـك الحين قـدم بعض المتشـككين إلى الإمـام علي، وهو أبو زبيب بن عوف، فقال: (يا أمير المؤمـنين، لئن كنـا على الحق لأنت أهدانا سبيلا، وأعظمنا في الخير نصيبا، ولئن كنـا في ضلالة إنك لأثقلنا ظهرا وأعظمنا وزرا: أمرتنا بالمسـير إلى هـذا العـدو وقـد قطعنـا مـا بيننـا وبينهم من الولايـة، وأظهرنـا لهم العداوة، نريد بذلك مـا يعلم اللـه من طاعتـك، وفي أنفسـنا من ذلك ما فيها.. أليس الذى نحن عليه الحق المـبين، والـذى عليـه عدونا الغى والحوب الكبير؟)[2]

فقال الإمام على: (بلى، شهدت أنك إن مضيت معنا ناصرا لـدعوتنا، صـحيح النيـة في نصـرتنا، قـد قطعت منهم الولايـة، وأظهـرت لهم العـداوة كمـا زعمت، فإنـك ولى اللـه تسـيح في رضوانه، وتركض في طاعته: فأبشر أبا زبيب) [3]

وقلت أنت: (اثبت أبا زبيب ولا تشك في الأحزاب عدو الله ورسوله)

وحين سمعكما الرجل، قال: (ما أحب أن لي شـاهدين من هذه الأمة فيشهدا لي على ما سألت عنـه من هـذا الأمـر الـذى

---

[1] () وقعة صفين (ص: 94)

[2] () وقعة صفين (ص: 100)

[3] () وقعة صفين (ص: 101)

أهمني مكانكما)

لبست حينها لباس الحرب، ورحت تسير جذلان كعادتك في حروبك مع المشركين، مطمئنا بالحق الذي تحمله، وبالبشارات التي بشرت بها..

كنت في طريقك إلى حرب أعداء الدين، تصيح مرتجزا:

سيروا إلى الأحزاب ... سيروا فخير الناس

هذا أوان طاب سل ... وقودنا الخيل وهز

وكان أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم من التابعين يسيرون خلفك، وينظرون إليك كل حين ليطمئنوا أنهم مع ممثل الفئة المحقة، وقد حدث أبو عبد الرحمن السُّلَمي عنك، فقال: (رأيت عمَّاراً وهاشم بن عتبة وهما يسعيان بين الصفَّين، فقال عمار: يا هاشم، هذا والله ليخلفنّ أمره وليخذلنّ جنده.. ثم قال: يا هاشم الجنة تحت الأبارقة، اليوم ألقى الأحبَّة: محمداً وحزبه.. ثم أخذ في وادٍ من أودية صِفِّين.. ورأيت أصحاب محمد ﷺ يتبعون عماراً كأنه لهم عَلَمٌ) [1]

ورووا عنك أنك كنت حينها تردد مخاطبا رفيقك هاشم بن عتبة ـ صاحب راية الإمام علي: (يا هاشم تقدَّم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنّة، وقد فتحت أبواب الجنة، وتزيّنت الحور العين، اليوم ألقى الأحبّة، محمداً وحزبه) [2]

---

[1] () تاريخ الطبري (5/ 40)

[2] () تاريخ الطبري (5/ 40)

ورووا بعض مواقف المتشككين التي كنت أنت سبب زوال الشك عن أصحابها، ومنها أن بعضهم، وكان اسمه أبا نوح، قال: كنت في الخيل يوم صفين في خيل على، وهو واقف بين جماعة من همدان وحمير وغيرهم من أفناء قحطان، وإذا أنا برجل من أهل الشام يقول: من دل على الحميري أبى نوح؟ فقلنا: هذا الحميرى فأيهم تريد؟ قال: أريد الكلاعى أبا نوح، قلت: قد وجدته فمن أنت؟ قال: أنا ذو الكلاع، سر إلى، فقال ذو الكلاع: إنما دعوتك أحدثك حديثا حدثناه عمرو بن العاص قديما في إمارة عمر.

فسأله أبو نوح عن الحديث، فقال ذو الكلاع: حدثنا عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: (يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر)، فقال أبو نوح: لعمر الله إنه لفينا، فقال ذو الكلاع: أجاد هو في قتالنا؟ قال أبو نوح: (نعم ورب الكعبة، لهو أشد على قتالكم منى، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمى)، قال ذو الكلاع: ويلك، علام تتمنى ذلك منا؟ والله ما قطعتك فيما بيني وبينك، وإن رحمك لقريبة، وما يسرني أن أقتلك، فقال أبو نوح: (إن الله قطع بالإسلام أرحاما قريبة، ووصل به أرحاما متباعدة، وإنى لقاتلك أنت وأصحابك، ونحن على الحق وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة الكفر ورؤوس الأحزاب) [1]

حينها تصور ذو الكلاع أنه يمكن أن ينشر ذلك الحديث بين أصحاب الفئة الباغية ليردعها عن بغيها، فطلب من أبي نوح أن يسير معه إليها، وقال: هل تستطيع أن تأتى معى في صف أهل الشام، فأنا جار لك من ذلك ألا تقتل ولا تسلب ولا تكره على

1() وقعة صفين (ص: 334)

بيعـه، ولا تحبس عن جنـدك، وإنمـا هي كلمـة تبلغهـا عمـرو بن العـاص، لعـل اللـه أن يصـلح بـذلك بين هـذين الجنـدين، ويضـع الحرب والسلاح)، فقال أبـو نـوح: إنى أخـاف غـدراتك وغـدرات أصحابك، فقال له ذو الكلاع: أنا لك بما قلت زعيم.

حينها سار أبو نوح، وهو يقول: اللهم إنك ترى مـا أعطـاني ذو الكلاع وأنت تعلم مـــا في نفســـي، فاعصـــمني واخـــتر لي وانصرني وادفع عنى.

وحينمـا قـدموا على عمـرو بن العـاص وهـو عنـد معاويـة وحوله الناس، وكـان معهم عبـد اللـه بن عمـرو يحـرض النـاس على الحرب، فلما وقفا على القوم قال ذو الكلاع لعمرو: يـا أبـا عبد الله، هل لك في رجل ناصح لبيب شفيق يخـبرك عن عمـار بن ياسر لا يكذبك؟

فقال عمرو: ومن هو؟ قال: ابن عمى هـذا، وهـو من أهـل الكوفة.. فقال عمرو: إنى لأرى عليك سيما أبى تراب.. قال أبـو نـوح: علي سـيما محمـد ﷺ وأصـحابه، وعليـك سـيما أبى جهـل وسيما فرعون.

فقام أبو الأعور فسل سيفه، ثم قـال: لا أرى هـذا الكـذاب اللـئيم يشـاتمنا بين أظهرنـا وعليـه سـيما أبى تـراب، فقـال ذو الكلاع: أقســم باللــه لئن بســطت يــدك إليــه لأخطمن أنفــك بالسيف، ابن عمى وجاري عقدت لـه بـذمتي، وجئت بـه إليكمـا ليخبركما عما تماريتم فيه.

فقـال عمـرو بن العـاص: أذكـرك باللـه يـا أبـا نـوح إلا مـا صدقتنا، ولم تكذبنا، أفيكم عمار بن ياسر؟ فقال له أبو نوح: مـا أنا بمخبرك عنـه حـتى تخـبرني لم تسـألني عنـه، فإنـا معنـا من أصحاب رسول الله ﷺ عدة غيره، وكلهم جاد على قتالكم.

فقال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن عمارا تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس ينبغى لعمار أن يفارق الحق ولن تأكل النار منه شيئا)[1]

حينها صاح أبو نوح مهللا، وهو يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لفينا، جاد على قتالكم.

فقال عمرو: والله إنه لجاد على قتالنا؟ قال: نعم والله الذى لا إله إلا هو، ولقد حدثنى يوم الجمل أنا سنظهر عليهم، ولقد حدثنى أمس أن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنهم على باطل، ولكان قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

حينها طلب عمرو أن يجمعه به، وقال: فهل تستطيع أن تجمع بيني وبينه؟ قال: نعم.

فركب عمرو بن العاص، وابناه، وعتبة بن أبى سفيان، وذو الكلاع، وأبو الأعور السلمى، وحوشب، والوليد بن عقبة بن أبى معيط، فانطلقوا حتى أتوا خيولهم.

ثم ذهب أبو نوح ومعه ابن ذي الكلاع إليك، وقصا عليك ما جرى، وطلبا منك أن تسير إلى هؤلاء الذين يريدون أن يتأكدوا من موقفك، حينها ضحكت على بساطتهما، وقلت لأبي نوح: هل يسرك ذلك؟ قال: نعم، فقد أخبرني الساعة عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (عمار يقتله الفئة الباغية)

فقلت: أقررته بذلك؟ قال: نعم أقررته فأقر..

كنت تعلم هجر هؤلاء للقرآن ولأحاديث رسول الله ﷺ،

1() وقعة صفين (ص: 335)

ولذلك قلت له: صدق، وليضرنه ما سمع ولا ينفعه.

ثم سرت معه إليهم، وأنت تعلم غدرهم، لكنـك أبيت إلا أن تقيم الحجة عليهم، وبعد أن التقيت بهم تشهد عمرو، فقلت له: (اسكت، فقد تركتها في حياة محمد ﷺ وبعد موتـه، ونحن أحـق بها منك، فـإن شـئت كـانت خصـومة فيـدفع حقنـا باطلـك، وإن شئت كانت خطبة فنحن أعلم بفصل الخطاب منـك، وإن شـئت أخبرتك بكلمة تفصل بيننا وبينك وتكفرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسك، ولا تستطيع أن تكذبني فيها) [1]

حينها أخبرك عمرو عن سر مجيئه، وقال: يـا أبـا اليقظـان، ليس لهذا جئت، إنما جئت لأنى رأيتك أطوع أهـل هـذا العسـكر فيهم.. أذكرك الله إلا كففت سلاحهم وحقنت دماءهم، وحرضت على ذلك، فعلام تقاتلنا؟ أو لسنا نعبـد إلهـا واحـدا، ونصـلي إلى قبلتكم، وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن برسولكم.

رحت حينها تبين لـه الفـرق بين معركـة التنزيـل، ومعركـة التأويـل، فقلت: (الحمـد للـه الـذى أخرجهـا من فيـك، إنهـا لي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والنبي ﷺ، والكتاب من دونك ودون أصـحابك.. الحمـد للـه الـذى قـررك لنـا بـذلك، دونـك ودون أصـحابك، وجعلـك ضـالا مضـلا.. وسـأخبرك علام قاتلتك عليه أنت وأصـحابك.. أمـرني رسـول اللـه ﷺ أن أقاتـل الناكثين، وقد فعلت، وأمرني أن أقاتـل القاسـطين، فـأنتم هم.. وأما المارقون فما أدرى أدركهم أم لا.. أيها الأبـتر، ألسـت تعلم أن رسـول اللـه ﷺ قـال لعلى: (من كنت مـولاه فعلى مـولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)، وأنا مولى الله ورسوله ﷺ

[1] () وقعة صفين (ص: 337)

وعلى بعده، وليس لك مولى)

لم يلتفت عمرو لتلك الحقائق التي كنت تقولها لـه، والـتي كان يعلمها، ويتجاهلها، ولذلك راح يهون من شـأنك، فقـد كـانوا يسبونك بسوادك، وبأمك الشهيدة، ويسمونك ابن سـمية، فقلت لـه: (إن الكـريم من أكرمـه اللـه، كنت وضـيعا فرفعـني اللـه، ومملوكا فأعتقني الله، وضـعيفا فقـواني اللـه، وفقـيرا فأغنـاني الله)

وانتهى المجلس، وعــاد البغــاة إلى ديــارهم، من دون أن يلفتوا لتلك الأحاديث العظيمة التي وردت في حقك، مع كــونهم من رواتها.. ولكن الشيطان الذي استطاع أن يحتـال على الأمم الأخرى ببغيها وحسدها استطاع أن يحتال على هذه الأمة أيضا.

وقد اسـتطاع عمـرو أن يحتـال على ذي الكلاع، حيث قـال له: (إنـه سـيرجع إلينـا، ويفـارق أبـا تـراب)، فصـدقه ذو الكلاع، وبقي في عسكر الفئة الباغية، ينتظر عـودة عمـار إلى معاويـة، وقــد شــاء اللــه أن يقتلا في نفس اليــوم.. حينهــا قــال عمــرو مخاطبا معاوية: (والله يا معاوية مـا أدرى بقتـل أيهمـا أنـا أشـد فرحا.. واللـه لـو بقى ذو الكلاع حـتى يقتـل عمـار لمـال بعامـة قومه إلى على، ولأفسد علينا جندنا) [1]

لن أقص عليك كل مـا ذكـره المؤرخـون من مـآس، وإنمـا سأكتفي بذكر شهادتك.. فما أجمل ذلك اليوم الذي سـرت فيـه إلى ربك، لتلقى الأحبة الذين عشت جميع حياتك مشتاقا لهم.

لقد كنت حينهـا ممتلئـا سـرورا وسـعادة ليقينـك بأنـك قـد أكملت جميـع الكلمـات الـتي كلفت بهـا، وحفظت جميـع عهـود

[1] () وقعة صفين (ص: 341)

النبوة، وأنه آن لشهادتك التي تأخرت، أن يتحقق أجلها، فتلتحق بأبيك وأمك، بعد أن أكملت كل ما عليك من وظائف.

لقـد ذكـر المؤرخـون أنـك قبـل استشـهادك أصـابتك تلـك الغشية التي سببها لك المشركون في حرب التنزيل، ثم ســببها من بعدهم المبدلون في حرب التأويـل، فـرووا عن بعضـهم أنـه قال: (نظرت إلى عمار بن ياسر يوما من أيام صفين رمى رمية فـأغمى عليـه ولم يصـل الظهـر، ولا العصـر، ولا المغـرب، ولا العشاء، ولا الفجر ثم أفـاق فقضـاهن جميعـا، يبـدأ بـأول شـيء فاته، ثم بالتي تليها)

ويوم استشهادك جيء لك بشربة من لبن، ففرحت عنــدما رأيتها، ثم قلت: إنى سـمعت خليلي رسـول اللـه ﷺ يقـول: (إن آخر زادك من الدنيا شربة لبن) [1]

وبعد أن شربتها، خرجت تردد في ساحة المعركة:

كلا ورب البيت لا	حتى أموت أو أرى ما
أنا مع الحق أحامي	صهر النبي ذي
نقتل أعداه وينصرنا	ونقطع الهام بحد
والله ينصرنا على	ظلما علينا جاهدا ما

وقد روى المؤرخون على لسان الذين قتلوك آخر كلماتـك، حيث ذكـروا أن ابن جـون جـاء لعمـرو وقـال: أنـا قتلت عمـارا، فقال له عمرو: فمـا كـان آخـر منطقـه؟ قـال سـمعته: (يقـول: اليوم ألقى الأحبة محمـدا وحزبـه)، فقـال لـه عمـرو: (صـدقت،

[1] () وقعة صفين (ص: 342)

أنت صاحبه، أما والله ما ظفرت يداك ولكن أسخطت ربك) [1]

ورووا أنه احتج رجلان في سلبك، كلاهما يدعي ذلك، يبتغي الأجر من معاوية، فأتيا عبد الله بن عمرو فقال لهما: ويحكما، اخرجا عنى فإن رسول الله ﷺ قال: (ولعت قريش بعمار.. ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار) [2]

لكن كل هذه الأحاديث لم تجدي في ردع الفئة الباغية، لا في ذلك الزمان، ولا في هذا الزمان، فلا زال معاوية يتربع على ذلك العرش الذي تسلط عليه ببغيه، لا العرش المصنوع من الخشب فقط، وإنما عروش القلوب التي نسيتك وذكرته، وجحدتك وشكرته.. فعشرات الكتب تؤلف عنه، ولا يؤلف عنك كتاب واحد.

لكن زمانك سيدي قادم مع كل الذين عاشوا المعاني التي عشت من أجلها، وسوف تنبت بذور كلماتك من جديد، وسيعود الإسلام الأصيل معها، وسيرتفع اسمك، وتنخفض أسماؤهم، بعد أن يأذن الله لدولة دين البشر أن تسقط، وتحل بدلها دولة دين الله الأصيل الذي لا يغير ولا يبدل.

---

[1] () وقعة صفين (ص: 342)

[2] () وقعة صفين (ص: 342)

رسالة إلى سلمان الفارسي

سيدي سلمان الفارسي.. عفوا المحمدي..

أيها الصحابي الجليل.. الباحث عن الحقيقة.. المهتدي لها.. السائر في طريقها.. الدال عليها.. صاحب اللسان الحكيم، والقلب السليم، والصيت العظيم.

يا من شرفك رسول الله ﷺ بقبولك في عترته الطاهرة، وأهل بيته الصادقين الصالحين، بعد أن تبرأت من كل نسبة غير نسبتك لله ورسوله، فقال عنك: (سلمان منا أهل البيت)[1]

وقد صارت تلك نسبتك التي يعرفك بها الصالحون، فأنت الوحيد الذي شرف بعدم النسبة إلى قومه، وإنما ينسب إلى نبيه، وقد كان الإمام الصادق يذكرك ويعظمك كثيرا، وحين سأله بعضهم عن ذلك، وقال له: (ما أكثر ما أسمع منك ذكر سلمان الفارسي؟)، أجابه بقوله: (لا تقل سلمان الفارسي، ولكن قل سلمان المحمدي، أتدري ما أكثر ذكري له؟)، فقال الرجل: لا.. فقال الإمام الصادق: (لثلاث خصال: إيثاره هوى أمير المؤمنين الإمام علي على نفسه، والثانية: حبه للفقراء واختياره إياهم على أهل الثروة والعدد، والثالثة: حبه للعلم والعلماء)[2]

وهكذا كان الإمام علي يشبهك بلقمان الحكيم، ويقول: (سلمان أمرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان

[1] () رواه الحاكم 3/691 ح(6539)، المعجم الكبير للطبراني 6/212 ح6040)

[2] () رواه الطوسي في أماليه 1: 133.

الحكيم، علم العلم الأول والعلم الآخـــر، وقـــرأ الكتـــاب الأول والكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف)[1]

وكان يخصك بالصـلاة، ويـذكر سـر ذلـك التخصـيص، فعن زاذان الكندي، قال: كنا عند علي ذات يـوم فوافـق النـاس منـه طيب نفس ومزاح، فقالوا: يا أمير المؤمنين حدثنا عن أصحابك، قال: عن أي أصحابي؟ قالوا: عن أصحاب محمـد ﷺ، قـال: كـل أصحاب محمد ﷺ أصحابي، فعن أيهم؟ قالوا: عن الذين رأينــاك تلطفهم بذكرك والصلاة عليهم دون القـوم، حـدثنا عن سـلمان، قال: من لكم بمثـل لقمـان الحكيم؟ ذاك امـرؤ منـا وإلينـا أهـل الــبيت، أدرك العلم الأول والعلم الآخـــر، وقـــرأ الكتـــاب الأول والكتاب الآخر، بحر لا ينزف) [2]

وكان يقول لمن سأل عنك، غير عارف بفضلك: (مـا أقـول في رجل خلق من طينتنا، وروحـه مقرونـة بروحنـا، خصـه اللـه تبارك وتعالى من العلوم بأولها وآخرها وظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها)

ثم يروي لهم كيف كـان رسـول اللـه ﷺ يعظمـك، ويعـرف فضلك، فيقول: (ولقد حضرت رسول الله ﷺ وسلمان بين يديه، فدخل أعرابي فنحاه عن مكانه وجلس فيه، فغضب رسول الله ﷺ حتى در العرق بين عينيه واحمرتا عيناه، ثم قال: يا أعــرابي، أتنحى رجلاً يحبه الله تعالى ورسوله.. يا أعرابي، أتنحي رجلاً مـا حضرني جبريل إلا أمرني عن ربي عز وجل أن أقرئـه السـلام.. يا أعرابي، إن سلمان مني، من جفاه فقد جفاني ومن آذاه فقد

[1] () بحار الأنوار 22 / 347..

[2] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 187)

آذاني، ومن باعده فقد باعدني، ومن قربه فقد قربني) [1]

وهكذا كان يـذكرك كـل حين، ويـذكر معـك المنتجـبين من أصـحاب رسـول اللـه ﷺ الـذين حـافظوا على العهـد، ومثلـوا الإسـلام وجميـع القيم الرفيعـة الـتي جـاء بهـا.. وكـان يقـول: (ضــاقت الأرض بســبعة، بهم ترزقــون، وبهم تنصــرون، وبهم تمطرون، منهم: سلمان الفارسي، والمقـداد، وأبـو ذر، وعمـار، وحذيفة)، ثم يقول: (وأنا إمامهم، وهم الذين صلوا على فاطمة) [2]

وعلى دربه سار جميع أئمة أهل البيت.. فكلهم كانوا يثنون عليك، ويذكرون فضلك، ويذكرون سبب تلك المنـاقب العظيمـة التي شرفت بها، وقد قال عنك الإمـام البـاقر: (إن سـلمان منـا أهـل الـبيت، إنــه كـان يقـول للنـاس: هـربتم من القـرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتاباً دقيقاً حوسبتم فيه على النقير والقطمـير والفتيل وحبة الخردل، فضاق عليكم ذلك، وهربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم)[3]

وكيف لا يذكرون ذلـك، وجـدهم رسـول اللـه ﷺ هـو الـذي سن سنة الثناء عليك، فقد قال فيـك: (نـزل علي الـروح الأمين فحدثني أن الله تعالى يحب أربعة من أصـحابي)، فقـال لـه من حضر: من هم يـا رسـول اللـه؟ فقـال: (علي وسـلمان وأبـو ذر

1() رواه أحمـد (38/ـ 122)، وفي فضـائل الصـحابة (1176)، ومن طريقـه أخرجـه الحاكم 3/130.

2() رواه الكشى في رجاله، ص 4 ورواه الصدوق أيضا في الخصال، وفرات بن إبراهيم في تفسيره ص 215.

3() رجال الكشى: 12.

والمقداد)، وقال فيك: (اشتاقت الجنة إلى أربعة: علي والمقداد وعمار وسلمان) [1]

وكان يغضب غضبا شديدا من أولئك القوميين والعنصريين الذين كانوا ينظرون إليك وإلى المستضعفين من الصحابة باحتقار، ففي الحديث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء؟ فقام معاذ، فأخذ بتلبيبه حتى أتى به النبي ﷺ، فأخبره بمقالته، فقام رسول الله ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نُودي الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (يا أيها الناس إنَّ الربَّ رب واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي). فقال معاذ وهو آخذ بتلبيبه: يا رسول الله ما تقول في هذا المنافق؟ فقال: (دعه إلى النار) قال: فكان فيمن ارتد فقُتل في الردة[2].

وحدث الإمام الباقر، قال: (جلس جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ينتسبون ويفتخرون وفيهم سلمان، فقال له عمر: ما نسبتك أنت يا سلمان، وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً، فهداني الله بمحمد، وكنت عائلاً، فأغناني الله بمحمد، وكنت مملوكاً فاعتقني الله بمحمد، فهذا حسبي ونسبي يا عمر.. ثم خرج رسول الله ﷺ، فذكر سلمان ما قال عمر، وما أجابه به، فقال رسول الله ﷺ: (يا معشر

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 190)

[2] () تاريخ دمشق لابن عساكر (21/ 407)

قريش ؛ إن حسب المرء دينه، ومروته خلقه، وأصله عقله، قال الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، ثم أقبل على سلمان فقال له: (سلمان، إنه ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل، فمن كنت أتقى منه فأنت أفضل منه)[1]

ائذن لنا سيدي في أن نستن بهذه السنة، ونسير هذه السيرة، فنتحدث عنك ومعك.. فما أجمل الحديث مع الحكماء العلماء الصادقين.. وما أجمل الحديث مع من ترفعوا عن طينتهم لينالوا بدلها الجواهر المقدسة.. وما أجمل الحديث عن ذلك الذي اتفقت عليه طوائف الأمة، ولم يختلف فيه اثنان منها.

وقد رأيت ـ سيدي ـ أنك ـ بتلك المعاني التي وصفت بها ـ صرت رمزا للحقيقة، فأنت الذي جاهدت طويلا في البحث عنها، ثم جاهدت طويلا في الدلالة عليها.. فأنت الباحث عن الحقيقة، وأنت الدال عليها.

1. الباحث عن الحقيقة:

سيدي يا لقمان هذه الأمة، وحكيمها..

لا يمكن لأحد أن يتحدث عنك، دون أن يتحدث عن رحلتك للحقيقة.. تلك الرحلة التي أمضيت فيها جزءا طويلا من عمرك، تقطع المسافات الطوال، وتتعرض لكل أنواع البلاء إلى أن وصلت إلى منبع الحقيقة ومركزها، ففنيت فيها، وصرت جزءا منها.

---

1 () الدرجات الرفيعة 205 / 206.

لقد حدثت عن تلك الرحلة الطويلـة الـتي وصـفتها، فقلت: (قد تداولني بضعة عشر من رب إلى رب)[1]

وأشار إليها رسول الله ﷺ عندما تحدث عنـك وعن قومـك الفرس وصدقهم في إيمانهم، واجتهادهم فيه، فقـال: (لـو كـان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء)[2]، وأشار إليك.

وصدق رسـول اللـه ﷺ.. فقـد كـان عمـه أبـو لهب، وأكـثر قريش من الذين عرفوا رسول الله ﷺ من صباه الباكر، وعرفوا أمانته وصـدقه، ورأوا معجزاتـه، وسـمعوا القـرآن الكـريم غضـا طريا.. وهم يتقنون اللغة التي نـزل بهـا، ويقـرون لـه بالإعجـاز، ومع ذلك حجبوا عن الإيمان، واهتديت أنت.

فلــذلك أنت البــاحث عن الحقيقــة، الصــادق في طلبهــا.. ولـذلك كنت أهلا لأن تصـل إليهـا، ويحجب أولئـك الـذين امتلأت نفوسهم كبرا، وقلوبهم حقدا.

لقد ذكرت بداية رحلتك، ومعها ذكرت بداية نشـأتك، وأنـك كنت من أسرة غنية، فأبوك ـ كما ذكـرت ــ رئيس للقريـة الـتي كنت تسكن فيها.. وكان لكم مال وجاه.. ولذلك لم تكن رحلتـك في طلب الرزق، وإنما كانت في طلب الحقيقة.

لقد قلت تخاطب الذين سـألوك عن رحلتـك إلى الحقيقـة: (كنت رجلاً من أهل فارس، من أهل أصبهان من قرية يقال لها: (جي)، وكان أبي دهقان أرضه (رئيس القرية)، وكـان يحبُّني حبًّا شديدًا، لم يحبَّه شيئًا من ماله ولا ولده، فمـا زال بـه حبـه إيـاي

[1] () حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 195)

[2] () مسلم (2546) (231)، والنسائي في الكبرى (8278)

حـــتى حبســـني في بيت كمـــا تُحبَس الجاريـــة، واجتهـــدت في المجوسية، حتى كنت قاطنَ النارِ الذي يُوقِـدها ولا يتركهـا تخبـو ساعة، فكنت كذلك لا أعلم من أمر الناس شيئًا إلا مـا أنـا فيـه) [1]

لكن اللــه تعــالى شــاء أن يخرجــك من تلــك القيــود الــتي وضعت لتحول بينك وبين الوصول للحقيقة، فقـدر من الأسـباب ما يسر ذلك لك.. لقد ذكرت ذلك، فقلت ـ تتحدث عن والــدك ـ (بنى أبي بنيانًا له، وكانت له ضـيعة فيهـا بعض العمـل، فـدعاني فقال: أي بُنَي، إنه قد شـغلني مـا تـرى من بنيـاني عن ضـيعتي هذه، ولا بد من اطلاعها، فانطلق إليها، فمُـرْهم بكـذا وكـذا، ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عـني شـغلتني عن كـل شـيء، فخرجت أريد ضيعته، فمررتُ بكنيسة النصارى)

وهنا بـدأت رحلتـك من المجوسـية إلى المسـيحية، وبـدأت تلتــذ بالتنقــل في عــالم الحقــائق.. لقــد ذكــرت ذلــك، فقلت: (فسمعت أصواتهم فيها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: هؤلاء النصـارى يصلُّون، فدخلت أنظر، فأعجبني ما رأيت من حالهم، فو الله مـا زلتُ جالسًا عندهم حتى غربت الشـمس، وبعث أبي في طلـبي في كل وجـه حـتى جئتـه حين أمسـيت، ولم أذهب إلى ضـيعتِه، فقال أبي: أين كنت؟ ألم أكن قلت لك: لا تحتبس عني؟ فقلت: يا أبتاه! مـررتُ بنـاس يقـال لهم: النصـارى، فـأعجبني صـلاتهم ودعاؤهم فجلست أنظر كيف يفعلون)

[1] () انظر هذه القصة بطولها في: أسـد الغابـة لابن الأثـير (2/ـ 265ـ 267)، مسـند أحمد (5/ 437ـ 444)، وطبقات ابن سعد (4/ 45)، والتاريخ الكبير للبخاري (4/ 135-136)، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي (1/ـ 163- ـ 171)، ومجمـع الزوائـد للهيثمي (9/ 332- 344)، وأسد الغابة لابن الأثير (2/ 365)

وهنا بدأت معاناتك مع الواقفين في وجـه الحقيقـة، الـذين يصرفون الخلق عن اتباعهـا، وكـان أولهم أهلـك الأقربـون، لقـد قلت تصف معاناتـك معهم: (قـال لي أبي: أي بـني، دينـك ودين آبائك خـير من دينِهم، فقلت: لا واللـه، مـا هـو بخـير من دينهم، هؤلاء قوم يعبدون الله، ويدعونه ويصـلُّون لـه، ونحن إنمـا نعبـد نارًا نُوقِدها بأيدينا، إذا تركناها ماتت، فخافني، فجعـل في رِجْلي حديدًا، وحبسني في بيتٍ عنده)

لكنك لم ترضخ للأمر الواقـع، وإنمـا رحت تسـتعمل حيلـك الشرعية للفـرار من كـل الحجب الـتي تحـول بينـك وبين النـور الذي بدأ يبـدو لـك من خلال كـوة المسـيحية.. لقـد قلت تصـف ذلـك: (فبعثت إلى النصـارى، فقلت لهم: أين أصـل هـذا الـدين الذي أراكم عليه؟ فقالوا: بالشام، فقلت: فـإذا قـدِم عليكم من هنـاك نـاسٌ فـآذنوني، فقـالوا: نفعـل، فقـدم عليهم نـاس من تجَّارهم، فبعثوا إليَّ أنه قد قـدِم علينـا تجـار من تجَّارنـا، فبعثت إليهم إذا قضـوا حـوائجهم وأرادوا الخـروج فـآذنوني، فقـالوا: نفعل، فلما قضـوا حـوائجهم وأرادوا الرحيـل، بعثـوا إليَّ بـذلك، فطرحت الحديد الذي في رجلي، ولحقت بهم)

وهكذا ضحيت بكل ذلك العز والغنى الذي كنت تعيش فيه، ورحت تغامر بكل شـيء من أجـل الوصـول إلى الحقيقـة الـتي ملأت عليك كل كيانك.

وعندما سافرت في رحلتك إلى المسيحية لم تقنع بما كان عليه عوام المسيحيين، وإنما رحت تبحث عن أفضلهم، وأكثرهم إخلاصا، لأن همتك العالية كانت تترفع بك دائما عن السفاسـف، وتدعوك إلى المعالي، لقد ذكرت ذلك، فقلت: (فانطلقت معهم حتى قدِمت الشام، فلمـا قـدِمتُها سـألتُ: مَن أفضـل أهـل هـذا الدين؟ فقالوا: الأسقف صاحب الكنيسة، فجئتُه، فقلت لـه: إني

أحببت أن أكون معك في كنيستك، وأعبد الله فيها معك، وأتعلَّم منك الخير، قال: فكن معي)

وهنا بدأت تكتشف لصوص الله، أولئـك الـذين يسـتخدمون الدين وسـيلة للـدنيا، لقـد قلت تصـف لص الكنيسـة وأسـقفها: (فكنت معه، وكان رجل سوءٍ كـان يـأمرهم بالصـدقة، ويـرغبهم فيها، فإذا جمعها إليه اكتَنَزها ولم يُعطِهـا المسـاكين حـتى جمـع سبع قلال من ذهب ووَرِقٍ، فأبغضتُه بغضًا شـديدًا لمـا رأيت من حاله، فلم ينشبْ أن مـات، فلمـا جـاؤوا ليـدفنوه، قلتُ لهم: إن هذا رجل سوءٍ، وكان يأمركم بالصدقة ويـرغبكم فيهـا، حـتى إذا جمعتموها إليه، اكتنزها ولم يُعطِها المساكين، فقالوا: وما علامة ذلك؟ فقلت: أنا أخرج لكم كنزها، فقالوا: فهاتِـه، فـأخرجت لهم سبع قلال مملوءة ذهبًا ووَرِقًـا، فلمـا رأوا ذلـك، قـالوا: واللـه لا يدفن أبدًا، فصَلَبوه على خشبة ورَمَوه بالحجارة، وجـاؤوا برَجُـل آخر فجعَلوه مكانه)

وقد أراد الله أن يريك عالم الدين بكل معانيه، فلذلك أراك الصالحين، كما أراك المفسدين حتى لا تقع أسيرا لتلك الأحكـام الجائرة التي تعمم مواقفها على كل شيء تصـادفه، بسـبب مـا يقع لها من أحداث، لقد قلت تصفه، وتثني عليـه: (فلا واللـه مـا رأيتُ رجلاً قـط لا يصـلي الخمس، أرى أنـه أفضـل منـه وأشـد اجتهادًا ولا زهادة في الدنيا، ولا أدأب ليلاً ونهارًا منه، ما أعلمني أحببتُ شيئًا قط قبله حبه، فلم أزل معه حتى حضرتْه الوفاةُ)

وهنا هداك الله إلى الوصية، وكون الأرض لا تخلو من قائم لله بحجته، فلذلك طلبت من الأسـقف أن يـدلك على وارثـه، أو وصـيه، أو من يمكنـه أن يقـوم مقامـه، فـدلك عليـه، لقـد قلت تصف ذلك: (فقلت: يا فلان، قد حضرك مـا تـرى من أمـر اللـه، وإني واللهِ ما أحببتُ شيئًا قط حبـك، فمـاذا تـأمرني؟ وإلى مَن

توصيني؟ فقال لي: أي بُنَي، والله مـا أعلمـه إلا رجلاً بالموصـل فأتِه، فإنـك سـتجده على مثـل حـالي، فلمـا مـات وغيِّب لحقت بالموصل فأتيتُ صاحبها، فوجدتـه على مثـل حالـه من الاجتهـاد والزهادة في الدنيا، فقلت له: إن فلانًا أوصى بي إليـك أن آتيَـك وأكون معك، قال: فأقم أي بُنَي، فـأقمتُ عنـده على مثـل أمـر صاحبه حتى حضرته الوفاة، فقلت له: إن فلانًا أوصـى بي إليـك وقد حضرك من أمـرِ اللـه مـا تـرى، فـإلى مَن توصـيني؟ قـال: والله ما أعلمه أي بني، إلا رجلاً بنَصيبينَ، وهو على مثل ما نحن عليه، فالحَقْ به، فلمـا دفنَّاه لحقت بـالآخر، فقلت لـه: يـا فلان، إن فلانًا أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى بي إليك، قال: فـأقم يا بُنَي، فـأقمتُ عنـده على مثـل حـالهم حـتى حضـرتْه الوفـاة، فقلت له: يا فلان، إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى، وقد كان فلان أوصـى بي إلى فلان، وأوصـى بي فلان إلى فلان، وأوصـى بي فلان إليك، فقال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا على مثـل مـا نحن عليه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم، فأتِه، فإنك سـتجده على مثل ما كنا عليـه، فلمـا واريتـه خـرجتُ حـتى قـدمت على صـاحب عموريـة، فوجدتـه على مثـل حـالهم، فـأقمت عنـده واكتسبت حتى كانت لي غنيمة وبقرات، ثم حضرته الوفاة)

وهكذا ظللت تتردد بين أيدي الأوصياء، تتعلم على أيـديهم، إلى أن هداك الله إلى شمس الحقائق وقبلتها.. لقد قلت تصف طريـق ذلـك: (فقلت: يـا فلان إن فلانًـا (كـان) أوصـى بي إلى فلان، وفلان إلى فلان، وفلان إليك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله (تعالى) فإلى مَن توصيني؟ قال: أي بني، واللـه مـا أعلمـه بقي أحد على مثل ما كنا عليه، آمرُك أن تأتيه، ولكنه قد أظلـك زمان نَبِيٍّ يبعث من الحرم، مهاجرُه بين حرَّتينِ إلى أرض سَبِخة ذات نخيلٍ، وإن فيه علامـات لا تخفى، بين كتفيـه خـاتم النبـوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلصَ إلى تلك

البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه)

وهنا بدأت رحلتك الجديدة إلى النبي ﷺ، وقد أراد الله أن يذيقك فيها بعض أنواع البلاء، بل أشدها، حتى يحصل لك ما حصل لأصحابه المنتجبين، وربما في نفس الوقت الذي كانوا يتعذبون فيه، لقد قلت تصف ذلك: (فلما واريناه، أقمت حتى مرَّ بي رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملونني معكم إلى أرض العرب، وأعطيكم غنيمتي هذه وبقراتي؟ قالوا: نعم، فأعطيتهم إيَّاها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، ظلموني فباعوني عبدًا من رجلٍ من يهود بوادي القرى)

وفي الوقت الذي تعرضت فيه للعبودية، لم تكن تبالي بها، بل كان كل همك مصروفا نحو رسول الله ﷺ، لقد قلت تصف حالك: (فوالله، لقد رأيت النخل وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لي صاحبي، وما حقت عندي حتى قدم رجل من بني قريظة من وادي القرى، فابتاعني من صاحبي الذي كنت عنده، فخرج بي حتى قدِم بي المدينة، فوالله، ما هو إلا أن رأيتُها فعرفت نعتها، فأقمت في رقٍّ مع صاحبي، وبعث الله رسوله ﷺ بمكة، لا يذكر لي شيء من أمره، مع ما أنا فيه من الرق، حتى قدم رسول الله ﷺ قُباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها إذ جاء ابن عمٍّ له فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لفي قُباء مجتمعون على رجل جاء من مكة، يزعمون أنه نبي)

وهنا انتفضت انتفاضة عظيمة، فقد تحقق لك كل ما كنت تحلم به.. لقد قلت تصف حالك حينها: (فوالله ما هو إلا أن سمعتُها، فأخذتني العرواء (الرعدة)، حتى ظننت لأسقطن على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟ ما هو؟ فرفع مولاي يدَه، فلكمني لكمة شديدة، وقال: ما لك ولهذا؟ أقبل قبل عملك،

فقلت: لا شيء، إنما سمعت خبرًا فأحببتُ أن أعلمه)

في ذلك المساء المبارك، رحت بكل ما عندك من الصــدق والإخلاص إلى النبي ﷺ، ولكنــك لم تكن لتسـلم دون أن تعـرف البينة، خشية أن تقع في لصوص الأديان.. لقد قلت تصف ذلـك: (فلمَّا أمسيتُ، وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبت بــه إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباء، فقلت: إنـه قـد بلغـني أنـك رجـل صـالح، وأن معـك أصـحابًا لـك غربـاء، وقـد كـان عنـدي شـيء للصدقة، فرأيتُكم أحقَّ مَن بهذه البلاد به، فها هـو ذا فكُـلْ منـه، فأمسك رسول الله ﷺ بيده، وقال لأصـحابه: (كُلُـوا) ولم يأكـل، فقلت في نفسي: هذه خلة مما وصـف لي صـاحبي، ثم رجعت، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجمعت شيئًا كان عندي، ثم جئتـه بـه، فقلت: إني قـد رأيتُـك لا تأكـل الصـدقة، وهـذه هديـة وكرامة ليست بالصدقة، فأكـل رسـول اللـه ﷺ وأكـل أصـحابه، فقلت: هـذه خلتـان، ثم جئتُ رسـول اللـه ﷺ وهـو يتبـع جنـازة وعليَّ شملتان لي، وهو في أصـحابه، فاسـتدرت بـه لأنظـر إلى الخاتم في ظهره، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرَف أني أستثبتُ شيئًا قد وُصـف لي، فوضـع رداءه عن ظهـرِه، فنظـرت إلى الخاتم بين كتفَيه كما وصف لي صاحبي)

حينها لم تملــك نفسـك، وهـل يمكن أن يملـك أحـد نفسـه أمام نبي.. لقـد قلت تصـف تلـك الحـال الـتي لا يمكن وصـفها: (فأكببتُ عليه أقبِّله وأبكي)

حينها طلب منك رسول الله ﷺ أن تحـدثهم بحـديثك، وهـو يعلم بكل ما حصل لك، والرحلة التي رحلتها إليه، ثم طلب منك أن تكاتب اليهودي لتخرج من رقك، وكان اليهودي جشــعا، حيث طلب منك ثلاثمائة نخلة تحييها، وأربعين أوقية.

وشاء الله أن يحدث لـك من كرامـات النـبي ﷺ مـا يعينـك على الخروج من رقك، وبـأيسر السبل.. لقد قلت تصـف ذلـك: (وأعانني أصحاب رسول الله ﷺ بالنخل؛ ثلاثين ودية، وعشــرين وديـة، وعشـرًا، كـلٌّ رجـلٍ منهم على قـدرِ مـا عنـده، فقـال لي رسول الله ﷺ: (فَقِّر لهـا، فـإذا فـرغت فـآذني، حـتى أكـون أنـا الـذي أضـعها بين يـدي)، ففقرتهـا وأعـانني أصـحابي، (يقـول: حفرت لها حيث توضع)، حتى فرغنا منهـا، ثم جئت رسـول اللـه ﷺ فقلت: يـا رسـول اللـه، قـد فرغنـا منهـا، فخـرج معي حـتى جاءهـا، وكنـا نحمـل إليـه الـوَدِيَّ، ويضـعه بيـده ويسـوِّي عليهـا، فوالذي بعثه بالحق، ما ماتت منهـا وديـة واحـدة، فـأديت النخـل وبقيت عليَّ الدراهم، فأتاه رجل من بعض المعادن بمثل البيضة من الــذهب، فقــال رســول اللــه ﷺ (أين الفارســي المســلم المكـاتب؟)، فـدعيت لـه، فقـال: (هـذه يـا سـلمان، فأدِّهـا ممـا عليك)، فقلت: يا رسول اللـه، وأين تقـع هـذه ممـا عليَّ؟ قـال: فإن الله تعالى سيؤدي بهـا عنـك، فوالـذي نفس سـلمان بيـده، لـوزنت لهم منهـا أربعين أوقيـة فأديتهـا إليهم، وكـان الـرقُّ قـد حبسني، حتى فاتني مع رسول الله ﷺ (بدر)، و(أُحُد)، ثم عتقت فشهدت الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد)

هذه هي رحلتك كما قصصـتها على ابن عبـاس وغـيره من الصحابة، وقد وصلتنا كمـا ذكرتهـا، واسـتفدنا منهـا كثـيرا، لا مـا يتعلــق بشخصــك فقــط، وإنمــا بــالقيم الــتي تحكم الشخصــية المسلمة الممتلئة بالحكمة والعقلانية والتريث والأدب.

وقـد ظـل هـذا البحث عن الحقيقـة والتضـحية في سـبيلها بكل شيء معك جميع حياتك إلى أن توفاك الله، فقد كنت تعلم أن الابتلاء الإلهي الذي تعرضت له الأديان السابقة ستتعرض لـه هذه الأمة أيضا، فلذلك رحت تبحث عن الأوصياء حـتى لا يكــون للهوى أي مجال للتلاعب بك، وبدينك.

2. الدال على الحقيقة:

لم يكن ذلك وحده ما مثل شخصك الكريم؛ فما فعلتـه من تلك الرحلة لم يكن سوى المقدمة، ولو اكتفيت بها لما نلت تلك المراتب الرفيعة، والمناقب العظيمة التي شـرفت بهـا من دون أكثر الصـحابة.. فهنـاك من وصـل إلى مـا وصـلت إليـه من نبـع الحقيقـة لكنـه بـدل أن يسـتمر في الـري منهـا، راح ينهـل من المنابع المكدرة.

لقد ذكـر اللـه تعـالى ذلـك، فقـال: ﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَــلُ الْقَــوْمِ الَّذِينَ كَــذَّبُوا بِآيَاتِنَــا فَاقْصُــصِ الْقَصَــصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175، 176]

بـل إنـك رأيت ذلـك بـأم عينيـك من ذلـك الصـحابي الـذي أسلم، وهاجر إلى الحبشة، وبدل أن يسـتمر في وفائـه للإيمـان راح ينفر منه[1]، ويرتـد بعـد أن رأى الحقيقـة بعينيـه كمـا فعـل

---

[1] () نقصد به عبيــد اللـه بن جحش الـذي قـال عنـه ابن إسـحاق عنـد ذكـر بعض من اعتزل عبادة قريش للأصنام: (وهم: ورقة بن نوفل، وعبيـد اللـه بن جحش، وعثمـان ابن الحويرث.. وأمـا عبيـد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأتـه أم حبيبـة بنت أبي سـفيان مسـلمة، فلمـا قدمها تنصّر وفارق الإسلام، حتى هلك هناك نصرانياً.. وكان عبيد اللـه بن جحــش ــ حين تنصَّـر ــ يمـر بأصـحاب رسـول اللـه ﷺ وهم هنالـك من أرض الحبشـة، فيقـول: فقّحنـا وصأصأتم؛ أي أبصـرنا، وأنتم تلتمسـون البصـر ولم تبصـروا بعـد) (سـيرة ابن هشـام (1/ 223)، إسحاق بن راهويه في مسنده (4/27)

السامري قبله.

لكن الله تعالى حفظك، وحفـظ صـدقك وإخلاصـك، لـذلك كنت تمثل الحكمة والـرأي السـديد في كـل مواقفـك، في عهـد رسول الله ﷺ وبعده.

أما في حياته، فقد كان أول ثمار حكمتك، تلك الخطة التي اقترحتها على رسول الله ﷺ لتنقذ المسلمين من كيد الأحـزاب، وقد كان رسول الله ﷺ غنيا عن تلك المشورة، وكيـف لا يكـون غنيا، وهو المسدد بالوحي، لكنه أراد أن تكون تلك الخطة منـك، ليعرف المسلمون فضلك، ويجعلك من بعده مستشـارا لـه كمـا فعل رسول الله ﷺ.

وهكـذا، وفي تلـك الغـزوة شـاء اللـه أن تـرى المزيـد من الحقائق التي تدلك على المصير الذي سيصير إليه الإسلام، فقد ذكر المحدثون أنه لما أمر النبي ﷺ بحفر الخنـدق، عرضـت لهم صـخرة حـالت بينهم وبين الحفـر، فقـام رسـول اللـه ﷺ وأخـذ المِعْول، ووضع رداءه ناحية الخندق، وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَـدْلًا لَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعـام: 115] فنـدر ثُلُث الحجـر.. وكنت حينهـا قائمـا تنظـر، فـبرق مـع ضربة رسول الله ﷺ برقـة، ثم ضـرب الثانيـة، وقـال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: 115] فندر الثُّلُث الآخر، فبرقت برقة رأيتهـا أيضـا، ثم ضرب الثالثة، وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَـدْلًا لَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِــهِ وَهُــوَ السَّــمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعــام: 115] فنــدر الثُّلُث الباقي، وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس.

حينهـا رحت تسـأله قـائلا: (يـا رسـول اللـه، رأيتـك حين ضربت، ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة)، فقال رسول الله

ﷺ: (يا سلمان، رأيتَ ذلك؟)، فقلت: (إي والذي بعثك بـالحق يـا رسول الله(، فقال ﷺ: (فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتهـا بعيـني.. ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لي مدائن قيصر ومـا حولهـا، حتى رأيتها بعيني.. ثم ضربت الثالثة، فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني)[1]

وهكذا سرعان مـا تعلمت فنـون الحكمـة، وكيـف لا تفعـل ذلك، وأنت مع رسول الله ﷺ بكل كيانك، وقد أقـر رسـول اللـه ﷺ لك بذلك، فقد روي أنه آخى بينك وبين أبي الـدّرداء، فزرتـه، فرأيتـه يضـيق على نفسـه وأهلـه، فقلت لـه ناصـحا: (إنّ لربّـك عليك حقّا، ولنفسك عليك حقّا. ولأهلك عليـك حقّـا، فأعـط كـلّ ذي حقّ حقّه)، وعنـدما أتى النّـبيّ ﷺ، فـذكر ذلـك لـه، قـال ﷺ: (صدق سلمان) [2]

وهكذا كنت مـع رسـول اللـه ﷺ تنهـل من الحقـائق والقيم وتتمسك بها بكل كيانك إلى أن توفاه اللـه تعـالى.. حينهـا رحت تتمسك بكل الوصـايا الـتي أوصـى بهـا، وتنفـذها بكـل دقـة، ولا تكتفي بتنفيذها، وإنما تستعمل كـل مـا لـديك من حكمـة، حـتى تدعو لها.

لقد كان أول مواقفك مـا ذكـره المؤرخـون من اعتراضـك على ما حصل في السقيفة من البيعة التي لم يشارك فيهـا كـل المسلمين، والتي استبعد فيهـا الإمـام علي، وقـد روى البلاذري وغيره عن أحمد بن يحيى الجوني، قال: (قال سلمان الفارسـي

1() أبو داود (4302) والنسائي (6/43)

2() البخاري 13/151

حين بويع أبو بكر: (كرداذ وناكرداذ) ـ أي عملتم وما عملتم ـ لـو بايعوا علياً لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) [1]

وقلت حينهـا مخاطبـاً المبـايعين: (أصـبتم الخـير، ولكن أخطـأتم المعـدن)، وقلت لهم: (أصـبتم ذا السـن منكم، ولكن أخطأتم أهل بيت نبيكم، أما لو جعلتموها فيهم مـا اختلـف منكم اثنان ولأكلتموها رغداً)[2]

وقمت فيهم خطيبا، فقلت: (ألا أيها النـاس، اسـمعوا عـني حديثي، ثم أعقلوه عني، ألا واني أوتيت علماً كثيراً، فلو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل أمير المؤمنين لقالت طائفة منكم: هـو مجنون. وقالت طائفة أخرى: اللهم اغفر لقاتـل سـلمان. ألا إن لكم منايـا تتبعهـا بلايـا، ألا وان عنـد علي علم المنايـا والبلايـا، وميراث الوصايا وفصل الخطـاب وأصـل الأنسـاب، على منهـاج هارون بن عمران من موسى عليه السلام، إذ يقول رسول الله ﷺ فيه: (أنت وصيي في أهـل بيـتي، وخليفـتي في أمـتي، وأنت مـني بمنزلـة هـارون من موسـى)، ولكنكم أخـذتم سـنة بـني إسرائيل، فأخطأتم الحق، فأنتم تعلمون ولا تعملـون، أمـا واللـه لتركبن طبقاً عن طبق حذو النعل بالنعـل، والقـذة بالقـذة.. أمـا والذي نفس سلمان بيده، لـو وليتموهـا عليّـاً لأكلتم من فـوقكم ومن تحت أقدامكم، ولو دعوتم الطير لأجابتكم في جو السماء، ولو دعوتم الحيتان من البحـار لأتتكم، ولمـا عـال ولي اللـه، ولا طـاش لكم سـهم من فـرائض اللـه، ولا اختلـف اثنـان في حكم الله، ولكن أبيتم فوليتموها غيره، فأبشـروا بالبلايـا واقنطـوا من الرخاء، وقد نابذتكم على سواء، فانقطعت العصـمة فيمـا بيـني

1 () الأنساب / 591.

2 () شرح النهج6 / 43.

وبينكم من الولاء) [1]

ثم قلت لهم مذكرا بما حصل في عهد رسول الله ﷺ: (عليكم بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فوالله لقد سلمنا عليه بالولاية وأمرة المؤمنين مراراً جمة مع نبينا ﷺ، كل ذلك يأمرنا به، ويؤكده علينا، فما بال القوم عرفوا فضله فحسدوه! وقد حسد هابيل قابيل فقتله! وكفاراً قد ارتدت أمة موسى بن عمران، فأمر هذه الأمة كأمر بني إسرائيل، فأين يذهب بكم؟.. أيها الناس، ويحكم ؛ أجهلتم أم تجاهلتم، أم حسدتم أم تحاسدتم؟ والله لترتدن كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف، يشهد الشاهد على الناجي بالهلكة، ويشهد الشاهد على الكافر بالنجاة، ألا وأني أظهرت أمري، وسلمت لنبيي، واتبعت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة علياً أمير المؤمنين وسيد الوصيين، وقائد الغر المحجلين، وإمام الصديقين والشهداء والصالحين)[2]

وكنت تروي لهم حينها ما سمعته من رسول الله ﷺ وأحاديثه في الإمام علي، ومنها قوله ﷺ: (عليكم بعلي بن أبي طالب فإنه مولاكم فأحبوه، وكبيركم فاتبعوه، وعالمكم فأكرموه، وقائدكم إلى الجنة فعززوه، فإذا دعاكم فأجيبوه، وإذا أمركم فأطيعوه، أحبوه بحبي، وأكرموه بكرامتي، ما قلت لكم في علي إلا ما أمرني به ربي جلت عظمته)[3]

---

[1] () الاحتجاج 1 / 151 ـ 152.

[2] () الاحتجاج 1 / 151 ـ 152.

[3] () فرائد السمطين ص 78.

وهكذا كنت تردد عليهم ما ورد من أحاديث رسول اللـه ﷺ الكثـيرة عن دور الإمـام علي في الأمـة، وأن رسـول اللـه ﷺ أوصى له بولاية أمـر المسـلمين، وخاصـة عنـدما أكـد ذلـك في غدير خم، بعد أن قضى مناسـكه[1] وقفـل راجعـا إلى المدينـة، فلمّـا انتهى إلى غـدير خم، نـزل عليـه قولـه تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَـا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَـلْ فَمَـا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَاللّـهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللـه لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْكَافِرِين﴾ [المائـدة:67]، حينهـا خطب رسـول اللـه ﷺ قـائلا: (إنّي أوشك أن أدعى فـأجيب، وإنّي مسـئول، وأنتم مسـئولون، فمـاذا أنتم قـائلون؟)، فقـالوا: نشـهد أنّـك قـد بلّغت، ونصـحت وجهـدت فجـزاك اللـه خـيرا، ثم قـال رسـول اللـه ﷺ: (ألسـتم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وأنّ جنّتـه حقّ، وأنّ ناره حقّ، وأنّ المـوت حـقّ، وأنّ السّـاعة آتيـة لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور...)، فقالوا: بلى نشهد بذلك، فقال ﷺ: (اللهمّ اشهد)

بعد كل هذه التمهيدات، قال ﷺ: (إنّي فرط على الحـوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صـنعاء وبصـرى، فيه أقداح عدد النّجـوم من فضّـة، فـانظروا كيـف تخلّفـوني في الثّقلين؟.. الثّقل الأكبر كتـاب اللـه، طـرف بيـد اللـه عـزّ وجـلّ، وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضـلّوا، والآخـر الأصـغر عـترتي، وإنّ اللّطيـف الخبـير نبّـأني أنّهمـا لن يتفرّقـا حتّى يـردا عليّ الحـوض، فسـألت ذلـك لهمـا ربّي، فلا تقـدّموهما فتهلكـوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا) [2]

1() ما أورده هنا هو من روايات متفرقة وردت في الصحاح والسنن وغيرها.

2() صحيح مسلم (2408) والترمذي (3788) واللفظ له. وغيرهما كثير.

ثمّ أخذ ﷺ بيد الإمام علي، ورفعها، ثم قال مخاطبا الجموع الكثيرة التي احتشدت: (أيّها النّاس، من أولى النّاس بـالمؤمنين من أنفسهم؟)، فأجابوا: الله ورسوله أعلم، فقـال ﷺ: (إنّ اللـه مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بـالمؤمنين من أنفسـهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه)

وكرر ذلـك وأكـده، ثم ختمـه بقولـه: (اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخـذل من خذلـه، وأدر الحـقّ معـه حيث دار، ألا فليبلّـغ الشّاهد الغائب...)[1]

لقد فهمت ــ سـيدي ــ أنت والصـحابة المنتجـبين من هـذا الحــديث أن رســول اللــه ﷺ يــدل الأمــة على الإمــام علي، لا للقرابة الـتي بينهمـا في النسـب، وإنمـا لكـون الإمـام علي هـو التلميذ الأكبر لرسول الله، والذي لم يغب عنه لحظة واحدة، بل إنــه الوحيــد الــذي ربي في حجــره، وبقي معــه إلى يــوم دفنــه، ولذلك كان أكثرهم علما بالدين، وأكثرهم حرصا على تنفيذ كــل تعاليمه.

1() الشطر الأول من الحديث ـ كما ينص المحدثون ـ: متواتر، نص على تـواتره عـدد من الحفاظ، وأما الزيادة الواردة في الحديث، وهي قوله ﷺ: (اللهم وال من والاه، وعـاد من عاداه) فهي صحيحة، وقد وردت عن عـدد من الصـحابة، وصـححها عـدد من الحفـاظ من رواية أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص.. وقـد خصص الحافظ ابن عقدة لها مصنفا مستقل، استوعب فيه طرقهـا، ومثلـه السـيد أحمـد بن الصديق الغماري في: (الإعلام بطرق المتواتر من حديثه عليه السلام)، بـل إن الإمـام أحمد نفسه ذكر في (الفضائل)، والنسائي في (الخصائص)، وابن الجزري في (المناقب)، والهيثمي في (المجمع) روايات كثيرة في الدلالة عليه وعلى معناه.

لكنــك رأيتهم ينصــرفون إلى تلــك المقــاييس الــتي تعطي قريشا الحــق في تحديــد الإمــام متناســين أنهــا أكــثر من حــارب الــدين، وأن كــل مــا ورد في القــرآن الكــريم عن قســوة قلــوب المشركين، نزلت فيهم.

لكنك مع ذلك ـ سيدي ـ التزمت ما فعلـه إمامـك علي، من الحفاظ على وحدة المسـلمين، وعـدم الخـروج عليهم، والنصـح لهم ولأئمتهم، وقد روي أن عمرا سألك: أملـك أنـا أم خليفـة؟.. فقلت له: (إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقــل أو أكثر ووضعته في غير حق، فأنت ملك غير خليفة)[1]

وعندما شاء الله أن تتـولى بعض المناصـب، اسـتننت فيهـا بسنة النــبي ﷺ وســنة أئمــة الهــدى، فلم تغــوك الــدنيا، ولم تبن القصور، ولم تتغير حياتك قبل الولايـة ولا بعـدها، وكيـف تغـيرك الدنيا، وأنت ابن الآخرة.

لقد روى المؤرخــون عنــك الكثـير من الروايـات في ذلــك، وهي كافية للتفريق بين المنتجبين من أصحاب رسـول اللـه ﷺ، وبين غـيرهم من الـذين لم يسـتطيعوا الحفـاظ على العهـد، ولا التزام القيم..

ومن ذلك ما رواه أبو قلابـة أن رجلاً أتـاك، فوجـدك تعجنُ، فقال: أين الخادم؟ فقلت: (أرسلته في حاجـة، فلم يكن لنجمـع عليه اثنتين: أن نرسلَه ولا نكفيـه عملـه)، فقـال الرجـل: إن أبـا الدرداء يقول: عليك السلام، قلت: (مـتى قـدمت؟)، قـال: منـذ ثلاث، قلت: (أما إنك لو لم تؤدِّها كانت أمانة عندك) [2]

---

1 () الكامل 3 / 59..

2 () رواه أبو نُعَيم في الحلية، حياة الصحابة (3/ 346)

وروى سلامة العجلي قـال: (جـاء ابن أخت لي من الباديـة يقـال لـه قُدامـة، فقـال لي أحب أن ألقى سـلمان الفارسـي فأسلّم عليه، فخرجنا إليـه فوجـدناه بالمـدائن وهـو يومئـذ على عشرين ألفاً، ووجدناه على سرير يسف خوصـاً، فسـلَّمنا عليـه، قلت: يـا أبـا عبـد اللـه هـذا بن أخت لي قـدم عليَّ من الباديـة فأحب أن يسلم عليك، قال: وعليـه السـلام ورحمـة اللـه، قلت يزعم أنه يحبك، قال: أحبه الله)[1]

وروى الحارث بن عميرة قال: (قدمت إلى سلمان المدائن فوجدته في مدبغة له يعرك إهاباً بكفيه، فلما سلَّمت عليه قـال: مكانك حتى أخرج إليك. قلت: والله ما أراك تعرفني، قال: بلى، قـد عـرفت روحي روحـك قبـل أن أعرفـك، فـإن الأرواح جنـود مجنَّدة فما تعارف منها في اللـه ائتلـف ومـا كـان في غـير اللـه اختلف)[2]

وروى ميمـون بن مِهْـران عن رجـل من بـني عبـد القيس قـال: رأيت سـلمان في سـرية وهـو أميرهـا على حمـار وعليـه سراويل، وخدمتاه تَذَبذبان، والجند يقولون: قد جاء الأمير، فقال سلمان: إنما الخير والشر بعد اليوم) [3]

وعن رجل من عبد القيس قال: كنت مع سلمان الفارسـي وهو أمـير على سـرية، فمـر بفتيـان من فتيـان الجنـد فضـحكوا وقالوا: هذا أميركم، فقلت: يـا أبـا عبـد اللـه ألا تـرى هـؤلاء مـا

---

1 () رواه أبو نُعَيم في الحلية، حياة الصحابة (3/ 346)

2 () رواه ابن عساكر وأبو نعيم في الحلية، حياة الصحابة (3/ 346)

3 () الزهد لأبي داود (ص: 231)

يقولون؟ قال: (دَعْهم؛ فإنما الخير والشر فيما بعد اليوم، إن استطعت أن تأكل من التراب فكل منه ولا تكونن أميراً على اثنين، واتَّقِ دعوة المظلوم والمضطر فإنها لا تُحجب) [1]

وحدث ثابت قال: كان سلمان أميراً على المدائن وكان يخرج إلى الناس في أندَرْورد وعباءة، فإذا رأوه قالوا: كُرْك آمذ، كُرْك آمذ، فيقول سلمان: ما يقولون؟ قالوا: يشبهونك بلعبة لهم، فيقول سلمان: لا عليهم فإنَّما الخير فيما بعد اليوم[2].

وقال: كان سلمان أميراً على المدائن، فجاء رجل من أهل الشام من بني تيم الله معه حمل تين، وعلى سلمان أندَرْورْد وعباءه، فقال سلمان: تعالَ احملْ - وهو لا يعرف سلمان -، فحمل سلمان، فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير، قال: لم أعرفك، فقال له سلمان: لا، حتى أبلغ منزلك[3].

وحدث هُرَيم قال: (رأيت سلمان الفارسي على حمار عُرْى وعليه قميص سنبلاني قصير ضيق الأسفل، وكان رجلاً طويل الساقين كثير الشعر، وقد ارتفع القميص حتى بلغ قريباً من ركبتيه، قال: ورأيت الصبيان يُحضِرون خلفه. فقلت: ألا تنحون عن الأمير؟ فقال: دَعْهم فإنما الخير والشر فيما بعد اليوم) [4]

1() الطبقات الكبرى لابن سعد، (4/ 66)

2() المرجع السابق.

3() المرجع السابق.

وحدث عبد الله بن بُريدة، قال: (كان سلمان يعمل بيديه، فإذا أصاب شيئاً اشترى به لحماً - أو سمكاً - ثم يدعو المجذَّمين فيأكلون معه) [1]

وحدث الحسن عنك، فقال: كان عطاء سلمان خمسة آلاف درهم، وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، وإذا خرج عطاؤه أمضاه، ويأكل من سفيف يده[2].

وهكذا وردت الروايات الكثيرة، والتي تدل على القيم الإسلامية العظيمة، وترد في نفس الوقت على تلك التحريفات التي حولت الحكم الإسلامي إلى ملك عضوض.

ولم تكن تكتفي بذلك.. بل كنت تحذر بكل قوة ــ مثل إخوانك من المنتجبين ـ المسلمين من تلك الأموال التي جبوها من كل بلاد الله، والتي أُمروا بهدايتها، لا بجباية أموالها، وقد روي أنك خاطبت من فرح ببعض الغنائم، مذكرا لهم بما ستصير إليه تلك الأموال واستعمالها في حرب آل بيت النبوة، فقلت: (إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه بما أصبتم اليوم من الغنائم)[3]

4() المرجع السابق.

1() حياة الصحابة (3/ 348)

2() رواه أحمد، 23711، وابن سعد، حياة الصحابة (2/ 545)

3() الكامل 4 / 42.

وروي أنك مررت بكربلاء، فقلت: ما تسمون هــذه الأرض؟ قالوا: كربلاء. فقال: هذه مصارع إخواني، هــذا موضــع رحــالهم، وهــذا منــاخ ركــابهم، وهــذا مهــراق دمــائهم، يقتــل بهــا ابن خــير الأولين، ويقتل بها خير الآخرين) [1]

لقد قلت ذلك في غزوة بلنجر سنة اثنتين وثلاثين للهجــرة، أي قبل واقعــة كــربلاء بثلاثين ســنة[2].. وكــل ذلــك ليس رجمــا بالغيب، وإنما لمــا علمــك رســول اللــه ﷺ من علــوم الفتن ومــا سيحصل للأمة من تغيير وتبديل.

وهكذا كنت تظهر لهم بمظهر الزهد والتواضــع، لا من بــاب تحريم ما أحل اللــه، وإنمــا للتحــذير من الســعي وراء الــدنيا، ثم استعمال الــدين وســيلة لاقتناصــها، مثلمــا كنت تــراه بعينــك في أولئك الذين أثروا ثراء فاحشا.

وهكذا كنت تسير في حياتك سيرة المنتجــبين من أصــحاب رسول الله ﷺ الذين حافظوا على العهود، ولم تســتهوهم الــدنيا ولا أهواءها، فالدنيا هي الشباك التي يصــطاد بهــا الشــيطان من يريد جرهم لتحريف الدين، كما قال تعالى عن أهل الكتــاب من قبلنا: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْـفٌ وَرِثُـوا الْكِتَـابَ يَأْخُـذُونَ عَـرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَـا وَإِنْ يَـأْتِهِمْ عَـرَضٌ مِثْلُـهُ يَأْخُـذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَـاقُ الْكِتَـابِ أَنْ لَا يَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَـقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ ﴾ [الأعراف: 169]

ومما يروى عنك في ذلك مــا رواه عطيــة بن عــامر، قــال:

[1] () فتوح البلدان / 406.

[2] () الكامل 3 / 132.

رأيت سلمان الفارسي أكره على طعـام يأكلـه، فقـال: حسـبي حسبي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا في الآخرة) [1]

وحدث أبو عبد الرحمن السُّلمي عنك، أنهم لما رأوا حالـك من الزهد والفاقة، وفروا لـك بيتـا بكنـدة لتسـكنه، فلمـا رأيتـه، قلت: (ارجعوا آجركم اللـه.. أمحمـوم بيتكم، أم تحـولت الكعبـة في كندة؟)، فقـالوا: مـا بيتنـا بمحمـوم، ولا تحـولت الكعبـة في كندة.. ثم لم تدخله حتى نُزع كل ستر الـبيت غـير سـتر البـاب، فلما دخلت رأيت متاعـاً كثـيراً فقلت: لمن هـذا المتـاع؟ قـالوا: متاعك، قلت: (ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ.. أوصاني خليلي أن لا يكون متاعي من الدنيا إلا كـزادِ الـراكب).. ورأيت خـدماً فقلت: لمن هذا الخدم؟ فقالوا: خدمك وخـدم أهلـك، فقلت: (مـا بهـذا أوصاني خليلي ﷺ) (2)

وحـدث الأعمش عنـك قـال: سـمعتهم يـذكرون أن حذيفـة قال لسلمان: يا أبا عبد الله ألا أبني لك بيتاً؟ قـال: فكـره ذلـك، قال: رويدك حـتى أخـبرك: إني أبـني لـك بيتـاً إذا أضـجعت فيـه رأسـك من هـذا الجـانب ورجلاك من الجـانب الآخـر، وإذا قمت أصاب رأسك. قال سلمان: كأنك في نفسي[3].

وقد ظللت على هـذا المنهـاج تمثـل الـدين والقيم النبيلـة، وتـدعو إليهـا بلسـانك وفعالـك إلا أن توفـاك اللـه تعـالى، وأنت

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 198)

2() رواه أبو نعيم في الحلية، حياة الصحابة (3/ 489)

3() رواه أبو نعيم في الحلية، حياة الصحابة (2/ 545)

محافظ على العهود، غـير مغـير ولا مبـدل، وقـد روي أنَّ سـعدا دخل عليك يعودك في مرض موتك، فبكيت، فقال لك سعد: مـا يبكيـك؟ تلقى أصـحابك، وتـرد على رسـول اللـه ﷺ الحـوض، وتُوفي رسول الله ﷺ وهو عنـك راضٍ، فقلت: (مـا أبكى جزعـاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا؛ ولكنَّ رسول الله ﷺ عهد إلينـا فقـال: (ليكن بُلْغـة أحـدكم من الـدنيا كـزاد الـراكب)، وهـذه الأساود حولي ـ ولم يكن حولك حينهـا سـوى مِطْهـرة أو إِنجانـة ونحوها.

عندما رأى سعد ذلك تأثر كثيرا، ثم طلب منك أن تنصـحه، فقلت: (اذكـــر ربَّك عنـــد همَّك إذا هممت، وعنـــد حكمـــك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت) [1]

وحدث عنك عامر بن عبد اللـه، قـال: (حين حضـر المـوت سلمان الخير، عرفوا منه بعض الجزعِ، فقالوا: ما يجزعك يا أبـا عبد الله؟ وقد كانت لك سـابقة في الخـير، شـهدت مـع رسـول الله ﷺ مغازي حسنة وفتوحاً عظاماً، فقال: يجزعـني أنَّ حبيبنـا ﷺ حين فارقنا عهد إِلينا قال: (ليَكْفِ المرءَ منكم كزادِ الـراكب، فهذا الذي أجزعني)، فجُمـع مـال سـلمان فكـان قيمتـه خمسـة عشر درهماً)[2]

وقد روي أنه عندما اشتد بك المرض، مررت على المقابر، فقلت: (السلام عليكم يا أهل القبور من المؤمنين والمسـلمين، يا أهل الـدار هـل علمتم أن اليـوم جمعـة)، وبعـد أن عـدت إلى بيتـك، واسـتلقيت على فراشـك، سـمعت قـائلا يقولـك لـك:

[1] () رواه ابن ماجة، 4104، وأبو نعيم في الحلية، حياة الصحابة (2/ 545)

[2] () رواه ابن حبان، 706.

(وعليكم السلام يا أبا عبد الله، تكلمت فسمعنا، وسلمت فرددنا، وقلت: هل تعلمون أن اليوم جمعة، وقد علمنا ما تقول الطير في يوم الجمعة: قدوس.. قدوس.. ربنا الرحمن الملك) [1]

وعندما أفقت من غفوتك التفت إلى من حولك قائلاً لهم: (أسندوني)، فلما أسندوك رمقت السماء بطرفك، وقلت: (يا من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، وهو يجير ولا يجار عليه بك آمنتُ، ولنبيك اتبعت، وبكتابك صدقتُ، وقد أتاني ما وعدتني، يا من لا يُخلف الميعاد اقبضني إلى رحمتك، وانزلني دار كرامتك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) [2]

ثم التفت إلى من حولك قائلاً: (قال لي رسول الله ﷺ: (إذا حضرك أو أخذك الموت، حضر أقوام يجدون الريح ولا يأكلون الطعام ـ) تعني الملائكة، ثم أخرجت صرةً من مسك، فقلت: (هبة أعطانيها رسول الله ﷺ)، ثم بللتها، ونضحتها حولك، ثم قلت لأهلك: (قومي أجيفي الباب)، ففعلت، وجلست هنيهة، فسمعت هسهسةً، فصعدت، فإذا أنت قد مت وكأنما أنت نائم[3].

وقد حدث الأصبغ بن نباتة، قال: (فبينما نحن كذلك ـ منشغلين بموت سلمان ـ إذ أتى رجل على بغلة شهباء متلثماً،

1() بحار الأنوار (86/ 355)

2() بحار الأنوار: 22 / 379.

3() بحار الأنوار، (22/ 383)

فسلم علينا، فرددنا السلام عليه، فقال: يا أصبغ جـدوا في أمـر سلمان، وأردنا أن نأخذ في أمره، فأخذ معه حنوطاً وكفناً فقال: هلموا، فان عندي ما ينوب عنه، فأتيناه بماءٍ ومِغسـل، فلم يـزل يغسِّلُه بيده حتى فرغ، وكفَّنـهُ وصـلينا عليـه ودفنَّاه ولحـدَّه علي بيده، فلما فـرغ من دفنـه وهمَّ بالانصـراف تعلقت بثوبـه، وقلت له: يا أمير المؤمـنين، كيـف كـان مجيئـك؟ ومن أعلمـك بمـوت سلمان؟ قال: فالتفت إلي وقال: آخذُ عليك ـ يا أصبغ ـ عهد الله وميثاقه أنك لا تحدث به أحداً ما دمتُ حياً في دار الدنيا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أمـوت قبلـك؟ فقـال: لا يـا أصـبغ، بـل يطـول عمرك، قلت: يا أمير المؤمنين، خذ علي عهداً وميثاقاً، فإني لك سامع مطيع، إني لا أحدث بـه حـتى يقضـي اللـه من أمـرك مـا يقضي، وهو على كـل شـيء قـدير.. فقـال لي: يـا أصـبغ، بهـذا عهدني رسول الله، فاني قد صليت هذه الساعة بالكوفـة، وقـد خرجت أريد منزلي، فلما وصلت إلى منزلي اضطجعت، فأتـاني آتٍ في منـامي وقـال: يـا علي، إن سـلمان قـد قضـى نحبـه، فركبت وأخذت معي مـا يصـلح للمـوتى، فجعلت أسـير، فقـّرب الله لي البعيد، فجئت كما تراني، وبهذا أخبرني رسول الله ﷺ.. ثم إنــه دفنــه وواراه، فلم أرَ صـعد إلى السـماء، أم في الأرض نزل، فأتى الكوفة والمنادي ينادي لصلاة المغرب[1].

هذه سيدي كانت خاتمة حياتك الطويلة، والتي عشت فيهـا جميعا باحثا عن الحقيقة، لا عن الأموال، وقد آتاك اللـه بحسـب نيتك، فشرفك بلقاء أشرف خلقـه، وشـرفك بـأن تنجح في كـل الاختبـارات، وتحافـظ على كـل العهـود، وتمثـل كـل القيم.. وشرفك بعد ذلك بأن تكون من أولئك المعـدودين الـذين اتفقت الأمة جميعا على عدالتهم وحكمتهم وصفائهم.

---

[1] () بحار الأنوار: 22 / 380.

هذا الكتاب

هــذا الكتــاب محاولــة لتعميــق المحبــة الحقيقيــة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين وردت النصوص المقدسة بالثناء عليهم واعتبارهم نماذج شريفة للصحبة الحقيقيـة التي لم تبدل ولم تغـير ولم تتـأثر بـذلك الواقـع الجديـد الذي حصل بعد رسول الله ﷺ نتيجـة مـا فتح اللـه على المسلمين من الدنيا.

وقد كان الأساس الأول لاختيارنـا لهـؤلاء الأصـحاب مــا ورد من الثنــاء عليهم، والــذي اتفقت عليــه جميــع مـدارس المسـلمين، وخصوصـا المدرسـتين الكبـيرتين: السنة والشيعة، باعتبارهما الركنين الكبيرين للإسلام.

ولذلك استبعدنا كل من وقع فيه الخلاف بينهم، من أمثال أولئك الصحابة المختلقين الذين وضعهم سيف بن عمــر، أو من أمثــال أولئــك الــذين وضــعت لهم الفئــة الباغية الكثير من المناقب قصد الإضرار بالمخالفين لها، أو أولئـك الصـحابة الـذي وقفـوا أيـام الفتنـة مـع الفئـة الباغية مناصرين أو مؤيدين أو مقاتلين معها، وذلك بنــاء على اعتبار ذلك ثلمة كبيرة في وفائهم بعهودهم.